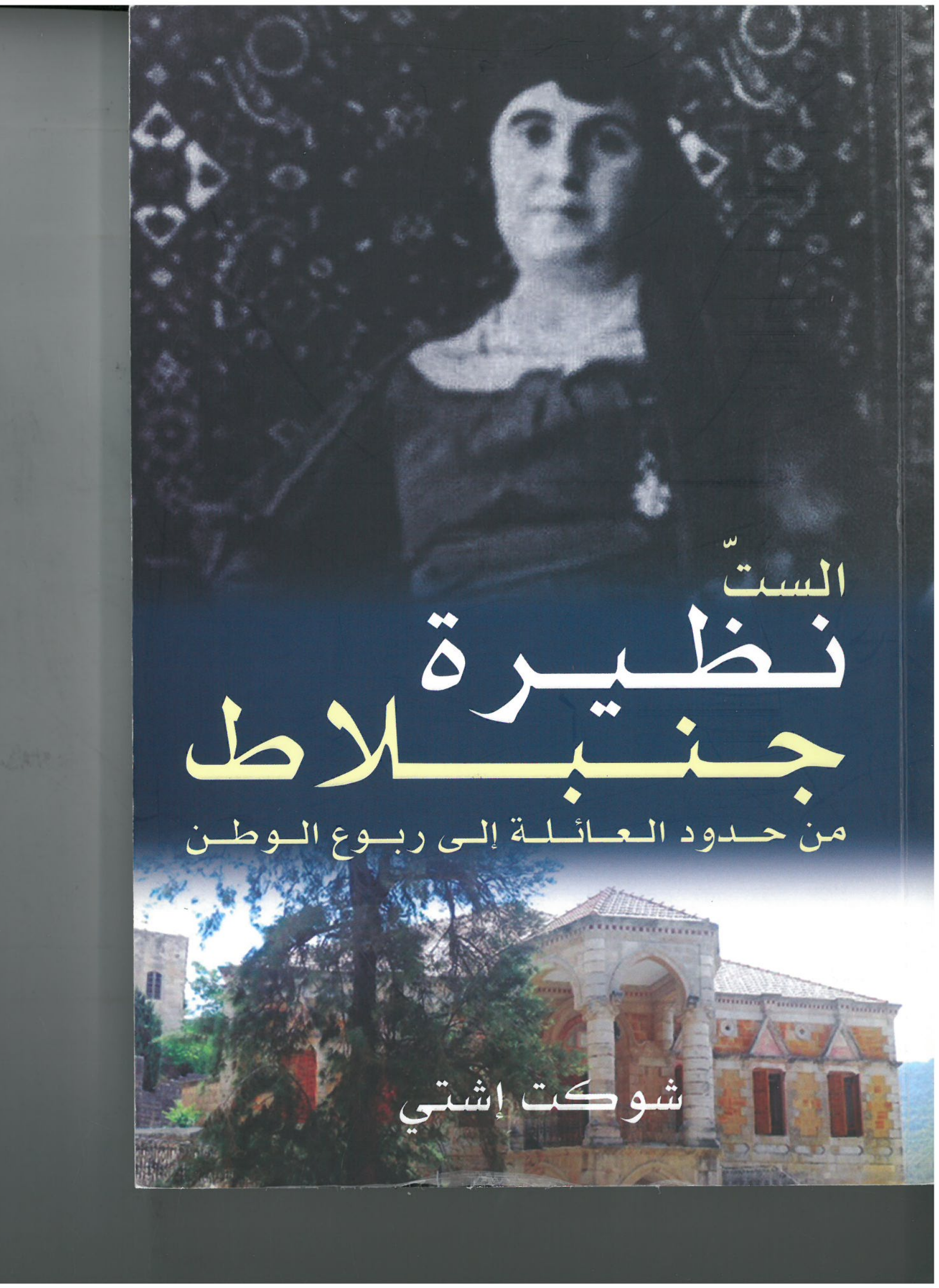
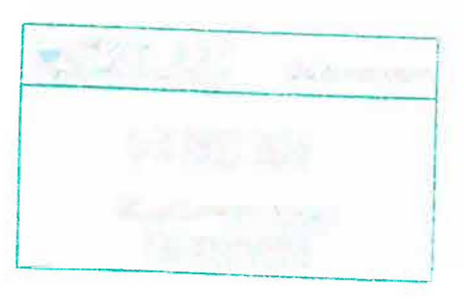

السّت
نظيرة
جنبلاط
من حدود العائلة إلى ربوع الوطن
شوكت إشتي

شوكت إشتي

# السِّتّ نظيرة جنبلاط
•••
# من حدود العائلة إلى ربوع الوطن





دار النهار

يصدر هذا الكتاب بدعم من الأستاذ نعمة طعمة
النائب عن قضاء الشوف


الطبعة الأولى، كانون الثاني 2015
ص. ب 5188 - الحمراء، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-747623
darannahar@darannahar.com

ISBN 978-9953-74-380-6

**الاهداء**

........................................

**إلى أمّي**
**ستّ الحبايب**

# المحتويات

المقدمة ........ 13

## الفصل الأول: المسار التاريخي

المصطلح والنسب ........ 24
المحطة الأبرز........ 29
جبل لبنان المقصد ........ 32
1. البيئة الاجتماعية........ 32
2. العلاقات السياسية........ 34
الطلائع الأولى ........ 36
بدايات التأسيس ........ 40
الزعامة تفرض نفسها ........ 45
1. العلاقة مع الشهابيين........ 45
2. الصراعات داخل الطائفة........ 49
3. الزعامة داخل العائلة........ 53
نتائج أولية ........ 56

## الفصل الثاني: الزعيم المغدور

مؤشرات جديدة ........ 64
شخصيتان مختلفتان........ 71
الشخصية والاهتمام ........ 74
اضطرابات سياسية........ 79

حادثة الاغتيال ............ 82
النعي والمأتم ............ 88
نتائج مباشرة ............ 91

## الفصل الثالث: تأنيث الزعامة

الهوية الشخصية ............ 98
خيارات معقدة ............ 101
تراجع المنافسين ............ 104
عوامل موضوعية ............ 109
عوامل ذاتية ............ 115
تجربة خاصة ............ 119
تجارب نسائية ............ 120
مجالات التمايز ............ 127

## الفصل الرابع: المواصفات والطريقة السياسية

معالم الشخصية ............ 132
الطريقة السياسية ............ 140
1. احترام الوسط الاجتماعي ............ 140
2. التواصل مع الناس ............ 144
3. الاعتماد على المقرّبين ............ 153
4. مرونة سياسية ............ 157
5. الحشد الجماهيري ............ 164
6. توزيع الأدوار ............ 167
غاية محدّدة ............ 169

## الفصل الخامس: المظلّة الفرنسية

الطبيعة والمسبّبات ............ 180
1. تصرّف براغماتي ............ 185
2. خدمة الغرضية ............ 185
3. الانقسام المجتمعي ............ 186



4. حاجة فرنسية ............ 186
5. قراءة مميزة ............ 187
الثورة الممنوعة ............ 190
التبرير والنتائج ............ 197
المناخ الدرزي ............ 205

## الفصل السادس: الاتّجاه المعاكس

اختلاف في الشخصية ............ 213
مواضيع الخلاف ............ 221
1. مفهوم السياسة ............ 223
2. الاتجاه السياسي ............ 225
3. أطر العمل ............ 231
4. الميدان الاجتماعي ............ 234
الأجل المحتوم ............ 242
النعي والتشييع ............ 243

## الخاتمة: تمايز محدود

فرادة مقيّدة ............ 253
تقليدية صافية ............ 257

## لائحة بالمراجع

**أولاً**: المراجع باللغة العربية ............ 267
**ثانياً**: الكتب الأجنبية ............ 275
**ثالثاً**: الدوريات ............ 275
**رابعاً**: المقابلات الشخصية ............ 277

# المقدمة

الكتابة عن تجربة الست نظيرة جنبلاط ليست تكريماً لشخصها فقط، بل تكريمٌ للمرأة في وطننا، وتقديرٌ لدورها، واعترافٌ بطاقاتها، واقرارٌ بقدراتها.

فقد بينت هذه التجربة أمرين في الأقل: الأول، كشفت مدى الطاقات النسائية المخبوءة في مجتمعنا، والثاني، أشارت الى مدى الاجحاف الذي يطال المرأة ومسيرة تطورها.

من هنا، فإن الإطلالة على مسيرة الست نظيرة هي، في أحد أشكاله، اطلالة على التناقض بين التجديد والتجميد، وبين التحديث والتقليد في النظرة إلى المرأة وإلى موقعها وإلى دورها في المجتمع، الأمر الذي جعل التجربة سجينة هذا التناقض، ومحكومة بآفاقه المجتمعية والسياسية والثقافية...

فإذا كانت مشاركة المرأة في الشأن العام، وتعزيز موقعها في المجتمع قد أصبحا، في هذه المرحلة، أمراً مقبولاً مبدئياً، على اعتبار أن حضور المرأة المجتمعي ومشاركتها في ادارة شؤونه حقّ لها، مثلها في ذلك مثل الرجل، من جهة، وواجب عليها، بما تفرضه المواطنية من واجبات لخدمة مجتمعها وتنميته، من جهة أخرى، غير أن هذه النظرة – الإيجابية – لم تكن مقبولة أو معترفاً بها على هذا النحو في تراثنا الثقافي والاجتماعي والسياسي خلال فترة ليست ببعيدة. إذا لم نقل إنّ هذه الفكرة لا تزال تواجهها ممانعات واعتراضات ليست بقليلة حتى اليوم.

إن النظرة التي كانت سائدة في مجتمعنا ومكرسة في ذهنيته والتي تعبر عنها علاقات أفراده وجماعاته، انطلقت من نظرة دونية إلى المرأة وتجسّدت في تهميش دورها واستبعادها عن أي موقع عام أو مسؤولية جماعية. فلقد اختزن الموروث الثقافي في لبنان، كما في العديد من الأقطار والبلدان العربية والعالمثالثية... الكثير من الأحداث والوقائع والقصص والسلوكيات التي تعكس نوعاً من العدائية الصارخة تجاه المرأة، إلى درجة تكاد تنفي وجودها ككائن بشريّ.

فتوزيع الأدوار في المجتمع ارتكز على قاعدة التمييز بين الجنسين، بحيث أوكل المجتمع للرجل وظيفة «إعادة الإنتاج خارج المنزل»، بكل ما تختزنه هذه الوظيفة من نفوذ وموقع واعتراف له بالأولوية والتفوق على حساب الطرف الآخر في المجتمع الواحد، وللمرأة وظيفة «إعادة الإنتاج» داخله. لذا انحصر دورها في الأعمال المنزلية وفي حدود الأسرة من خلال الإنجاب وتربية الاولاد والخضوع التام للزوج، ربّ البيت.

لهذا صادر الرجل الشأن العام، وهيمن على كل نشاطاته وقضاياه، وأصبح صاحب القرار في السياسة والاقتصاد، بشكل خاص، وفي مختلف مجالات الحياة بشكل عام.

من هنا، كانت السياسة في المفهوم التقليدي مجالاً ذكورياً بامتياز، وبالتالي، فإن مشاركة المرأة في الحياة السياسية كانت معدومة، الأمر الذي جعل غيابها عن القرار والسلطة والزعامة أمراً مفروغاً منه. لذلك، فإن بروز ظاهرة نسائية في هذا المجال يبدو مغايراً للسائد ويدعو إلى الاستغراب والاستهجان من جهة، ويحفز على دراسة هذه الظاهرة ومحاولة معرفة كنهها ومتابعة تجربتها وتطورها، من جهة أخرى.

في مثل هذا الفضاء النظري وتجسيداته العملانية، برزت نظيرة فارس جنبلاط (1890–1951) كظاهرة خارجة عن سياقها التاريخي-المجتمعي، أو كسابقة غير معهودة في موقعها ودورها ومركزها. فهي استطاعت، بعد مقتل زوجها



فؤاد نجيب جنبلاط (1885–1921)، أن تتصدر كرسي الزعامة الجنبلاطية وتغدو أبرز زعماء الشوف، لما تمثله الأسرة والغرضية – «الحزبية» الجنبلاطية من موقع مميز وخاصٍّ عند طائفة الموحِّدين الدروز.

## تساؤلات أساسية

إن تجربة نظيرة جنبلاط، بما تتضمنه من موقع ونفوذ وسلطة، وفي ظل بيئة اجتماعية محافظة بطبيعتها، ومجتمع ذكوري بامتياز، تثير، في حد ذاتها، إشكالية معقدة، وعلى أكثر من صعيد، سواء لجهة التصدر الانثوي للموقع الذكوري الأول في بيئة محافظة بطبعها، أو لجهة انعكاسات هذه التجربة على محيطها المحلي والوطني، أو لجهة دور الزعامة في لحظة حضور «الزعيم الشرعي» أو لجهة دور الزعامة في لحظة التحولات السياسية... الأمر الذي يطرح تساؤلات أولية وأساسية حول طبيعة التجربة في بيئتها الخاصة من جهة، وفي محيطها الأوسع من جهة أخرى، وفي انعكاساتها وتأثيراتها المجتمعية من جهة ثالثة. فما هي العوامل التي ساهمت في تصدر نظيرة جنبلاط مركز الزعامة؟! هل يكفي القول بفقدان الزوج لانتقال الزعامة إلى الزوجة في عائلة تتصدر تاريخياً الزعامة السياسية ويمتد نفوذها إلى مختلف مظاهر الحياة في مجتمعها المحلي؟ هل يمكن أن تنتقل الزعامة بهذه السهولة، والتسليم بها بهذا اليُسر وتستمر متواصلة ما يقارب الثلاثين سنة (1921–1951) في ظل وجود منافسين على قدر كبير من الأهمية والتأثير والنفوذ في العائلة الجنبلاطية؟ كيف سلّمت المرجعيات الروحية، كما «القاعدة» الشعبية في طائفة الموحِّدين الدروز بهذه الزعامة؟ هل يمكن التسليم بتصدر امرأة لزعامة الغرضية – «الحزبية» الجنبلاطية في مواجهة الغرضية اليزبكية المنافسة لها داخل الطائفة نفسها؟ كيف تقبَّل المجتمع السياسي اللبناني، بعد تشكيل دولة لبنان الكبير، هذه المرجعية؟ وكيف تعامل المجتمع معها؟ وكيف تعاملت هي مع هذا

المجتمع؟ ما هي الأسباب التي بلورت التجربة وأعطتها الديمومة؟ هل يعود الأمر إلى شخصية نظيرة جنبلاط بحد ذاتها؟ أم الى تأثير الزعامة الجنبلاطية بشكل محدّد؟ أم إلى الظروف السياسية والمجتمعية التي رسمت خطوط تلك الفترة؟ أم إلى مجمل هذه العوامل مجتمعة؟ ما هي آلية العمل التي اعتمدتها نظيرة جنبلاط؟ ما هي إنجازاتها وخدماتها؟ ما هو تأثير التجربة على البيئة الاجتماعية الخاصة، كما على البيئة الاجتماعية الأوسع؟ هل ساهمت هذه السابقة في بروز تجارب مشابهة؟ هل غيّرت في الذهنية المجتمعية والسلوك المجتمعي تجاه المرأة ودورها؟...

في الإطار الاشكالي ذاته، فإنّ زعامة الست نظيرة ارتبطت، في بدايات الأربعينات، بمشاركة كمال جنبلاط وحضوره. فمنذ انتخابه نائباً لأول مرة (1943) أصبح الزعيم «الشرعي» للعائلة وللغرضية – «الحزبية»، ما جعل زعامة الخلف في حضور السلف مسألة لها التباساتها ومضاعفاتها وتساؤلاتها. فما هو تأثير الزعيم الجديد في الزعامة الإقطاعية التقليدية التي قادتها نظيرة جنبلاط؟ إلى أي مدى توافق الزعيمان؟ وما هي مجالات التلاقي وعناوين الخلاف بينهما؟

ويلاحظ، في خضم هذه التساؤلات، أنّ تزعّم الست نظيرة جنبلاط ترافق مع تكريس الانتداب الفرنسي وتشكيل دولة لبنان الكبير، وما أعقبه من مواقف متعارضة تجاه الدولة الناشئة وهيمنة الانتداب. كما ترافق مع اعلان الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الاطرش وتداعيات هذه الثورة على الكيان اللبناني، مما فرض مواقف تجاه الثورة، وامتداداتها الى لبنان عموماً وجبل لبنان خصوصاً. فما هو موقفها من هذه القضايا؟ وهل كان للفرنسيين دورٌ في تدعيم زعامتها وتوسيع نفوذها؟

إن تفسير هذه الظاهرة من خلال الإجابة عن التساؤلات المثارة يُدخل البحث إلى عمق الاجتماع المحلي الضيّق وخصوصياته، إضافة إلى البنية المجتمعية



اللبنانية. من هنا تتداخل في تفسيرها عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية وإيديولوجية... الأمر الذي يجعل البحث حول هذه التجربة وفيها أمراً مهمّاً وضرورياً.

## الضبط المنهجي

واجه البحث العديد من الصعوبات الناتجة من ندرة المصادر والمراجع، من جهة، ومن عدم التعامل مع التجربة كموضوع بحثي متكامل، من جهة ثانية، ولأن صاحبة التجربة، بحد ذاتها، لم تترك موروثاً «مادياً» يمكن الاعتماد عليه للانطلاق، من جهة ثالثة، إضافة إلى صعوبة ضبط الموضوع وحصره، من جهة رابعة. لذلك تمَّ التغلب على هذه الصعوبات من خلال الخطوات الآتية:

1. تجميع كل ما أمكن الوصول اليه في بطون الكتب التي تطرقت إلى نظيرة جنبلاط، ومتابعة الدوريات التي واكبت مرحلتها.

2. العودة إلى بعض الأشخاص الذين عايشوا التجربة وعرفوا صاحبتها بشكل مباشر أو غير مباشر، أو كانوا قريبين منها، أو جمعوا معطيات حولها من الآباء والأجداد. غير أن هذا الأمر اعترضته مطبات، من أهمّها أن العديد من هؤلاء رفضوا الحديث، ولم يرغبوا في إجراء مقابلة حول الست نظيرة لأسباب خاصة بهم، من جهة، ولأن العديد، من جهة أخرى، إذا لم نقل كل مَن عايش التجربة، أصبح في ذمة الله. لذلك تم السعي لتوفير عدد من المقابلات الشخصية كان لاصحابها الفضل في إغناء هذا الكتاب.

3. الضبط المنهجي من خلال التركيز على تجربة زعامة نظيرة جنبلاط بشكل مباشر، لأن مرحلة ما قبل تصدرها الزعامة (الطفولة، المراهقة، الزواج) كانت فيها الست نظيرة، من حيث المبدأ، فتاةً وامرأةً في مجتمعنا، من جهة، ولأنها لم تكن معروفة، من جهة أخرى. لذلك بدأ نجمها يسطع بعد مقتل فؤاد بك.

## مخطّط البحث

اعتمدنا في تقديم الموضوع على مجموعة من الفصول المترابطة في ما بينها، بحيث تكون إطلالة معمّقة على التجربة وصاحبتها. فقد تطرّق الفصل الأول إلى تاريخ الأسرة الجنبلاطية ووصولها إلى الجبل اللبناني وتحديد البذور الأولى لتزعمها في جبل لبنان، بحيث يتضح أن زعامة العائلة كانت كغيرها من الزعامات الإقطاعية التقليدية العريقة في البلاد التي لم يكن فيها للمرأة حضورٌ أو موقع.

أما الفصل الثاني فيمهّد لتصدر نظيرة جنبلاط من خلال عرض ما كان قبلها مباشرة في موقع الزعامة. ليدخل الفصل الثالث في ما أسميناه «تأنيث الزعامة» والعوامل التي مهّدت لها، سواء على المستوى الشخصي أو المستوى الموضوعي، وصولاً إلى تعيين أهم مجالات التمايز بين تجربة نظيرة جنبلاط وغيرها من التجارب النسائية الأخرى في مجتمعنا.

ويتطرّق الفصل الرابع إلى مواصفات الست نظيرة، ويوضح طريقة أدائها السياسي لينتهي إلى الغاية المحددة من تزعمها. أما الفصل الخامس فيناقش إشكالية العلاقة مع الفرنسيين وطبيعتها ومسبباتها من جهة، ويدرس من جهة أخرى أهم مظاهر هذه العلاقة من خلال الموقف من الثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان باشا الأطرش.

أما الفصل السادس فيعرض تصادم نهجها وأدائها مع نهج كمال جنبلاط، بحيث يعالج هذا الفصل عناوين الخلافات وأهم جوانبها، فيأتي كعرض تقويمي للتجربة في بعدها السياسي والاجتماعي. وتتعرّض الخاتمة أخيراً إلى أثر هذه التجربة في البيئة المجتمعية وفي موقع المرأة، وتحاول أن تحدِّد مدى انعكاسها على تحسين النظرة للمرأة ودورها في المجتمع.

من الجدير الإشارة إلى أن هذا الكتاب استند في جزء منه إلى مجموعة من



المقابلات الشخصية التي كانت عوناً لي على إتمام فصوله وتعميق معطياته، الأمر الذي يدفعني أولاً إلى شكر كل مَن استقبلني في بيته بكل محبة وفتح لي صدره وعقله وذاكرته، وتحمّل أسئلتي وإلحاحي وساعدني على لملمة الكثير من المعطيات والحقائق والأحداث. ويدفعني ثانياً إلى الإقرار بأنني أتحمّل المسؤولية في ما نقلته خلال هذه المقابلات. لذلك فإذا أخطأت في نقل الفكرة ممن قابلتهم أو أسأت فهمها، فإني أعتذر مسبقاً لأنني لم أتقصد الإساءة أو الإحراج لأي شخص منهم.

وفي الختام، أتمنى أن يكون هذا العمل مدخلاً لتعميق دراسة التجارب النسائية في بلادنا بشكل عام، والتجارب السياسية منها بشكل خاص، لما تحتله المرأة من دور أساسي في نهضة مجتمعنا وتنميته وتطويره في مختلف مجالات الحياة وميادينها المتعددة والمتشعبة.

الفصل الأول

■

# المسار التاريخي

تبرز العائلة الجنبلاطية كأحد البيوتات السياسية العريقة في لبنان، بل تبدو من الأسر القليلة جداً التي لم تزل تحتل موقعاً مميزاً لها في بيئتها الاجتماعية الخاصة، كما في البيئة اللبنانية العامة، الأمر الذي يجعل متابعتها أمراً ليس سهلاً وموضوعاً محفوفاً بالمخاطر والصعاب.

تتأتى بعض هذه الصعوبات من عمق امتدادها التاريخي. وتشير المراجع والتحقيقات إلى أن بداياتها السياسية الأولى تعزّزت مع السيطرة العثمانية على المنطقة، فتبلورت كإحدى العائلات والقبائل والأسر العسكرية والسياسية الحاكمة في بلاد الشام، ما يجعل عمرها السياسي يصل إلى قرون عدة، من جهة، ويجعلها من العائلات التي يتخطى نفوذها السياسي حدود لبنان ليمتد إلى المشرق العربي، من جهة ثانية، ويرتبط تاريخها ارتباطاً عميقاً بتاريخ المنطقة وتاريخ أسره وقبائله وعائلاته وصراعاتها وخصوماتها، من جهة ثالثة.

هاتان العراقة والاستمرارية تجعلان مقاربة مسارها التاريخي، كما مقاربة غيرها من البيوتات العريقة ومتابعتها، محاطة بهالة أسطورية ما. بل إن هذه الأسر تكوّن عن نفسها «رؤية أسطورية-بطولية[1]» فيتداخل في قراءتها

---

1. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط: ثورة الأمير الحديث**، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، دار المطبوعات الشرقية، ص 38.

الأسطوري بالتاريخي، والواقعي بالمتخيّل، والحقيقي بالزائف، والإيماني بالغيبي... ولعل هذه الوضعية هي حال معظم العائلات العربية «القيادية» أو «الممتازة» التي كُتب تاريخها إما من زاوية المدح – والمدح غالباً ما يشوِّه الحقائق أو يبالغ في تصويرها، وإما من زاوية الاعتراض والخصومة[2] – والخصومة غالباً ما تحرّف الخطاب وتشوّهه – وفي الحالتين تكون المقاربة غير موضوعية لأنها تنتقي المعطيات وتلغي المواقف والأحداث وتُحرّف الوقائع وتلوي عنق التاريخ وتطوّعه لخدمتها ومنطقها المنحاز ونظرتها المسبقة.

انطلاقاً من هذا الواقع «المرير»، هل يمكن الإطلالة على تاريخ العائلة الجنبلاطية من دون الانجذاب إلى «الحقل المغناطيسي» لأحد هذين المقتلين (المدح والخصومة)؟ وكيف؟

يسعى هذا الفصل جاهداً إلى التفلت من الشرك القائم، من خلال متابعة منهجية متأنية للتاريخ الاجتماعي–السياسي للعائلة الجنبلاطية، ولحظ أهم المحطات من مسارها، وصولاً إلى استقرارها في لبنان وتعرّجات هذا الاستقرار، والعوامل التي عززته وجعلته حاضراً في تاريخ جبل لبنان.

## المصطلح والنسب

تختلف الآراء في تحديد أصل كلمة «جانبولاد – جنبلاط» بين كونها كردية أو فارسية أو تركية. كما تتعدد الروايات عند التطرّق إلى جذور العائلة الجنبلاطية ونسبها بين عربي أو تركي أو كردي.

في موضوع أصل الكلمة، يشير كمال جنبلاط إلى أن «جانبولاد» هو الاسم الكردي للعائلة[3]. بينما يبيّن إيغور تيموفييف إلى أن الكلمة بالفارسية تعني

2. م.ن.
3. كمال جنبلاط: **هذه وصيتي**، الطبعة الأولى، 1978، مؤسسة الوطن، ص 40.



«الروح الفولاذية». والتعبير، كما كان يُنطق في الحقبة الغابرة، هو تسمية لرتبة عسكرية تُمنح لأشجع آمري العساكر[4]. في حين يعتبر د. خليل أحمد خليل أن أصل المصطلح تركي مؤلف من لفظتين «جان» و«بولاد» ومعناهما الجامع «روح الفولاذ» – أي مُولِّد القوة[5]. ويؤكد سليم هشي أن الكلمة–المصطلح مؤلفة من مقطعين–لفظين: «جن» و«بولاد»، غير أنها قد تكون من أصل غير مؤكد، تركي أو كردي[6]. والأقرب إلى الواقع هي نسبتها إلى بطل من الاسم نفسه «جنبلاط» خلال الفتوحات التركية حوالى 1400–1500[7].

مهما تنوعت الآراء في هذا المجال، فالثابت أن الكلمة التي أصبحت تلفظ وتُكتب في لبنان «جنبلاط»[8] ارتبطت في الأساس، ومن حيث المعنى اللغوي، بالبطولة والشجاعة والاحترام والقوة والمرتبة العسكرية. وغدت تحمل في مضمونها أبعاد «الزعامة» و«القيادة»، أو ما يمكن أن نسمّيه «البطل الشجاع والإشكالي» الذي يعتمد على قوة شخصيته ويستمد نفوذه وقيمته من «شجاعته

4. إيغور تيموفييف: **كمال جنبلاط الرجل والأسطورة**، ترجمة خيري الضامن، بيروت، الطبعة الأولى، تشرين الأول 2000، دار النهار، ص 501.
5. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط...**، م. س. ص 39.
6. سليم حسن هشي: **العائلة الجنبلاطية** (بالفرنسية)، بيروت، 1986، 140–150 ويشير محمد خليل الباشا إلى أن الكلمة لقب لجدهم مولاي بهاء بن أحمد العباسي الذي جمع شمل الأكراد وحكم أبناؤه من بعده، فلُقب بجدّ البلاد، أو بالجدّ البلاطي، فحرّفه الأكراد إلى جانبولاد. يراجع محمد خليل الباشا، **معجم أعلام الدروز**، المجلد الأول، المختارة، لبنان، 1990، الركن الوطني للمعلومات والدراسات، الدار التقدمية، ص. 319–320.
7. سليم حسن هشي: **العائلة الجنبلاطية** (بالفرنسية)، م.س، ص 18–19.
8. يشير د. سليم حسن هشي حول اعتماد كتابة اسم العائلة بـ«جنبلاط» يعود إلى أنه وجد، في زيارته لتركيا للبحث عن وثائق، أن اسم العائلة كُتب بالعربية على ضريح أحد مؤسسيها الكبار جنبلاط جنبلاط بهذا الشكل. بينما كُتب «جانبولاط» باللغة التركية. يراجع: سليم حسن هشي: **علي باشا جنبلاط**، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، دار لحد خاطر، ص 14.

الذاتية المقترنة بشجاعة رجاله»[9].

من هنا، فإن استمرارية الدور الزعامي لبعض رموز «العائلة الجنبلاطية» وأشخاصها، وفي مراحل متتالية من تاريخها، أسقط معنى المصطلح–اللفظ اللغوي على سلوكيات هذه الزعامات ونماذجها. وأُعطي لحضورها السياسي والاجتماعي كل ما يعنيه المصطلح ويرمز إليه.

أما في موضوع نسب العائلة وجذورها الأولى، فإن إيغور تيموفييف يعتبر أن نسب الجنبلاطيين وحسبهم يعودان إلى الأمراء الأيوبيين الأكراد الذين تربطهم صلة قربى بصلاح الدين الأيوبي[10]. وهذا ما يؤكده آل شدياق وسليم الهشي الذين يعتبرون أن أصل آل جنبلاط يعودان إلى آل جانبولاط في كردستان[11]. فهم أسرة كريمة النسب شريفة الحسب يتصل نسبهم بالأمراء الأيوبيين أصحاب الشام ومصر سابقاً[12].

يرفض د. محمد الباشا النسب الكردي للعائلة، ويعتبر أن الجنبلاطيين «أمراء عرب وليسوا أكراداً كما يتصور بعضهم. بل كانوا للأكراد سادةً ولبلادهم حكاماً ردحاً من الزمن»، مؤكداً رأيه بأن كمال جنبلاط في كتابه «هذه وصيتي» يشير إلى أن «جان بولاد» هو «الاسم الكردي لعائلتنا، ولم يقل هو اسم عائلتنا»[13].

والتأكيد على النسب العربي تورده مخطوطة الزبوكية التي طبعها المؤرخ

9. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م.س، ص 39.
10. إيغور تيموفييف: م.س، ص 501. ويشير دومينيك شوڤالييه إلى أن آل جنبلاط الذين استقروا في جبل لبنان في القرن السابع عشر ربما هم من أصل كردي. يراجع: دومينيك شوڤالييه: **مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا**، بيروت، 1994، دار النهار، ص 193.
11. يراجع: د. سليم حسن هشي: **علي باشا جنبلاط**، م. س، ص 10.
– د. سليم حسن هشي: **العائلة الجنبلاطية** (بالفرنسية)، م. س، ص (18–19).
12. يوسف خطار أبو شقرا (المؤلف): **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**، ص، 19.
13. «**النهار**»، 20 أيار 1996.



العراقي محفوظ محمد عمر والمنشورة في الموصل (العراق). وهي تعتبر أن أعضاء هذه العائلة (جنبلاط) هم من السلالة العباسية أقرباء الأمويين[14]. ويدعم محمد خليل الباشا القول بالهوية العربية – العباسية للعائلة الجنبلاطية بناء على أمور عدة، من أهمها[15]:

أولاً: إنّ جدوده (الباشا) من العراق قد خرجوا مع جدود الجنبلاطيين بعد اضطهاد الخليفة أبي جعفر القائم بأمر الله عبدالله (1031–1075) أتباع الدعوة الفاطمية.

ثانياً: إنّ آل الحسنية في عين وزين يقولون إنهم هُجّروا من منطقة كربلاء مع جدود الجنبلاطيين.

ثالثاً: إنّ أحد جدود آل جنبلاط كان حاكماً في بلاد الأكراد ويدعى عربشاه، ويلقّب بابن عربو. فلو كان كردياً لما دُعي بهذا الأسم، أي السيد العربي.

رابعاً: إنّ علي باشا جنبلاط عندما وقّع معاهدة مع غراندوق توسكانا في العام 1607 ورد في نصها: علي بن أحمد بن جانبولاد من سلالة عباس، رضي الله عنه.

خامساً: إنّ الأمير جنبلاط بن قاسم كتب في قبة الجامع الذي بناه في كلس 975هـ. «آل حمزة آل عباس».

في هذا المجال، يذهب انيس يحيى في منحى آخر، عند محاولته تحديد جذور العائلة الجنبلاطية ونسبها. فأصل الجنبلاطيين في الخلاصة التي توصّل إليها أنّهم «أحفاد أسرة شوفية تعود بنسبها إلى جموع التنوخيين، ولا تمتّ بأدنى صلة إلى الجانبولاديين الأكراد»[16]. ويعتبر أنه من «المغالطات» الكبيرة والمخالفة

14. د. سليم حسن هشي: **العائلة الجنبلاطية** (بالفرنسية)، م. س، ص 18–19.
15. محمد توفيق الباشا: **معجم**...، م. س، ص (318–320).
16. أنيس يحيى: **الشيخ بشير جنبلاط وتحقيق وصيته (1775–1825)**، بيروت، 2001، دار الفنون، هامش ص 13.

لـ«الحقيقة» والمنطق «التاريخي» أن تكون العائلة الجنبلاطية التي ما زالت امتداداتها البشرية والسياسية والاقتصادية مستمرة حتى يومنا هذا، هي من ذرية اللاجىء إلى الشوف من آل جانبولاد الحلبيين، وليس «لسبب إلاّ تيقّننا»، بحسب رأيه، من وجود زعيم شوفي يحمل اسم جنبلاط وإليه انتسبت الفئة الجنبلاطية[17].

وبالرغم من المغالاة غير المبررة في رأي أنيس يحيى حول نسب العائلة، فإن قوة التداخل في جذور العائلة ومسارها الطويل، بين عربي وكردي وتركي، لهو أمر واضح تاريخياً. وهذا النوع من التداخل ليس بالضرورة سلبياً، بل إنه حالة معبِّرة عن التشابك الإثنيّ الحاصل بين عائلات المنطقة وشعوبها من جهة، والمعبِّر من جهة أخرى عن واقع التحوّلات التي كانت تحدث في هذه العائلات أو الجماعات نتيجة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، الأمر الذي يجعل الانحياز إلى اتجاه دون آخر والتطرف في الدفاع عنه، أمراً غير ضروري، من حيث المبدأ. خصوصاً وأنّ المراحل الأولى من تاريخ العائلة الجنبلاطية يبدو غامضاً وخاضعاً لتأويلات فرضتها الضرورات السياسية والاجتماعية للمنطقة، ولأن سلطة العائلة السياسية ومراكز نفوذها بقيت في البداية، ولفترة من الزمن، محصورة في أماكن محددة وفي نطاق ضيق، أسوة بغيرها من الأسر والقبائل والعائلات الأخرى، اذ تلعب طبيعة الأسرة والقبيلة ونوعية العلاقات التي نسجتها مع السلطة العثمانية المركزية دوراً أساسياً في تعزيز موقعها أو تهميشه.

لذلك، فإنه من شبه الثابت، مبدئياً، في نسب العائلة الجنبلاطية، عراقتها وعمق امتدادها التاريخي، الأمر الذي أهّلها إلى احتلال موقع لها في بعض المراحل التاريخية، وإلى لعب دور سياسي – عسكري استمر بأشكال مختلفة إلى يومنا هذا. فما هي أبرز هذه الأشكال؟ وكيف وصل آل جنبلاط إلى جبل لبنان؟

17. أنيس يحيى: م.ن، ص 18.



## المحطّة الأبرز

يمكن اعتبار الإمارة التي أنشأها آل جنبلاط – جانبولاد في شمال سورية المحطة الأبرز في تاريخ العائلة الجنبلاطية قبل قدومها إلى جبل لبنان.

لقد استعان السلطان سليم الأول بزعماء العشائر في سفوح كردستان ومن جملتهم أبناء أحمد «خانبولاد» وأحفاده الذين كانوا يشكلون قوة ضاربة ويتمتعون بالنفوذ في تلك المنطقة. فقبائل آل جانبولاد قاتلوا مع العثمانيين ضد المماليك وظهرت شجاعتهم، وبرز من بينهم قاسم جانبولاد (1480–1525) الذي أصبح مرافقاً للسلطان سليم الأول منذ العام 1516 في فتوحاته[18] وانتصاراته. فتوطدت العلاقة بين آل عثمان وآل جانبولاد، الأمر الذي جعل العثمانيين يعزّزون موقع قاسم جانبولاد في إمارة كلس في شمالي سورية، ويمنحونه لقب «بك» نتيجة بطولاته وخدماته، لما يتضمّنه هذا اللقب من دلالات سياسية، ولما يحمله من معانٍ وأبعاد اجتماعية، ولما يدل عليه من موقع ومكانة عاليين، ولما يتطلبه من أدوار ووظائف محددة[19].

غير أن العلاقة بين السلطنة العثمانية وولاتها كانت محكومة بالمصالح والدسائس وبرضى السلطان وانقياد الوالي. لهذا بقيت علاقة قاسم جانبولاد مع السلطان سليم الأول متوترة، وغير مستقرة[20]. وسرعان ما انقلب العثمانيون على قاسم جانبولاد وأعدموه وصادروا ممتلكاته. واستطاع علي بن أحمد بن جانبولاد استعادة مكانة العائلة وأسّس امارته في شمال سورية، فشملت حمص

18. د. سليم حسن هشي: **علي باشا جنبلاط**، م. س، ص 10.
19. لمزيد من الإطلاع حول الألقاب وصلتها بالمناصب والأدوار، يراجع: د. خليل أحمد خليل: **نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية (نموذج لبنان)**، بيروت، 1979، الطبعة الأولى، دار الحداثة، ص 44–74.
20. لمزيد من المعطيات يراجع: د. سليم حسن هشي: **علي باشا جنبلاط**، م. س، ص 19–43.

وحلب ودمشق وجزءاً من تركيا الأناضولية[21]. وكان علي صاحب اللقبين العثمانيين الرفيعين: البك والباشا، اللذين يدلان على علو مكانته[22] ومستوى موقعه ورفعته عند الباب العالي.

إن مرحلة علي باشا جانبولاد تميزت بكثرة الاضطرابات داخل الإمارة من جهة، وازدياد حدة التوتر بينه وبين السلطنة العثمانية من جهة أخرى. ولعل تعاظم دوره واتساع نفوذه جعلا السلطنة العثمانية ترتاب في أمره وتشك في صدق ولائه. وتعززت حالة العداء بينه وبين العثمانيين إثر مقتل عمه حسين. فجمع علي باشا ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل وامتنع عن دفع المال المترتب عليه للباب العالي وخرج عن طاعة السلطنة[23].

كما إنّ العلاقات التي نسجها مع «أعداء» العثمانيين قوّت نفوذه وعزّزته. فهو عقد عدة معاهدات مع الفاتيكان ودوقية توسكانا وإسبانيا والدويلات المسيحية التي كانت قائمة آنذاك[24]. وهذا ما رسّخ موقعه ووفّر له الدعم السياسي والعسكري للاستقواء على العثمانيين والتطاول عليهم.

ويبدو أن التحالف الذي أقامه علي باشا مع فرناندو الأول غراندوق توسكانا هو من أكثر التصرفات السياسية التي أثارت العثمانيين ضده[25]. واعتبر تصرفه بنظر العثمانيين خروجاً خطيراً عن الطاعة وطمعاً في تحقيق «مشروع استقلالي»[26] ونوعاً من التمرد الواضح، فعمدوا إلى البطش به وتصفيته سياسياً وعسكرياً، من خلال تجهيز حملة عسكرية ضخمة ضده بقيادة الصدر الأعظم

21. كمال جنبلاط: **هذه وصيتي**، م. س. ص 40.
22. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص 40.
23. الخوري بولس قرألي: **علي باشا جنبلاط والي حلب (1605-1611)**، بيروت، 1939، دار المكشوف، ص 19-20.
24. كمال جنبلاط: **هذه وصيتي**، م. س، ص 40.
25. بولس قرألي: م. س، ص 23-28 و59-60 و68-71.
26. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص 40.



مراد باشا القبوجي، فشبت معركة كبيرة وراء كلس وعلى بُعد يومين من حلب بالقرب من مكان يدعى العمق. فهُزم علي باشا هزيمة شنعاء بالرغم من أنه كان يقود ثلاثين ألف جندي، وذلك نتيجة لحيلة عسكرية عثمانية. فقد عمد العثمانيون إلى إغراء جنوده بالتقدم ثم حصدوهم بالمدفعية[27]... وبعد هزيمته، ،اقتحمت إمارته ومركزها في حلب، وتعرّض سكانها لمذبحة رهيبة استمرت أكثر من أسبوعين قُتل فيها أقرباؤه وأنصاره وباع العثمانيون والدته أمَةً بثلاثين غرشاً[28].

كان علي باشا زعيماً محنّكاً - براغماتياً إذا جاز التعبير - وواقعياً لا يعدم وسيلة للمحافظة على زعامته، سواء من خلال التمرد والعصيان، أو من خلال المرونة والحيلة والدهاء. فرغم هزيمته الكبيرة أمام الجيوش العثمانية، تفادى الأسر وطاف في بلاد الشام وآسيا الصغرى لحشد الزعماء المناهضين للعثمانيين. لكنه فشل في إقناعهم في الخروج على السلطنة، فما كان منه إلا أن توجّه مباشرة إلى الاستانة (1608) لكسب رضى السلطان والحصول على العفو ومحاولة استعادة مكانته، فعيّنه السلطان في منصب «بابلارباي قلعة تيمبشوار». لكن سرعان ما تجددت خلافاته مع الانكشارية، ففرّ إلى بلغراد. لكن الصدر الأعظم مراد باشا فوجىء بعد عودته إلى الأستانة بما جرى بين علي باشا والسلطان فأمر بإعدامه. وهكذا خُنق «علي باشا بوتر قوس في إحدى زنزانات بلغراد»[29].

كانت هزيمة علي باشا جانبولاد ثم إعدامه، الإعلان عن أفول زعامة آل جانبولاد في شمال سورية، فتشتَت ريحهم وخارت قواهم ونهبت ثرواتهم وتفرق أنصارهم وتفككت إمارتهم، الأمر الذي فرض عليهم البحث عن ملجأ

27. بولس قرألي: م. س، ص (68-71).
28. إيغور تيموفييف: م. س، ص 502.
29. م.ن.

آمن يلوذون إليه ويقيهم غدر الزمان وبطش الأعداء، أو يُحيي مَن تبقى منهم على قيد الحياة.

## جبل لبنان المقصد

تفرق آل جانبولاد في البلاد، فالتجأ قسم منهم إلى جبل لبنان حيث وجدوا المكان المناسب الذي يوفر لهم الطمأنينة والسلامة. ويبدو أن الظروف السياسية والبيئة الاجتماعية وفّرت لهم المعطيات الأولية للتوجه نحو الجبل والاستقرار فيه مقارنة بغيره من الأماكن. ويمكن توضيح ذلك بالآتي:

### 1. البيئة الاجتماعية

توفر البيئة الاجتماعية الحماية اللازمة لأفرادها، في ظل غياب مفهوم المواطنة وهيمنة التشكيلات الاجتماعية التقليدية بانتماءاتها الأولية كما كان سائداً أيام السلطة العثمانية. فقد أمّن «جبل لبنان» - الشوف البيئة الاجتماعية المناسبة للقادمين الجدد، خصوصاً لجهة المبادئ والقيم والمعتقدات الإيمانية الواحدة. لم تكن التقاليد والعادات الاجتماعية السائدة في مقاطعات الجبل اللبناني مختلفة في الأساس والجوهر عن المناطق والمقاطعات الأخرى في المشرق العربي، كونها تحمل، مبدئياً، سمات المجتمع التقليدي وخصائصه المشتركة[30] - غير أن التوافق في المعتقد الإيماني الواحد يساعد، في مثل الظروف الصعبة التي عرفها آل جانبولاد، على توفير محيط اجتماعي مريح، بحيث يُحسن وفادتهم ولا يُشعرهم بأنهم غرباء أو دخلاء.

لقد كانت غالبية سكان الشوف من الموحِّدين الدروز. ويبدو أن آل جانبولاد

30. د. وجيه كوثراني: **الاتجاهات الإجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي من المتصرفية العثمانية إلى دولة لبنان الكبير**، بيروت، 1986، منشورات بحسون الثقافية، ص 17.



كانوا قبل قدومهم إلى الجبل زعماء «المجتمع الدرزي» في حلب وسائر أجزاء سورية الشمالية[31]. وهذا ما يفترضه كمال جنبلاط في قوله: «إن اجدادنا كانوا قد سبقوا إلى المذهب الدرزي يوم كانوا لا يزالون يعيشون في منطقة حلب». واذا كان من غير الثابت تحديد الزمن الذي اعتنقت فيه العائلة الجنبلاطية المذهب الدرزي، غير أنه من المعروف أنه «ليس لمن لا ينتمي إلى هذه النحلة الباطنية أن ينتحلها ويصير درزياً»[32].

كما إن «امارة الجبل» التي كانت جزءاً من التنظيم الاقطاعي الذي كان سائداً في بلاد الشام وفي المناطق الأخرى من السلطنة العثمانية، ارتبطت منذ الفتح العثماني وحتى العام 1841 بـ«أمير الدروز» الذي هو في الأساس أمير بلاد الشوف[33]. فقد اعتبر جميع الأمراء الذين تعاقبوا على منصب «أمير الجبل» في «اقطاعية الشوف»، منذ الأمير الأول فخر الدين المعني وحتى الأمير بشير الثالث (1840)، من معنيين وشهابيين وعلى اختلاف انتماءاتهم «المذهبية» المعلنة، «امراء الدروز»[34].

31. د. حسن أمين البعيني: **دروز سورية ولبنان في عهد الإنتداب الفرنسي (1920-1943)، دراسة في تاريخهم السياسي**، بيروت، الطبعة الأولى، آب 1993، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ص 36.
- حنا أبي راشد: **حوران الدامية**، ص 552-553.
32. كمال جنبلاط: م. س، ص 40. ويشير الى أنه من شأن هذه الفرضية أن تفسير وجود (60) ألف درزي في هذه المنطقة من الأناضول في جنوب تركيا ووجود 20 ألف درزي آخر في الشمال السوري.
33. د. وجيه كوثراني: م. س، ص 13-14.
- أحمد بيضون: **الصراع على تاريخ لبنان**، بيروت، 1989، منشورات الجامعة اللبنانية، ص 47-48.
- محمد أمين طليع: **أصل الموحدين الدروز وأصولهم**، بيروت، طبعة أولى، 1961، بدون دار نشر، ص 114.
34. م. ن، ص 14.

=

إذن، كانت البيئة الاجتماعية المتجانسة في معتقدها الإيماني والتي يشدها إلى بعضها البعض الشعور «الأقلوي»، في منطقة عُرفت تاريخياً بأنها ملجأ للأقليات على اختلاف مشاربها، حافزاً مهماً بشكل او بآخر، لجذب آل جانبولاد، لما يمكن أن توفره لهم من حصن منيع وحامٍ أمين ليشعروا في أحضانه بأنّهم بين أهلهم وعشيرتهم وأبناء ملتهم.

## 2. العلاقات السياسية

لعبت العلاقات السياسية التي نسجها قاسم جانبولاد مع الأمير فخر الدين الأول – أمير الشوف (1516–1544) – دوراً مهماً في لجوء قسم من آل جانبولاد إلى إمارة الجبل.

وتعود العلاقة بينهما إلى الأيام الأولى للفتح العثماني لبلاد الشام. فبعد انتصار آل عثمان وهزمهم المماليك في معركة مرج دابق بقيادة السلطان سليم الأول وفتح دمشق، استقبل السلطان «الوفد اللبناني» برئاسة الأمير فخر الدين الذي جاءه مهنئاً بفتوحاته وانتصاراته. وحضر قاسم جانبولاد اللقاء لكونه من أعوان السلطان ومرافقيه. وكان من الذين شهدوا أيضاً منح «امير الشوف» لقب «سلطان البر» بعد خطبته في حضرة السلطان[35].

كانت هذه الواقعة البذرة الأولى للصداقة العميقة التي ترسخت لاحقاً بين آل معن وآل جانبولاد، وبالتالي عززت العلاقات «السياسية» بينهما. خصوصاً وأن تجربة آل جانبولاد في شمال سورية وآل معن ايام فخر الدين تبدو متماثلة، إلى حد بعيد، لجهة الخلفية المناوئة للسلطنة العثمانية، أو لجهة التحالفات التي أقاموها مع فرناندو الأول، غراند دوك توسكانا[36]، أو لجهة طموحهما لتوسيع

= – حيدر شهاب: **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**، تحقيق أسد رستم وفؤاد البستاني، بيروت 1933، ص 650–690.

35. يراجع للمزيد من المعطيات د. سليم حسن هشي: **علي باشا جنبلاط**، م. س.
36. بولس قرألي: **علي باشا جنبلاط**، م. س، ص 68–71.



النفوذ وتكبير الاقطاعية، الأمر الذي جعل لصداقتهما أبعاداً ومضامين سياسية تجسدت في أكثر من موقع ومرحلة.

توثقت العلاقة بين العائلتين وبقيت، إلى حد بعيد، محكومة بخلفياتها السياسية ومصالحها الإقطاعية. فامتدت إلى الأبناء من بعد الآباء. فقد عقد علي باشا جانبولاد، في بداية القرن السابع عشر، حلفاً عسكرياً مع فخر الدين الثاني – أمير دروز لبنان – في تمرده على السلطنة العثمانية و«إعلان دولته»[37]. وكان علي باشا كسر يوسف بن سيفا صاحب عكا، وراسل الأمير فخر الدين وأظهر له أنه «قريبه على بُعد النسب». فحضر إليه واجتمع به عند نبع العاصي للتشاور[38] في ما يمكن أن يستجد من تطورات، ما جعل أواصر التحالف بين الأسرتين تبدو متينة ولها جذورها التاريخية وامتداداتها المستقبلية.

لذلك، فإن الهزيمة الساحقة لعلي باشا بعد تمرده على العثمانيين والوحشية التي ارتكبت في حق عائلته بين عامي 1608–1610، دفعت مَن تبقى منهم إلى اللجوء إلى «الحليف» الأقرب وإقطاعيته تأميناً للسلامة وطلباً للحماية. فكان الشوف مقصدهم بالدرجة الأولى، مستندين في قدومهم إلى عمق الصداقة «السياسية» بين العائلتين وقِدَمها. ويبدو أن هذه العلاقة التي بدأت عابرة في بداياتها الأولى، عادت بالفائدة العظيمة على آل جانبولاد.

من هنا، نلاحظ أن هذين العاملين (الاجتماعي والسياسي) تكاتفا لتشجيع آل جانبولاد وتعزيز خيارهم بالتوجه إلى إمارة الجبل. فقد وجدوا فيها ما ساهم في إعادة تعزيز موقعهم واستعادة نفوذهم. مع الاشارة الى خاصية جبل لبنان الذي كان ملاذاً للأقليات المضطهدة والباحثة عن ملجأ آمن من بطش العثمانيين

37. للمزيد يراجع:
– إيغور تيموفييف: م. س، ص 501–502.
– د. سليم حسن هشي: م. س، ص 110–112.
38. بولس قرألي: م. س، ص 19–20.

وغدرهم.

## الطلائع الأولى

من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ محدد ودقيق لدخول عائلة آل جنبلاط إلى جبل لبنان، لأن كل مؤرخ يعطي تاريخاً مختلفاً، الأمر الذي يجعل الروايات في هذه المسألة متعددة ومتناقضة.

يشير آل الشدياق إلى أن دخول آل جنبلاط إلى لبنان كان في إحدى مرحلتين، 1607 أو 1630، بينما يحدد آخرون[39] تاريخ مجيئهم بسنة 1630.

يؤكد إيغور تيموفييف[40] أن المؤرخين لا يجمعون على تاريخ نزوح آل جنبلاط إلى لبنان، لكنه يرجح دخولهم في الفترة ما بين 1607 و1611، في حين يقدّر محمد خليل الباشا أن أول قدومهم إلى الأمير فخر الدين الثاني كان قبل معركة العُمق بمدة قصيرة، اي قبل العام 1607 في المرحلة التي كان فيها أمير الجبل على تواصل مع علي باشا جانبولاد، وفتحا الشام معاً. ويعتقد الباشا أن المؤرخين يقعون في خطأين عند التحديد: الخطأ الأول في قولهم إن مجيء آل جنبلاط كان سنة 1630، ذلك أن فخر الدين المعني الثاني كان قد كلف جنبلاط بن سعيد مهمة قلعة أرنون نحو العام 1612.

والخطأ الثاني وهو الأهم، ويتمثل في قولهم إن النزوح إلى لبنان كان بعد هزيمة علي باشا جانبولاد مباشرة. والسبب، برأيه، يعود إلى أن الهارب من العثمانيين لا

39. للمزيد من المعطيات يراجع:
- سليم حسن هشي: **العائلة الجنبلاطية**، م. س، ص 56.
- أنيس يحيى: م. س، ص 17.
- سليم نصر وكلود دوبار: **الطبقات الاجتماعية في لبنان، مقاربة سوسيولوجية تطبيقية**، بيروت الطبعة الأولى 1982، مؤسسة الأبحاث العربية، ص 46–48 حول وحدة العائلة بشكل عام ويعطي نماذج حول عائلة العصب الكبيرة في الفصل الثالث.

40. إيغور تيموفييف: م. س، ص 503.



يأتي متمهلاً مع رجاله وعياله. ولو كان القادم هارباً من الجيش العثماني لما تجرأ فخر الدين على استقباله لأنه هو نفسه كان موضع شبهة من لدن العثمانيين[41].

إن تعدد الآراء في تحديد موعد قدوم آل جنبلاط إلى جبل لبنان، يجعل من وجهة النظر التي يقول بها المستشرق بيار روندو (Pierre Rondot) الأكثر قبولاً، إلى حد بعيد، كونه لا يستبعد أن تكون عملية النزوح قد تمت على دفعتين – مرحلتين[42]: الأولى بين العامين 1607 و1611، والثانية بين 1630 و1631، وتكون المرحلة الأولى قد واكبت اندحارهم أمام الجيش العثماني فتجعل أعداد من جاء منهم قليلة جداً. وتكون الثانية بعد أن استتب لهم الوضع في الجبل واستقرت إقامتهم فيه مقارنة بالأماكن الأخرى التي يمكن أن يكونوا قد نزحوا إليها.

إن الاختلاف الواضح بين المؤرخين على تحديد موعد النزوح إلى جبل لبنان، لا يحصل بالقدر ذاته عند التطرق إلى القادم الأول من شمال سورية ومكان استقراره ومستواه الاجتماعي. لذلك يُجمع المؤرخون على أن جنبلاط جنبلاط هو طليعة الجنبلاطيين الذين وصلوا إلى بيروت مستنجداً بالأمير فخر الدين المعني الثاني (1572–1635)، حيث «استقبله بحفاوة وترحاب»[43].

يشير البعض إلى أن جنبلاط جنبلاط كان مصحوباً بعائلته (زوجته وابنه الوحيد) وبعض الأصدقاء الأوفياء والمناصرين المخلصين ومنهم العائلتان الدرزيتان نصرالله وسليم[44]. وقد وزعهم الأمير فخر الدين إلى أربعة أقسام:

41. محمد خليل الباشا: م. س، ص 322.

42. للمزيد يراجع: – د. سليم حسن هشي: م. س، ص 117–118.
- د. سليم حسن هشي، م. س، ص 56.
- د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 41.

43. يراجع: يوسف خطار أبو شقرا: م. س.
- إيغور تيموفييف: م. ص، ص 503.

44. يراجع: سليم حسن هشي: م. س، ص 56.
- يوسف خطار أبو شقرا: م. س، ص 79.

قسم سكن الساحل، وقسم سكن بلاد الشقيف، وقسم سكن مجدل شمس، وقسم سكن الشوف، وأوصى الأمير بهم سكان هذه المناطق[45].

غير أن بعض المؤرخين يشير إلى أن كبار القوم من جبل لبنان قدموا إلى بيروت، حيث كان يقيم جنبلاط وأعوانه، ودعوهم إلى الإقامة في الشوف. فنزلوا في قرية المزرعة المجاورة لبعقلين، بينما سكن آل نصر الله في قرية الجديدة، وآل سليم في جباع الشوف[46]. ويبدو أن هذا الرأي هو أقرب الاحتمالات، على اعتبار أن الزعامة الجنبلاطية برزت لاحقاً من المزرعة وغدت هذه القرية مركز الزعامة لمرحلة طويلة. إضافة إلى أن هذا الاحتمال يتقاطع مع العوامل الاجتماعية التي ساعدت على احتضان الوافدين وحمايتهم وتوفير المستلزمات الأولية لاستقرارهم وطمأنتهم.

أما لجهة المستوى الاجتماعي وكيفية الاستقرار في المزرعة، فتتضارب حولها الآراء. ففي حين يوضح البعض أن القادم الجديد ابتنى داراً فخمة في المزرعة واحتل بسرعة مكانة رفيعة في المنطقة، وأخذ على نفقته «منزول» القرية وبرهن عن وجاهة وأريحية[47]، فإن حسين أبو شقرا يعتبر أن ربح (رباح) جنبلاط هو الذي نزل في المزرعة وابتنى فيه داراً واسعة الذرى بإزاء عين القرية. وقد سماه الناس «شيخ الطبق» لكرمه وحسن ضيافته. وبقي في المزرعة ردحاً من الزمن حتى جسمت ثروته واتسعت عقاراته وارتفع شأنه بين العباد وتأتّى صيته في البلاد[48].

كذلك يشير كمال جنبلاط إلى أن «أجدادنا الذين هبطوا من شمال سورية»

---

45. بولس قرألي: م.س، ص 69-72.
46. د. سليم حسن هشي: م. س، ص 118.
47. محمد خليل الباشا: م. س، ص 323.
48. يوسف خطار أبو شقرا: م. س، ص 79.
– جان شرف: **الايديولوجيا المجتمعية، مدخل الى تاريخ لبنان الاجتماعي**، بيروت، 1996، منشورات الجامعة اللبنانية، ص 304.



حلوا بداية الأمر في «مزرعة الشوف لاجئين في مغارة صغيرة»[49].

إنّ التضارب في تحديد المستوى الاجتماعي والاقتصادي للقادمين الجدد لا ينفي أمرين:

الأول: إنّ البدايات الأولى كانت صعبة والمعاناة قاسية. وهذا الأمر طبيعي نتيجة لظروف النزوح وشدة وطأتها.

الثاني: إنّ هذه الظروف لا تلغي حقيقة تمتعهم بنصيب من الوجاهة وبوفرة من الإمكانيات المادية، لاسيما وأنهم كانوا، بطريقة أو بأخرى، «أصدقاء» أمير البلاد و«حلفائه»، وتربطهم به علاقات عائلية عميقة. وهم في ضيافته، من حيث المبدأ، إضافة إلى أنهم «زعماء» إقطاعيّون في الأساس.

هذه الأمور، وغيرها، جعلت لهم ومنذ البداية، حظوة مميزة وجعلت عملية استقرارهم في المزرعة محفوفة بشيء وافر من الوجاهة والرفاهية سمحتا لهم بأن يؤسسوا عليهما ويبنوا على قاعدتهما ويعيدوا موقعهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي كان لهم في موطنهم الأول، ويصبحوا «سيوف جبل لبنان»، أو «سيوف لبنان»[50].

لذلك فإن جنبلاط جنبلاط، الذي عمّر طويلاً، كان الأبرز والأكثر تميُّزاً بين أفراد أسرته في تلك المرحلة، وأخذ يكتسب دوره كزعيم في ظل فخر الدين الثاني، الذي عيّنه «محافظاً»-قائداً عسكرياً في قلعة الشقيف وحاميتها المكونة من خمسين شخصاً، ومَنحه لقب الشيخ، ثم قام بتنحيته بعد خلاف حصل بين جنبلاط والشيخ يزبك بن عبد العفيف بن عماد أحد كبار معاوني الأمير فخر الدين، وذلك «تفادياً» للانقسام بين الوجهاء الدروز القيسيين أمام الخطر الذي كان يهدد الإمارة اللبنانية[51].

---

49. كمال جنبلاط: م. س، ص 40.
50. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 41.
51. إيغور تيموفييف: م. س، ص 503.

غير أن هذا الموقع العسكري، من جهة، وخلافه مع الشيخ يزبك، من جهة أخرى، سيكونان الخطوة الأولى في اتجاه انقسام الزعامة السياسية في الجبل، واللبنة الأولى في تشكيل صرح الغرضية الجنبلاطية، أو ما يمكن أن يُسمّى «إقطاعية القيادة» المميّزة بظهور عشيرتين أو غرضيتين-حزبيتين هما: الجنبلاطية واليزبكية[52].

من هنا، يمكن القول إن جنبلاط جنبلاط رسّخ زعامته في المنطقة ووفّر لأخيه الوحيد رباح المستلزمات الأساسية والأولية لتثبيت موقعه الاجتماعي والاقتصادي[53]، ولاحقاً زعامته! الأمر الذي جعل العائلة تراكم قوتها وتعزز نفوذها وتوسع حضورها، وبالتالي تقيم زعامتها.

## بدايات التأسيس

مرحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني هي المرحلة التأسيسية الأولى التي يمكن اعتبارها بداية بروز العائلة الجنبلاطية، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ومشاركتها عملياً في «حكم لبنان»[54].

بعد موت جنبلاط جنبلاط، استلم إبنه الوحيد رباح (1615–1700) مكانه، غير أنه لم يكن مهتماً بالسياسة كأسلافه في إمارة كلس. لذلك تفرّغ الى

52. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 41–42.
53. يقدم أنيس يحيى (كما الباشا والشدياق) رأياً مخالفاً جداً وخاصاً إلى حد بعيد، اذ يعتبر أن جنبلاط جنبلاط هو في الأساس «شوفي»، وأحد وجهاء المنطقة، انتزع زعامته بعد خلافه مع زعيم شوفي آخر هو الشيخ يزبك، وانتقال الخلاف بين جنبلاط والمير فخر الدين يعود إلى أن الأول تحوّل إلى اليمنية، ما سبَّب إبعاده وسجنه. يراجع: أنيس يحيى، م. س، ص 13.
   – عبد المجيد عبد الملك: **تاريخ الإقطاع في لبنان (758–1864): إقطاعية الجرد.** بيروت، الطبعة الأولى، 2000، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ص 189.
54. كمال جنبلاط: م. س، ص 41.



إدارة أملاكه والإشراف على الأراضي التي ورثها، الأمر الذي جعل سليم هشي يعتبر أن التاريخ لم يذكر له (لرباح) أدنى مأثرة[55]. إلا أنه يمكن لحظ موقعه وأثر هذا الموقع في مسار العائلة الجنبلاطية وزعامتها من خلال أمرين مترابطين على الأقل:

– الأول: نقل مركز الزعامة: ترك رباح بلدة المزرعة التي نشأ فيها وكانت الملجأ الأول للعائلة، وانتقل مع أولاده الثلاثة (فارس، شرف الدين، علي) إلى المختارة[56]. وستكون عملية الاستقرار في المختارة نقلة نوعية لمقر العائلة وسيرتبط اسم العائلة لاحقاً باسم دار المختارة.

– الثاني: زواجه ونتائج هذا ا لزواج: اذ تزوج رباح من ابنة الشيخ قبلان القاضي التنوخي، حاكم الشوفين وأغنى وجيه درزي متنفذ في حينه[57]. وحملت عملية الزواج ومفاعيله مضامين عديدة: الأول في البُعد الاجتماعي للزواج، بمعنى انه لم يكن من الممكن زواجه من أهم وجهاء الشوف لو لم يكن في موقع اجتماعي مواز لنسيبه قبلان القاضي، ومساو له. فهذا النوع من المصاهرة يتضمن أبعاداً سياسية واقتصادية على قدر كبير من الأهمية[58]. والثاني في مفاعيل الزواج، بمعنى وفرة الأملاك والأراضي والأرزاق التي عادت على الصهر (رباح) بعد موت والد زوجته قبلان القاضي.

55. د. سليم حسن هشي: م. س، ص 12.
56. سليم حسن هشي: **العائلة الجنبلاطية** (بالفرنسية)، م. س، ص 56.
57. يراجع: إيغور تيموفييف: م. س، ص 504.
   – كمال جنبلاط: م. س.
58. يتطرّق دومنيك شوفالييه إلى بعض الابعاد للزواج الداخلي وآثاره. في **مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا**، ترجمة منى عبدالله عاقوري، بيروت، 1994، دار النهار، ص 167–168.
   – يشير سليم نصر وكلود دوبار إلى ان نظام المصاهرة بين العائلات المتساوية المقام إلى جانب «الزواج اللحمي» كامتياز خاص بالمقاطعجية. يراجع: **الطبقات الاجتماعية في لبنان، مقاربة سوسيولوجية**، ص 35.

لم يكن للشيخ القاضي[59] ولد ذكر، لذلك أوصى بجميع تركته في الساحل والجبل لابنته. وبالرغم من حدة النزاع بين رباح جنبلاط والحاكم الأمير أحمد الشهابي حول التركة، وإلى مَن يُفترض بها أن تعود، استطاع رباح الاحتفاظ بالنصيب الأكبر بعد أن شد الدروز أزره، لما له من رفيع المنزلة بينهم. لا سيما وأن القاضي كان قد «حرّر صكاً» في وصيته لابنته. لذلك ساندت رباح جماعة الشيخ قبلان القاضي واختارته ليكون رأساً لعزوتهم وزعيماً لفئتهم كونه متزوجاً من ابنة القاضي، ودفعوا للأمير حيدر خمسين ألف قرش مقابل تسليم متروكات القاضي وعقاراته لرباح «وتشيّخه»[60]، أي منحه لقب الشيخ.

وما يجب لحظه في هذه المسألة أن منح رباح جنبلاط المشيخة كان له مدلولاته السياسية وانعكاساته على الزعامة الجنبلاطية. بمعنى أن «إسقاط» منزلة الجنبلاطيين من مرتبة باشا أيام علي باشا جانبولاد في شمال سورية إلى مرتبة شيخ في جبل لبنان، هو اعتراف ضمني منهم بعدم السعي لاستعادة إمارة الدروز، وبالتالي الرضى بزعامة الدرجة الثانية، أي المشيخة[61]. وهذا سيحدد موقعهم

59. ينفرد أنيس يحيى بالقول إنّ قبلان القاضي ليس شخصاً من آل القاضي بل إن تعبير القاضي كلمة ألحقت بحفيد جنبلاط كونه كان قاضياً. يراجع أنيس يحيى: م. س، ص 13.
60. يراجع: يوسف خطار أبو شقرا: م. س، ص 79–80.
– محمد خليل الباشا: م. س، ص (323). يشير إلى أنه استولى على مرج بسري ومزرعة الجنين وقبض 25 ألف غرش.
– د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية (1697–1861)**، بيروت، الطبعة الثالثة، معهد الإنماء العربي ص 85–87 حيث يشكّك في مقولة أن الأمير حيدر الشهابي كان قد صادر أملاك قبلان القاضي بحجة أن الأخير أوصى بالتركة للأمير. ويشير د. مسعود وغيره الى أن صهر القاضي كان علي ابن الشيخ رباح وفي هذه الحالة يكون الحاكم الشهابي يومئذ الأمير حيدر الشهابي وليس أحمد.
61. د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية...**، م. س، ص 87.



السياسي في المرحلة اللاحقة وحجم هذا الموقع.

إن هذين الأمرين (القبول بالدرجة الثانية وعدم السعي للإمارة) تركا أثراً مهماً، إلى جانب غيرهما كما سيرد في سياق النص، في تدعيم الزعامة الجنبلاطية. فالثروة وزيادة الأملاك والحصول على مرتبة المشيخة واتساع العزوة حولهم ومعهم، وفّرت للزعامة الناشئة الأرضية المتينة وساهمت في تفعيل انطلاقتها وتوسيع افاقها من جهة، وجعلتها تستند إلى قاعدة اقتصادية صلبة وموقع اجتماعي مميّز من جهة أخرى. لهذا يشير كمال جنبلاط إلى أن هذه الثروة «جعلتنا نمتلك قليلا من خيرات هذا البلد»[62].

بعد موت رباح تسلّم ابنه علي، الأبرز بين إخوته، زمام الأمور وبدأ نجم الزعامة الجنبلاطية يسطع مستنداً إلى ما وفّره الوالد الشيخ رباح من مقومات، وما أمّنه الجد القاضي من خلفية سياسية واجتماعية. ويكاد المؤرخون يُجمعون على أهمية الشيخ علي وشخصيته الفذة وصفاته الحميدة وبصيرته النافذة وذكائه الفطري وموهبته الخطابية، الأمر الذي جعله يضفي على الزعامة الناشئة[63] أبعاداً سياسية ومضامين روحية جديدة.

فقد أرسى في البعد السياسي دعائم الزعامة، وكانت لمشاركته في معركة عين دارة (1711) التي انتصر فيها القيسيون، نصيباً من الغنائم، ووهبه الأمير حيدر الشهابي جزءاً من أملاك اليمنيين الذين انهزموا في المعركة واضطروا إلى الفرار إلى حوران. وغدا أقرب إلى أن يكون حاكماً بين الأمراء الشهابيين في تلك

62. كمال جنبلاط: م. س، ص 40.
63. يراجع:
– د. عباس أبو صالح ود. سامي مكارم: **تاريخ الموحدين الدروز السياسي والعسكري في المشرق العربي**، بيروت، 1980، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، ص 164.
– محمد خليل الباشا: م. س، ص 323–324.
– جان شرف: م. س، ص 387–388.

الحقبة[64]. فابتنى قصر المختارة الذي أصبح المركز السياسي الرئيس للدروز وللزعامة الجنبلاطية[65]، الأمر الذي جعل شهرته تتجاوز حدود الشوف وتتخطى مساحة الجبل الصغير. لذلك ناشده البابا كليمنصوس الثالث التوسط لحلّ الخلاف المستعصي الذي نشب في الطائفة المارونية حول انتخاب البطريرك الجديد[66].

أما في ما يتعلق بالبعد الروحي، فقد اكتسب علي جنبلاط منزلة الشيخ الديني المطلع على مكنونات المعتقدات الدرزية، فصار يحمل لقب «شيخ المشايخ»، ما يعني الاعتراف به زعيماً للدروز[67] أو «رئيس المشايخ»[68].

مجمل هذه الأبعاد والمضامين جعلت علي جنبلاط، برأي البعض، المؤسّس الحقيقي للزعامة الجنبلاطية وباني مكانتها، لا في الشوف فحسب بل في البلاد كلها[69].

---

64. كمال جنبلاط: م. س، ص 40. ولمزيد من المعطيات يراجع:
– د. محمد مخزوم: **أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة**، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، معهد الإنماء العربي، ص 119.
– د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية**... م. س، ص 71–85.
65. إيغور تيموفييف: م. س، ص 504.
66 م. ن، ص 505.
67 م. ن، ص 505.
68. كمال جنبلاط: م. س، ص 40. حيث يشير ص 41 إلى أن نقاء مسيرته قد أكسبته شهرة في الترهب الديني، وبات ينسب إليه عدد من المعجزات منها مثلاً إعطاء الحوامل خرقة من قميصه تساعدهنّ على الوضع.
69. يراجع أنيس يحيى: م. س، ص 12.
– إيغور تيموفييف: م. س، ص 504.
– محمد خليل الباشا: م. س، ص 323–324.
– د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**...، م. س، ص 43.



## الزعامة تفرض نفسها

### 1. العلاقة مع الشهابيين

إن هذه النقلة النوعية في موقع الزعامة الجنبلاطية، مادياً وسياسياً وروحياً، عززت إقطاعيتهم التاريخية ورسختها في جبل لبنان عموماً وداخل بيئتهم الاجتماعية خصوصاً، ووفرت لهم حضوراً فاعلاً ودوراً مؤثراً في الإمارة الشهابية. غير أنها، في المقابل، جعلتهم في صميم المعادلة الداخلية وفي قلب صراعاتها المحلية وجزءاً من آليات التنافس بين العصبيات التقليدية لحماية الموقع وتثبيت الزعامة. فكيف تبلورت الزعامة الناشئة في خضم هذه المرحلة؟ وما هو تأثيرها في مجريات الأحداث؟ وكيف انعكست على مكانة الزعامة بحد ذاتها ودورها؟

إن محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، وغيرها، يمكن أن تتبلور من خلال متابعة دورها السياسي العام ومفاعيل هذا الدور وأشكال تمظهره، سواء على مستوى علاقاتها مع الأمراء الشهابيين، أو على مستوى علاقاتها بالإقطاعيات والزعامات داخل الطائفة الدرزية. أو على مستوى علاقاتها داخل الأسرة الجنبلاطية نفسها، لأنّ مجمل هذه المسائل–المظاهر ستترك آثارها الواضحة على مسار هذه الزعامة ومستقبلها وبالتالي توجهاتها.

يبدو أن عهد الأمراء الشهابيين وسّع نفوذ الزعامة الجنبلاطية ورسّخ مواقعها. فقد بدأ الجنبلاطيون، كما يشير كمال جنبلاط، الخوض في غمار السياسة اللبنانية بصورة نشطة وفاعلة، لا بل إن هذا التوجه أصبح «سنّة متّبعة في العائلة» إلى درجة أصبحوا في الحقيقة «هم الذين يحكمون لبنان»[70]. ويؤكد القنصل الفرنسي في حينه في صيدا كلارامبو (Jean-Louis de Clairambault) في تقريره بتاريخ 27 تشرين الأول 1767 أن الشيخ علي جنبلاط هو «أكبر مشايخ

---

70. كمال جنبلاط: م. س. ص41.

البلاد وأشدهم نفوذاً»[71]، الأمر الذي يبين مدى تأثير الزعامة الجنبلاطية في تحديد القرار السياسي في تلك المرحلة.

غير أن العلاقة بين الزعامتين الشهابية والجنبلاطية لم تكن مستقرة، بل متقلّبة باستمرار وتخضع لتوترات دائمة وصراعات عنيفة وحادة. فقد استعان الشهابيون بالجنبلاطيين[72] لتعزيز مواقعهم وتثبيت سلطتهم. لكن سرعان ما كان يتم الانقلاب الشهابي استجابة لمقتضيات الظروف السياسية وتقلباتها من جهة، والطموحات الشخصية ومصالحها من جهة أخرى. إن فكرة الهيمنة على الإمارة كان المحرك الأساس لتلك الصراعات والمفجر الأول للتوتر والتنافس والصراع بين العائلتين. ولعل تجربة قاسم جنبلاط (1771–1778)، الذي ورث الزعامة عن والده الشيخ علي، مع الأمير يوسف الشهابي، وتجربة الشيخ بشير جنبلاط[73] (1775–1825) مع الأمير بشير الشهابي الثاني (1767–1850) هي الأكثر دلالة ووضوحاً للتعبير عن خلفية هذه العلاقة وتقلباتها المستمرة[74]

71. د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية...**، م، س، ص (90–91) يشير إلى أن القنصل الفرنسي في تقرير سابق بتاريخ 15 أيار 1766 اعتبر الشيخ علي أكبر المالكين وكبير مشايخ الدروز. وفي تقرير آخر بتاريخ 23 نيسان 1667 أوضح أن المشايخ الدروز كانوا يحكمون فعلاً إمارة الجبل باسم الأمير الشهابي. ويسمّي هؤلاء المشايخ على النحو الآتي: علي جنبلاط، عبد السلام عماد وكليب النكد.
72. انيس يحي: م.س، ص 11–13 و18–20.
يراجع دومينيك شوفالييه م، س، ص 205.
73. للمزيد، يراجع يوسف ابرهيم يزبك: **أوراق لبنانية**، المجلد الثاني، بيروت، 1983، الرائد العربي، ص (241–242).
– د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية...**، م. س 90–92.
74. يراجع إيليا حريق: **التحول السياسي في تاريخ لبنان الحديث**، بيروت، 1982، الأهلية للنشر والتوزيع، ص 160–165.
– يوسف ابراهيم يزبك: **أوراق لبنانية**، المجلد الأول 1983، الرائد العربي، ص 307–313.
– إيغور تيموفييف: م. س، ص 512–513.
– دومنيك شوڤالييه: م. س، ص 212–214.



وآثارها على الجنبلاطيين وزعامتهم وموقعهم في جبل لبنان.

لقد استنفر الأمير يوسف المشاعر الدينية للدروز بعد فرضه ما سُمّي بـ «ضريبة الشاشية»[75]، ثم اقتحامه قصر المختارة، الأمر الذي دفع الشيخ قاسم إلى دعم الأمير بشير لتولي السلطة في الإمارة[76]. بل إن وصول هذا الأخير إلى الحكم كان بدعم جنبلاطي كامل، كما إن تجربة البشيرين (الشهابي والجنبلاطي) تبدو الأكثر تعبيراً ودلالة، كونها تركت آثارها المباشرة على المسار العام للزعامة الجنبلاطية خصوصاً، وعلى بنية الإمارة، سياسياً واجتماعياً، وتركيبة السلطة وزعامتها في شكل عام.

إن طبيعة السلطة القائمة في جبل لبنان على العصبيات التقليدية وتحالف العائلات وإفرازاتها السلبية[77]، حكمت الصراعات السياسية في حينه وحدّدت مساراتها. فالعلاقة بين البشيرين، برأي كمال جنبلاط، لم تكن محكومة بالمواقف المبدئية، أو بالعواطف والمودّة، وإنما باتفاق مصالح «رجلين قويين». لهذا كانا بحاجة أحدهما إلى الآخر في الصراع المتواصل على السلطة[78]. هذا الصراع أدّى إلى نتيجة مأسوية بالنسبة إلى الشيخ بشير جنبلاط بعد انقلاب الأمير الشهابي عليه وتحريضه محمد علي باشا في مصر لإصدار فرمان سلطاني بإعدامه، ونفذ عبدالله باشا والي عكا الأمر فجر 11 تشرين الأول 1825.

75. الشاشية غطاء للرأس من القماش الأبيض اللون يُستخدم عادة للعمائم، وتعبير الشاشية هو نوع من الحجاب تلبسه المرأة الدرزية عامة والمشايخ منهم خاصة. وقد فرض الأمير غرامة مالية مقدارها غرش وا حد على كل شاشية درزية.
76. يراجع د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط...** م.س، ص 43.
– إيغور تيموفييف: م.س، ص 507.
77. د. وجيه كوثراني: م.س، ص 11–20.
– جان شرف: م.س، ص 473–475.
– د. وجيه كوثراني: **السلطة والمجتمع والعمل السياسي**، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 60–67.
78. يراجع كمال جنبلاط: م.س.
– إيغور تيموفييف: م.س، ص 511.

ساهم إعدام الشيخ بشير جنبلاط في تحويل مركز الزعامة في الجبل وغيّر طبيعتها[79]. لذلك يعتبر أنيس يحيى أن إزاحة الزعامة الجنبلاطية المتمثلة، في حينه، بالشيخ بشير كانت عملياً إزاحة شبه كاملة لفاعلية الدروز في جبل لبنان، لتحل محلها تلك القوة الجديدة المتنامية وهي الموارنة. فوجود الشيخ بشير ومكانته ودوره كانت تشكّل عاملَ توازنٍ حقيقيّاً بين جماعتَي الجبل: الدرزية والمارونية. لأنّ رجالات الإقطاع الدرزي الذين وقفوا مع الأمير الشهابي في معركته ضد بشير جنبلاط، لم يكونوا قادرين على لعب دوره، أو أن يسدوا الثغرة في غيابه، أو المحافظة على الموقع التقليدي لجماعتهم. ويعود ذلك إلى أسباب ثلاثة على الأقل:

- الأول: إنّ رجالات الإقطاع الدرزي كانوا تابعين للأمير الشهابي، ما جعله غير مكترث لمراعاة مصالحهم أو مضطراً إلى تقديم تنازلات لهم، باعتبار أن قوتهم تعتمد على الأمير بالدرجة الأولى وهي مستمدة منه[80].

- الثاني: يرتبط بنفوذ هؤلاء وقوتهم الوضيعة التي لم تكن لتصل إلى قوة الشيخ بشير جنبلاط ونفوذه[81].

- والثالث: يرتبط بقوة بشير جنبلاط المادية ووفرة أملاكه قياساً مع غيره من رجالات الإقطاع الدروز. فإلى جانب احتفاظه بقوته أمام نفوذ الأمير الشهابي كان يسيطر على مقاطعات عدة؛ وعرف كيف يغتني بالاستيلاء على أراضي

79. لمزيد من المعطيات يراجع:
- **الخدر (مجلة)**: الجزآن الأول والثاني، السنة السادسة 1924.
- ايليا حريق: **التحول السياسي**...ـ م. س، ص 165.
- حنا ابي راشد: **حوران الدامية**، ص 553-554.

80. لمزيد من المعطيات حول العلاقة بين بعض العائلات الدرزية يراجع:
- يوسف ابراهيم يزبك: المجلد الثاني، م.س. ص (41-42).
- أسد رستم: م.س، ص 393-396.

81. أنيس يحيى: م.س، ص 151.
- جان شرف: م.س ص 381.



أعدائه. فقد قُدّر مدخوله السنوي بمليون قرش، الأمر الذي جعله زعيماً رئيساً للطائفة مقارنة بالمقاطعجيين الآخرين[82].

من هنا، اعتُبر بشير جنبلاط الزعيم المؤهل لإعادة مجد الدروز وسلطتهم[83]. وقد نجح في ذلك إلى حين[84] قبل هزيمته، لأن الزعامة الجنبلاطية عنت، وإلى حد بعيد، في تلك المرحلة، القوة المتحكمة في مجرى الاحداث[85]. لذلك يعتبر البعض أن السياسة الجنبلاطية ارتكبت خطأً فادحاً ووقعت في شركه بعدما عمَّ سوءه الجميع؛ وهذا الخطأ يتجسد في التمادي في مساندة الشهابيين ودعمهم[86]، على اعتبار أن هذه المساندة لم تلغ الصراع بين الزعامتين وكانت النتيجة سلبية بالنسبة إلى النسبة الجنبلاطية[87] وجاءت على حسابها.

## 2. الصراعات داخل الطائفة

أما على مستوى العلاقة مع الزعامات العائلية والإقطاعية في الطائفة الدرزية، فإن بروز العائلة الجنبلاطية وتصدّرها جعلاها في تنافس مع الآخرين.

82. دومينيك شوفالييه: م.س، ص 211.
- ايليا حريق: م.س، ص 34 و54 يشير إلى أن آل جنبلاط كانوا اكبر المالكين والأكثر ثروة.
- سليم نصر وكلود دوبار: م.س ص 35 حول بعض ملكيات آل جنبلاط.

83. يراجع: يوسف خطار ابو شقرا: م.س، ص 15-16. حيث يعتبر ان من اسباب الخوف من بشير جنبلاط والتآمر عليه، مشروعه الهادف إلى تكتيل الدروز وجمعهم في منطقة واحدة تكون تحت سيطرته.
- خليل احمد خليل: **كمال جنبلاط**... م.س، ص 45.

84. د. حسن أمين البعيني: م.س، ص 45-46.

85. أنيس يحيى: م.س، ص 7.

86. محمد خليل الباشا: م.س، ص 424.

87. د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية**... م، س، ص 93. ويشير إلى أن الصراع بين الشهابيين والجنبلاطيين كان يجسد الصراع بين المركزية التي يمثلها الأمير الشهابي والتجزئة التي كانت تجسدها سلطة المقاطعجية المسيطرين وهم في أغلبيتهم من الدروز. يراجع ايضاً: ايليا حريق: م.س، ص 160-164.

وعزّز أمران حدة الصراع الداخلي: الأول يتمثل في اختلال التوازنات الإقطاعية في البيئة الاجتماعية الدرزية، والثاني يتمثل في التدخل الخارجي الذي جسّده الأمراء الشهابيون.

أ- في الجانب الأول، كان من الطبيعي أن تُحدث القوة السياسية والاجتماعية الناشئة مفاعيلها في الوسط المجتمعي الذي حلّت فيه، لا سيما وأن هذا الوسط معروف بطبيعته المحافِظة وبقوة حضور عصبياته التقليدية ورسوخ زعامته وتوارث مواقعها. فقبل أن يستقر الجنبلاطيون في الشوف وتقوى شوكتهم، كان الشوفيون ينتمون إلى عائلتين-عصبيتين متناظرتين في السؤدد متكافئتين في النفوذ، هما أسرتا عبد الصمد وأبي شقرا[88]. إضافة إلى غرضيات أخرى في الجرد كالأحمدية (نسبة إلى بني أحمد) والصايغية (نسبة إلى بني الصايغ) في المتن، والهلالية (عائلة هلال) والأعورية (عائلة الأعور). وكانت الهلالية والأحمدية تعودان إلى الغرضية الشقراوية. بينما الأعورية والصايغية تعودان إلى الصمدية[89].

أعاد صعود الزعامة الجنبلاطية في جبل لبنان توزيع الانقسام المتوارث فيه. فبعد أن كان محور الانقسام الاجتماعي-السياسي «الحزبيتين» المتوارثتين – القيسية واليمنية، استحدث بروز الزعامة الجنبلاطية انقساماً – غرضية أخرى، تمثلت في الانقسام الجنبلاطي – اليزبكي. غير أن الانقسام الجديد كان مختلفاً عن الأول لجهة الامتداد والطبيعة. فالأول كان يشمل المنطقة كلها، ولم ينحصر في جبل لبنان، ولم يكن طائفياً بل هدفه الاستيلاء على السلطة في الإمارة ضمن الخلافة العثمانية. في حين أصبح الثاني (الجنبلاطي-اليزبكي) أضيق من سابقه وانحصر،

88. يوسف خطار ابو شقرا: م، س، ص 83.
89. يراجع يوسف خطار أبو شقرا. م. ن، ص 84.
- د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية**، م.س، ص 409.
- جان شرف: م.س، ص 386–388.



إلى حد بعيد، في الجبل وبين عائلاته وداخل الطائفة الدرزية في شكل أخص. كما إن صراع أطراف الانقسام الجنبلاطي-اليزبكي كان حول النفوذ وليس حول السلطة. أي إنه صراع في السلطة ولم يصل إلى الصراع على السلطة. بمعنى أن كل طرف من أطرافه يدعم طرفاً من أطراف السلطة الشهابية في حكم الامارة[90].

تعدّدت تفسيرات الانقسام المجتمعي الجديد[91] وتنوّعت. غير أنها لم تَحدّ من ديمومته واستمراريته. وبالرغم من توافق أطراف هذا الانقسام (اليزبكي-الجنبلاطي) في أكثر من موقع في العهد الشهابي[92] ولأكثر من سبب، فإن سمة التنافس والصراع بين الغرضيتين بقيت طاغية وأخذت مسارها في

90. يراجع:
- د. فارس اشتي: **الحزب التقدمي الاشتراكي ودوره في السياسة اللبنانية 1949–1975**، المجلد الأول، تكوين الحزب، المختارة، الطبعة الأولى، 1989، الدار التقدمية، ص 57–61.
- د. ياسين سويد: **التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، الجزء الأول، الأمارة المعنية (1516–1697)**، الطبعة الأولى 1980، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 79.
- عبد العزيز نوار: **الأزمة اللبنانية، معهد البحوث والدراسات العربية**، الطبعة الأولى 1978، ص 23–24.
- د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية**، م. س، ص92–93 و404.
- ايليا حريق: م.س ص 53.
91. يراجع: – د. فارس إشتي: المجلد الأول، م، س، ص 59–60.
- د. فارس ياسين سويد: **التاريخ العسكري**، م، س، ص 83–87.
- د. حسن امين البعيني: م.س، ص 49.
د. كمال صليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، بيروت، الطبعة الثالثة، 1972، دار النهار، ص 39.
- حنا أبي راشد: **حوران الدامية**، الطبعة الثانية، 1961، بيروت، ص 551 مع الهامش وص 553.
- حيدر شهاب: م.س، ص 49–50.
92. د. فارس اشتي: م.ن، ص 61.

تاريخ الطائفة الدرزية. لقد كانت معركة عين دارة التي قضت على الحزب اليمني وكرست انتصار القيسية[93] من أهم العوامل التي ساهمت في نمو العائلة الجنبلاطية وتعزيز موقعها وترسيخ زعامتها وتعميق جذورها المجتمعية، وبالتالي إدخالها في صميم الصراعات والخلافات داخل بيئتها، كونها غدت ركناً أساسياً من أركانها.

ب- في الجانب الثاني، لعب الشهابيون الدور البارز في تفعيل آليات الانقسام بين الزعامات الإقطاعية في الطائفة الدرزية وإذكاء الصراع بينها. بل إن الأمراء الشهابيين اتخذوا اللعب على التناقضات بين العائلات الدرزية سياسة لحكمهم. فالأمير علي حيدر الشهابي سعى الى تقويض جبروت الدروز في الجبل. وأخذ، كما يقول إيغور تيموفييف، يلعب على الخلافات بين العائلات المتنافسة على الزعامة في الشوف. وكان لتحوّل الأمراء والحكام الشهابيين إلى العقيدة المسيحية دور في تفعيل التناقضات بين البيوتات الدرزية التقليدية، الأمر الذي زاد إضعاف هذه البيوتات وجرّدها شيئاً فشيئاً من الدور القيادي الذي كانت تلعبه تقليدياً في جبل لبنان.

يبدو أن طموحات الشيخ بشير الجنبلاطي تلاقت مع توجهات الأمير بشير الشهابي وسياسته. و«تفهّم» الشيخ خطة الأمير في القضاء على العائلات الإقطاعية الدرزية المتنفّذة، والتي كانت تشكل خطراً على أحلام الأمير في السلطة، باعتبار أن «التوجه الشهابي» يخدم أغراض الشيخ الجنبلاطي من خلال إزاحة المنافسين داخل الطائفة. لذلك عملا معاً (الشيخ والأمير)، في فترة تحالفهما، على التخلص من المناوئين[94]، الأمر الذي أدى إلى إضعاف

93. يراجع:
- د. فارس اشتي: م.ن، ص 75.
- دومينيك شوفالييه: م.س، ص 205، 208، 212-213.
- حيدر شهاب: م.س، ص 14.

94. إيغور تيموفييف: م.س، ص 505 و509-510 و605.



المقاطعجيّين الدروز والى تقليص دورهم سياسياً ودينياً[95].

لذلك، فإن الأمير شكيب ارسلان يعتبر أن الاحقاد التي زرعها المير بشير بين الدروز وعائلاتهم هي التي ساعدته على الانتصار على الشيخ بشير جنبلاط. فقد عمل الأمير، طوال فترة ولايته، على تأليب الفرقاء بعضهم على بعض. يوماً يواكب آل جنبلاط ويوماً يواكب آل نكد[96]... وإذا رأى بيتاً من البيوت الإقطاعية ازداد «حوله وصوله» كثيراً، اجتهد في «قصر شوكته» وأغرى به بيوتاً أخرى، إما من أقاربه أو من عائلات أخرى كما فعل بين النكدية والجنبلاطية[97].

إن المسبّبات الداخلية والخارجية بمضامينها السياسية والاقتصادية والاجتماعية جعلت الزعامة الجنبلاطية في ساحة الصراعات الدرزية-الدرزية، وجزءاً من مكوناتها. فتثبيت الزعامة في ظل الظروف التي كانت سائدة وطبيعة السلطة في الإمارة والاصطفافات العائلية حولها والطموحات السياسية جعلت التنافس والصراع، بأشكالهما ومظاهرهما المختلفة بين البيوتات الإقطاعية الدرزية، هما الأساس للبقاء ولحماية الوجود.

### 3. الزعامة داخل العائلة

أما على مستوى العلاقة داخل العائلة الجنبلاطية ذاتها، فإنه لم يكن في أحسن حال من الأوضاع التي كانت سائدة في حينه، بحيث ان الانقسام والتنافر والتفتيت كانت القاعدة لحماية الزعامة وتثبيتها.

95. د. حسن أمين البعيني: م.س، ص 45.
- ايليا حريق: م.س، ص 160-165.

96. أسد رستم: **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، الجزء الأول، بيروت، المطبعة الأميركية، ص 393-396.
- حيدر شهاب: م.س، ص 43-49، 63-64.
- دومينيك شوفالييه: م.س، ص 205-207.

97. يراجع يوسف ابراهيم يزبك: المجلد الثاني، م.س، ص 41-43.
- أسد رستم: م.س، ص 39.

خاضت العائلة الجنبلاطية صراعاً داخلياً لحسم الزعامة فيها. لأن التوافق الذي كان معمولاً به في مرحلة الشيخ علي جنبلاط وما قبله، اختلّ بعده لسببين على الأقل:

الأول يعود إلى أن الزعامة في تلك المرحلة كانت في بداية تكوّنها، الأمر الذي جعل التنافس شبه معدوم بوجود الشيخ علي ورجحان موقعه. والثاني يعود إلى أن الأبناء لم يكونوا بعد مؤهّلين للعب دور سياسي. لهذا بدأت بوادر الصراع الداخلي تظهر بعد وفاته. فقد ازداد عدد الأبناء وتوسّع نفوذ العائلة التي أخذت تبرز كقطب رئيس، سواء في محيطها وبيئتها الخاصة، أو على مستوى الإمارة في جبل لبنان، الأمر الذي جعل التوافق بين أبناء العمومة على زعامة شخص محدد منهم أمراً صعباً، ولم يكن ليتم بدون دور العنف الداخلي.

من هنا كان التنافس بين أفراد العائلة الجنبلاطية شديداً إلى درجة وصل مستوى العنف فيه إلى حد العداء المستحكم والتصفيات الدموية. وهذا ما ترك «لمسات مأسوية» على مصير ابنَيْ الشيخ علي (قاسم ونجم). ففتك ابنا العم أحدهما بالآخر[98]. وعمدت الأسر التي نشطت في العمل السياسي واحتلت موقعها بين القوى المتصارعة، إلى إيلاء مسألة الوحدة الداخلية ومركزية القرار السياسي اهتماماً كبيراً. لذلك لم يتورع بعض الطامحين من أفرادها عن اللجوء إلى تدبير المكائد وعمليات الاغتيال والقتل المباشر من أجل الاستئثار بالزعامة وحماية «عصبيتها» والإبقاء على وحدتها السياسية. لم يشذّ آل جنبلاط عن هذه القاعدة لعمل الأسر وزعمائها، كما يقول ايليا حريق، بل كانوا «أصدق مثل»

98. يراجع: إيغور تيموفييف: م.س، ص. ص 505–508.
- يوسف خطار أبو شقرا: م.س، (87–89) و(91–93).
- إيليا حريق: م.س، ص 60.



على تطبيقها[99]. فما ان مات أول اقطاعي منهم حتى بدأت المنافسة بين أبنائه، وتكرر هذا الأمر في الجيل الثاني لحماية مركزية الزعامة ووحدتها. وأخذ هذا الصراع بين أفراد العائلة بُعداً مكانياً، إذا جاز التعبير، بين بعدران والمختارة. الأولى مثلاً كانت مركز زعامة الشيخ قاسم وأولاده والثانية مركز زعامة أبناء الشيخ نجم[100].

وبالرغم من أن نتيجة الصراع حُسمت، من حيث المبدأ، لمصلحة الشيخ بشير وأخيه حسن (أولاد قاسم)، فإن التنافس على الزعامة داخل العائلة لم يكن أمراً معزولاً عن محيطه. لذلك دخلت القوى الفاعلة في حينه على خط التناحر الجنبلاطي–الجنبلاطي، واستغلّ الأمراء الشهابيّون. هذا التناحر، بل يمكن القول إن الصراع داخل العائلة لتحديد شخص الزعيم وموقعه كان، بشكل أو بآخر، امتداداً للصراع الشهابي، بحيث تمركز كل طرف مع أحد أطراف القوى في الإمارة الشهابية. فقد كان الشيخ قاسم مسانداً مثلاً للأمير بشير الشهابي والشيخ نجم متحالفاً مع الأمير يوسف الشهابي. وفي مطلق الأحوال، فإن لعبة الزعامة داخل العائلة كانت محكومة بالقوة والإخضاع في المرحلة الشهابية، الأمر الذي ساعد بطريقة أو بأخرى على النيل من موقعها في هذه المرحلة.

لم يتراجع الصراع على الزعامة داخل العائلة الجنبلاطية في المراحل اللاحقة، غير أنه لم يعد يستند إلى القاعدة العنفية السابقة لتثبيت الموقع واكتساب الشرعية أو فرضها، بل اتخذت هذه المسألة مظاهر خلافية عادية وتوترات لها طابعها

99. للمزيد، يراجع:
- إيليا حريق: م.س، ص 60–61.
- حيدر شهاب: م.س. ص 173.

100. يراجع أنيس يحيى: م.س، ص 25–26.
- ايليا حريق: م.س، ص 60–61.

السياسي. فلقد أرخت أحداث 1840-1860 بثقلها على العائلة، كما على المتحد الدرزي برمته، مما جعل همّ المحافظة على الوجود أكثر أهمية من تثبيت هذا الزعيم أو ذاك. لذلك خفّت، في مرحلتي القائمقاميتين والمتصرفية، حدة التنافس العلني ليعود إلى الظهور مع بدايات القرن العشرين والتحولات الجذرية التي أصابت جبل لبنان والمنطقة.

## نتائج أولية

إن نظام القائمقاميتين 1840 الذي فرز جبل لبنان وسكانه على أساس طائفي-مذهبي (درزي-ماروني) لم يعمر طويلاً؛ لأن الانقسام المجتمعي بين الدروز والموارنة لم يوفر الاستقرار اللازم، خصوصاً أن الدروز والنصارى، على حد سواء، كانوا غير قادرين وبشكل منفرد، على توطيد دعائم حكمهم. وهكذا تفشت الفوضى بين النصارى كما بين الدروز[101]؛ الأمر الذي أدى إلى نظام المتصرفية 1860 وتعديلاته 1864 وأسس لاحقاً للنظام السياسي الطائفي في لبنان الكبير[102]، مما جعل الزعامة السياسية، بطابعها الطائفي وتشعباتها المذهبية، تزداد رسوخاً وثباتاً.

لذلك، فإن التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي أصاب بنية جبل لبنان في مرحلتي القائمقاميتين والمتصرفية، حصر دور الزعامة الجنبلاطية؛

101. **السفير**، تاريخ 24 كانون الأول 2002.
102. لمزيد من المعطيات، يراجع على سبيل المثال:
- د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية**، م.س.
- د. مسعود ضاهر: **تاريخ لبنان الاجتماعي (1914-1926)**، الطبعة الثانية 1984، بيروت، دار المطبوعات الشرقية، الفصل الأول والثاني.
- د. وجيه كوثراني: م.س.
- سليمان تقي الدين: **المسألة الطائفية في لبنان، الجذور والتطور التاريخي**، بيروت، دار ابن خلدون.



لكن هذا التحول لم يُلغ دورها عملياً سواء داخل المتحد الدرزي[103]، أو على المستوى المجتمعي العام. واستطاعت هذه الزعامة أن تحافظ على موقعها قياساً بالزعامات الإقطاعية الدرزية الأخرى. ويعود ذلك إلى أسباب عدة، لعل من أهمها وفرة الأملاك الإقطاعية من جهة، وعدم تفتيت هذه الملكية من جهة أخرى.

أما في موضوع الأملاك، فقد بدأت أملاك العائلة الجنبلاطية تتسع وثرواتها تزداد شيئاً فشيئاً منذ أيام الشيخ علي جنبلاط، الأمر الذي جعل زعامة البيت الجنبلاطي أكثر عراقة، وصيّرته هذه الثروة من «أضخم بيوت المشرق ثراء وأجزلها غنىً»[104].

أما في موضوع المحافظة على تماسك الملكية، فإن الأسرة الجنبلاطية لم تكن قادرة على تحقيق ما وصلت إليه والاستمرار بهذا الثقل لو لم يلج بعض أفرادها غمار الاستئثار الكامل بالثروة والجاه من دون الآخرين. ويشير أنيس يحيى إلى أنه لو تسنّى لكل شخص من أولاد الشيخ علي وعددهم خمسة (قاسم، نجم، يونس، فارس، حسين) اقتسام ما خلفه والدهم، لفقدت هذه الأسرة مكانتها وتساوت وباقي الزعامات الإقطاعية[105] في الجبل عموماً وداخل المتحد الدرزي خصوصاً. ففي نهاية القرن الثامن عشر مثلاً، كانت العائلات الدرزية الكبرى (إرسلان، جنبلاط، العماد، نكد، تلحوق، عبد الملك...) تملك عُشر الأراضي المزروعة في الجبل اللبناني. لكن بعد خمسين سنة، أي حوالى 1840،

103. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م.س، ص 49.
104. يراجع: د. مسعود ضاهر: **الجذور التاريخية**، م.س، ص 410.
- يوسف خطار أبو شقرا: م.س، ص 81.
- سليم حسن حسني، **العائلة الجنبلاطية** (بالفرنسية) م.س، ص59.
- دومينيك شوفالييه، م.س، ص 185 يشير إلى أن الأسرة الجنبلاطية كانت جديدة وقوية في الشوف.
105. انيس يحيى: م.س، ص 17.

كان آل جنبلاط (الشيخ سعيد) يملكون بالكامل ووحدهم ثُمن أراضي الشوف[106]، الأمر الذي يدلّ على أن الزعامة الجنبلاطية التي طاولها الحصار السياسي، بشكل أو بآخر، في عهد القائمقاميتين وعهد المتصرفية، حافظت على قوة مادية مهمة، مقارنة بغيرها من البيوتات الدرزية، ما جعل تماسك الثروة وعدم تفتيتها رافداً مهماً من روافد النهوض لاحقاً.

هذه الوضعية جعلت مستوى «التراجع» في الحضور السياسي الذي أصاب الإقطاعيات الدرزية التقليدية في القرن التاسع عشر، يكون أقل درجة وحجماً بالنسبة إلى الزعامة الجنبلاطية.

إن العائلة الجنبلاطية التي وفدت إلى جبل لبنان، منذ أوائل القرن السابع عشر، غدت في نهايات القرن التاسع عشر من أبرز العائلات التقليدية فيه. لهذا، فإن المتحد الاجتماعي الدرزي الذي أصابته ويلات الصراعات الداخلية بين أطرافه وعائلاته، اثخنته جراح نزاعه مع الآخرين (1840 و1860) وساهمت في شرذمته وإضعاف موقعه التاريخي في جبل لبنان، فجعلته أكثر حاجة إلى زعامة فتيّة متماسكة، وصاحبة نفوذ واسع وعلاقات متينة مع القوى الاجتماعية والسياسية التي أفرزتها التحوّلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة، لتملأ الفراغ الحاصل في الساحة السياسية للمتحد الدرزي وتحافظ على موروثه الاجتماعي، خصوصاً بعد ازدياد البُعد الطائفي والمذهبي للزعامات التقليدية وتكريسها في نصوص وأعراف وتقاليد. لذلك كانت الزعامة الجنبلاطية حاضرة للاستمرار في لعب هذا الدور نتيجة

---

106. يراجع:
- سليم نصر وكلود دوبار: **الطبقات الاجتماعية في لبنان، مقاربة سوسيولوجية تطبيقية**، بيروت، الطبعة الأولى 1982، مؤسسة الأبحاث العربية، ص 39.
- دومينيك شوفالييه: م.س، ص 155 الذي يُبرز جدولاً أولياً بتوزيع الأراضي على العائلات الاقطاعية.



لطبيعتها، ولما اكتسبته في المرحلة السابقة من خبرات وقدرات ومكانة، ولما توفّر لها من ظروف تاريخية مناسبة قياساً بالعائلات الدرزية الأخرى، رغم كل ما تعرضت له وواجهته. فكيف تمظهرت هذه الزعامة في المرحلة التي سبقت تصدّر نظيرة جنبلاط؟

## الفصل الثاني

■

# الزعيم المغدور

شهدت مرحلة المتصرفية تحولات مهمة على مستوى النظام المقاطعجي ووظيفته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الأمر الذي عكس نفسه على العائلات الإقطاعية واهتماماتها وطرق التعبير عن مواقعها التقليدية ومراكز نفوذها، مما زاد حدة التوترات والصراعات في ما بينها.

ولعل العائلات الدرزية «الكبرى» كانت الأكثر تجسيداً لهذه الوضعية، من خلال التنافس بين الغرضيتين التقليديتين - الجنبلاطية واليزبكية - فعرفت البدايات الأولى لنظام المتصرفية أفولاً للزعامة الجنبلاطية قبل أن تعود لتتصدر المراكز الوظيفية التي أفرزها النظام الجديد.

أفرز انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وتفكك الدولة العثمانية معطيات جديدة، وأعادا ترتيب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المنطقة، وكرّسا، الهيمنة الفرنسية في بلاد الشام من خلال فرض الانتداب على سورية ولبنان، ورسّخا التجزئة وما نتج عنها من قيام «دولة لبنان الكبير». أوجد هذا المناخ وضعية سياسية جديدة تركت بصماتها على القوى الاجتماعية والزعامات التقليدية التي سعت الى إعادة صياغة خياراتها وترتيب أوضاعها، من جهة، وبلورة مواقف واصطفافات سياسية، سواء مع الانتداب أو في مواجهته، من جهة أخرى.

واجهت الزعامة الجنبلاطية في هذه الحقبة التاريخية – المتصرفية وبدايات الانتداب – الكثير من التحديات وتعرضت للعديد من التحولات، الامر الذي فرض عليها أعباء جديدة وساهم في اعادة تحديد خياراتها السياسية واتجاهاتها. ولعل مقتل فؤاد جنبلاط الذي ترافق مع بدايات الانتداب الفرنسي كان أقصى ما واجهته على المستوى الداخلي. فقد أسس هذا الحدث لمرحلة جديدة في تاريخ العائلة السياسي، وأرسى الملامح العامة لتوجهاتها، وحوّل في طبيعة الزعامة ودورها من خلال تصدّر نظيرة جنبلاط كرسي الزعامة. فما هي أهم مظاهر هذه الحقبة؟ وكيف انعكست على الزعامة الجنبلاطية؟ وما هي النتائج السياسية لمقتل فؤاد جنبلاط؟

## مؤشرات جديدة

ألغى النظام الأساسي للمتصرفية وظيفة المقاطعجيين، فخسرت الزعامات التقليدية دورها والكثير من نفوذها وسطوتها، الأمر الذي جعل هذه الزعامات تسعى جاهدة لأخذ مواقع جديدة لها في «النظام الجديد» وأجهزته الادارية.

لقد مثلت الوظائف الإدارية في نظام المتصرفية خير وسيلة للتعويض عما خسرته الزعامات الإقطاعية، ووجد «أصحاب المقاطعات السابقة» في وظيفة «قائمقام» أو «المدير» في الناحية أو في القضاء وغيرهما، استمراراً ما لوظيفتهم القديمة التي كانت تُمارس في ما مضى بإشراف «الأمير الكبير»، فغدت بعد تطبيق نظام المتصرفية تُمارس بإشراف المتصرف الجديد[1].

لهذا ازداد انجذاب «المشايخ والأمراء» باتجاه المواقع الإدارية، واشتد التنافس بينهم للاستئثار بالوظائف الإدارية لما تمثله من هيبة ومصالح ونفوذ... لا بل إن الوظائف العليا – القائمقام والمدير – إضافة إلى الوظائف الأخرى – قضاء،

1. د. وجيه كوثراني: م. س، ص 69-70.



درك، كتبة... وغيرها، غدت محور «العمل السياسي» لهذه القوى[2] على اختلاف مشاربها الطائفية والمذهبية.

ضمن هذا المناخ السياسي والإداري، عانى المتحد الدرزي الكثير من مظاهر الفتنة بين الحزبيتين التقليديتين الجنبلاطية واليزبكية. واشتد الخلاف بين زعماء العائلات الإقطاعية الدرزية الخمس (جنبلاط، العماد، نكد، تلحوق، عبد الملك) بحيث عجزوا عن تسمية أحدهم قائمقاماً. فتسلم المنصب (القائمقام) الأمراء الإرسلانيون بداية في شخص أحمد إرسلان. ولعل ذلك قد يعود إلى أن آل ارسلان كانوا الوحيدين المحتفظين بلقب الإمارة[3]. واستمر الأمراء الإرسلانيون في هذا المنصب ثلاثاً وعشرين سنة بلا انقطاع، أي في عهد المتصرفين داود وفرانكو ورستم[4]، ووفر هذا المنصب للزعامة اليزبكية قوة ونفوذاً، سواء على صعيد الطائفة الدرزية، أو على الصعيد السياسي العام في جبل لبنان.

غير أن هذه الوضعية بدأت بالتحول على مرحلتين: المرحلة الأولى كانت مع مجيء رستم باشا الإيطالي المنشأ الذي عيّنه الباب العالي متصرفاً على جبل لبنان (1873-1883). فقد أصدر المتصرف الجديد مرسوماً جعل بموجبه ناحية الشوف السويجاني وُحدة إدارية منفصلة، وعيّن نسيب جنبلاط مديراً عليها[5]. والمرحلة الثانية والأهم كانت في عهد واصا باشا، الارناؤوطي المنشأ (1883-1892) الذي اعتمد سياسة مختلفة عن التقليد السائد في الجبل عموماً وفي الشوف خصوصاً. وكان من أبرز مظاهرها إقصاء الأمير مصطفى إرسلان عن حكم قضاء الشوف وتعيين نسيب جنبلاط خلفاً له[6].

2. م. ن، ص 71.
3. د. حسن أمين البعيني: **دروز سورية ولبنان**... م. س، ص 55.
4. يوسف ابراهيم يزبك: المجلد الثاني، م. س، ص 298–299.
5. إيغور تيموفييف: م. س، ص 20.
6. للمزيد، يراجع إيغور تيموفييف: م. س.
– يوسف ابراهيم يزبك: م. س.

لم يكن تعيين نسيب جنبلاط حدثاً سياسياً عادياً أو مركزاً وظيفياً هامشياً أو موقعاً معزولاً عن أبعاده السياسية والاجتماعية؛ فقائمقامية الشوف هي أكبر قضاء في جبل لبنان القديم، والمنصب، كما يشير يوسف إبراهيم يزبك، كان أعلى منصب درزي يحلم به أبناء البيوتات السياسية من بني معروف. ذلك لأن «الشوف المتصرفي» استمر عنواناً للسياسة اللبنانية التي سادت في عهدَي المعنيين والشهابيين. فلا غرو أن ينشرح صدر متولّيه وأن يرى نفسه ويراه الناس - عن حق أو عن خطأ- سيدَ قومه وصاحبَ الصدارة بينهم[7]. لذلك أحدث هذا التعيين دوياً قوياً وهزة كبيرة استمرت مفاعيلها عقوداً عدة، كونه ترك انعكاسات سياسية على مستوى موقع الزعامة الجنبلاطية؛ كما على مستوى علاقات العائلة الجنبلاطية بحد ذاتها.

على مستوى موقع الزعامة الجنبلاطية، يمكن ملاحظة آثار تعيين نسيب جنبلاط وأهميته في أمرين:

(1) الأمر الأول أن التعيين أعاد إلى الزعامة الجنبلاطية موقعها «الرسمي»، إذا جاز التعبير، بعد مرحلة من الانحسار والتراجع. ففي بدايات نظام المتصرفية، ضُربت امتيازات العائلة بطريقة أو بأخرى نتيجة لطبيعة النظام الجديد وإفرازاته السياسية إذ لم يكن العثمانيون في تلك المرحلة راضين عن آل جنبلاط، الأمر الذي حصر نفوذ العائلة وقلّصَه. فقد جرت في العام 1842 محاولة «عثمانية» لإعادة الزعامة الجنبلاطية إلى موقعها بعد أن أصدر السلطان محمود أمراً بردّ الحاكمية الى الأسرة الجنبلاطية وتولي سعيد بشير جنبلاط حاكمية الشوف ومنحه لقب «شيخ المشايخ»، غير أن الأمير بشير الثالث (1798-1860) رفض هذا الأمر، وجاء اشتداد الصراعات والفتن الطائفية والمذهبية في جبل لبنان، ليجعل الشيخ سعيد جنبلاط متهماً فأُعتُقل وسُجن في عكا وتوفي بداء السل

7. يوسف ابراهيم يزبك: م. س.



بتاريخ 11 أيار 1861، ودُفن في مقبرة الأوزاعي-جنوب بيروت[8].

من هنا، جاء تعيين أحد أفراد العائلة الجنبلاطية في «وظيفة رسمية - حكومية» شكلاً من أشكال الاعتراف بدورهم وتعزيزاً لموقعهم السياسي والاجتماعي وأسبغ نوعاً من «الشرعية» على زعامتهم في الجبل بعد أن كانت الغرضية اليزبكية هي المستأثرة بالموقع الزعامي «الرسمي».

(2) الأمر الثاني أسس التعيين لمرحلة جديدة، من حيث المبدأ، وأحدث نقلة نوعية في مسار الزعامة الجنبلاطية. بمعنى أن الموقع - وظيفة القائمقام - غدا وظيفة متوارثة، إلى حد بعيد، في العائلة، مما فتح المجال لأفراد العائلة لاحقاً كـ(علي نجيب جنبلاط وأخيه فؤاد) ليستلما المنصب الجديد، ولزيادة قوة العائلة وتعزيز حضورها.

أما على مستوى علاقات العائلة الجنبلاطية فإن الموقع الجديد ساهم، مع غيره من العوامل، في بروز أمرين مترابطين: الأمر الأول داخلي يتمثل في أنه أسس لنوع من التنافس بين أفراد العائلة، بمعنى انه أعاد الخلاف على تحديد شخص الزعيم والرجل الأول. والأمر الثاني خارجي يتمثل في علاقات العائلة السياسية وتحولاتها. وقد ترافق هذان الأمران مع بدايات التحولات السياسية التي بدأت بواكيرها تظهر عشية الحرب العالمية الأولى، وتكرست نهائياً مع هزيمة العثمانيين في هذه الحرب، وخضوع سورية ولبنان للانتداب الفرنسي.

- في الأمر الأول (الأمر الداخلي): يلاحظ أن بداية بروز علي وفؤاد جنبلاط أسست لتوترات خفيفة في إطار العائلة. وتعزز هذا التوتر بشكله الأبرز وأخذ صورته الأوضح عندما كرس الفرنسيون فؤاد قائمقاماً للشوف عام 1919. فنسيب باشا الذي كان قد استقال من القائمقامية عشية الحرب الكونية الأولى

8. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 49.

بعد توتر علاقته مع آل عثمان وغادر المختارة ليستقر في قصر البرامية قرب صيدا، معتزلاً السياسة[9]، اعتبر تعيين علي (ابن أخيه) قائمقاماً تكريساً لزعامة المختارة. لهذا يشير ايغور تيموفييف إلى أنه «لربما شعر العم نسيب بالغيرة من علو مقام ابن أخيه الأكبر» الذي بدأ يكتسب نفوذاً واسعاً في المختارة «قلعة الدروز السياسية والروحية»، خصوصاً أن نسيب جنبلاط كان يميز بين أبناء أخيه. بمعنى أنه كان أقرب لعلي وولديه (حكمت ونجيب) مما هو لفؤاد وذريته. وقد بقيت هذه «الخلافات الطفيفة» قائمة إلى أن عملت الست نظيرة جنبلاط في الثلاثينات من القرن العشرين على رأب الصدع وإعادة اللحمة بين البرامية والمختارة.

– في الأمر الثاني (الأمر الخارجي): يُلاحظ أن علاقات الزعامة الجنبلاطية وتحالفاتها السياسية بدأت تأخذ اتجاهاً مغايراً، إذا جاز التعبير، فنسيب جنبلاط كان كغيره من الزعامات الإقطاعية في حينه، يعتمد على تقديم الولاء للسلطنة العثمانية لتوطيد زعامته وتكريس مواقعه وإعلاء شأن قومه. إلاّ أن حقيقة الأمر بيّنت أن علاقاته مع آل عثمان كانت ملتبسة. والولاء الذي يظهره كان أقرب لأن يكون ظاهرياً وشكلياً، تفرضه ضرورات المرحلة وطبيعة التوازنات السياسية القائمة، أكثر مما هو ولاء موضوعيّ وصادق».

ويبدو أن نسيب جنبلاط لم يكن يخفي عواطفه تجاه التاج البريطاني. ففي مناسبة اعتلاء الملك أدوار السابع العرش، أهداه نسيب باشا سيفاً

9. للمزيد عن نسيب جنبلاط، يراجع على سبيل المثال:
– إيغور تيموفييف: م. س، ص 21.
– محمد خليل الباشا: المجلد الأول، م. س، ص 346–348.
– يوسف الحكيم: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، ص 111 و219–220.
– سليم حسن هشي: **يوميات لبناني ايام المتصرفية**، بيروت، 1973، ص 20.



دمشقياً، فردّ اللورد هنري لاندسداون وزير خارجية بريطانيا برسالة شكر للباشا[10].

كانت علاقة الطوائف اللبنانية بالدول الأجنبية ظاهرة مألوفة وتقليداً متبعاً. فقد عززت الفتن الطائفية، بين الدروز والموارنة في الجبل، «العلاقات» بين الدروز والبريطانيين؛ «ووثقت عرى الصداقة بينهما»، فاعتُبر البريطانيون وكأنهم حماة الدروز من خلال ما قدموه لهم من مساعدات. كما اعتُبرت فرنسا «الأم الحنون» للموارنة. لهذا، فإن الدروز في جبل لبنان كانوا في معظمهم موالين لبريطانيا رغم الولاء التقليدي للدولة العثمانية.

من هنا، فإن «العلاقة الودية» بين الباشا والبريطانيين لم تكن بداية لتثير الاستغراب عند السلطات العثمانية كونها أمراً عادياً ومعروفاً أو مفروضاً. فالطوائف في لبنان بدت كـ«محميات دولية»، إذا جاز التعبير. بمعنى أن كل دولة تحتضن طائفة. لهذا ظل المتصرفون يثقون بنسيب باشا وأعادوا تعيينه قائمقاماً عام 1911 بدلاً من شكيب إرسلان.

غير أن التحولات العالمية عشية الحرب الكونية الأولى جعلت مثل هذه العلاقات «الخارجية» سلوكاً غير مرغوب فيه، بل ظاهرة مشكوكاً في أمرها وأبعادها. لذلك غدت السلطات العثمانية قلقة من نسيب جنبلاط واتصالاته مع البريطانيين وبالتالي غير مطمئنة إلى عواطفه تجاه الباب العالي، وأصبحت هذه السلوكيات مثار تساؤلات وشكوك. فالتصرف الذي كان «عُرفاً أو تقليداً لبنانياً» غدا أمراً «مشبوهاً» وغير مقبول، وبالتالي لا يمكن السكوت عنه أو التغاضي عن مفاعيله. فتعرض نسيب جنبلاط لنوع من التقريع بحجة عجزه

10. إيغور تيموفييف: م. س، ص 21 وبشير دومينيك شوڤالييه: م. س، ص 315 الى ان نفوذ آل جنبلاط وصداقاتهم البريطانية كانا مدعاة للقلق بالنسبة للسلطة العثمانية.

عن «مكافحة السلب والنهب على طريق الشوف» فاستقال قاطعاً الطريق على إقالته وعزله رسمياً من وظيفته[11].

هذا الاتجاه السياسي الذي اعتمده الباشا مع البريطانيين، والذي مَثَّلَ المزاج الدرزي العام، بدأ يتحول مع مجيء الانتداب الفرنسي وانهزام العثمانيين. من هنا يمكن القول إنّ التعيين الفرنسي لفؤاد جنبلاط كان نسجاً لعلاقات سياسية جديدة مع فرنسا، بديلاً من العلاقات التاريخية مع البريطانيين، باعتبار أن العلاقة مع فرنسا مسألة غير معهودة، من حيث المبدأ، في الموروث الثقافي والسياسي للطائفة الدرزية، لأن الدولة الفرنسية كانت تاريخياً الحليف الأساسي للموارنة في جبل لبنان من جهة، وهي السلطة الاستعمارية المنتدبة التي كرست التجزئة في المنطقة من جهة ثانية. لهذا كان المناخ العام عند غالبية الدروز يميل إلى الاتجاه المعارض لفرنسا والمتعاكس مع سياستها. بل يمكن القول إنّ السياسة العامة التي اعتمدها «الدروز» كانت على عداء مع فرنسا، وفي حالة صراع مستمر مع قواتها، بحيث اصطفوا، مبدئياً، في خندق المواجهة والمقاومة لفرنسا في المنطقة.

ضمن هذه المقاربة، يأتي إبعاد نسيب باشا وتقريب فؤاد جنبلاط وكأنها إعادة لرسم الخارطة السياسية داخل العائلة وداخل الطائفة بحد ذاتها، الأمر الذي سيحكم مسار الزعامة الجنبلاطية وخياراتها السياسية ويترك مفاعيله على موقعها ودورها في مرحلة الانتداب الفرنسي. فكيف يمكن متابعة هذا المنحى مع فؤاد جنبلاط؟ وما هي حدوده؟ وما هي الظروف السياسية والاجتماعية التي فرضته؟ وما هي النتائج التي أسفر عنها مقتله؟ كثيرة هي الأسئلة التي يمكن أن

11. يراجع- إيغور تيموفييف: م. س.
- قيل في نسيب جنبلاط زجلاً (يراجع د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، ص 50).
لا بد من كأس الصفا يصغى لها.
ويخوض مُهرك يا نسيب في مجالها.
دار البناها بشير عمود السما.
عار عليك تنكرون افضالها.



تبرز لتوضيح مسار الزعامة الجنبلاطية وتثبيت مواقعها في هذه المرحلة، لا سيّما وأن أهميتها تكمن في كونها الأرضية الأساسية والأولية التي هيأت الظروف لتولي نظيرة جنبلاط كرسي الزعامة الجنبلاطية.

## شخصيتان مختلفتان

ترك نجيب سعيد جنبلاط[12] (1849–1893) بعد وفاته ولدين هما فؤاد (1885–1921) وعلي (1887–1937)، وكونهما كانا قاصرين عند وفاة والدهما (فؤاد في الثامنة وعلي في السادسة)، فقد تكفل عمّهما نسيب (1845–1922) الوصاية عليهما والاهتمام بهما ورعايتهما. لذلك وفّر العم لولديْ أخيه ما يلزم من عناية وتربية. ووفّر لهما التعليم الأولي في قصر المختارة، ما أهّلهما لمتابعة تحصيلهما الدراسي في الجامعة الأميركية في بيروت.

غير أن فؤاد وعلي[13] كانا مختلفين في شخصيتيهما اختلافاً واضحاً. ويبدو أن أهم مظاهر التباين بينهما تتمثل في مسألتين: المسألة الأولى نمط الحياة، والمسألة الثانية مدى الاهتمام بالسياسة. ولعل متابعة هاتين المسألتين تساعدنا على تحديد الإطار العام لشخصية فؤاد جنبلاط ودوره، من جهة، والفراغ الذي حدث بعد مقتله، من جهة أخرى، ويمهد الطريق لتبيان المداميك الأولية لمسار زعامة نظيرة جنبلاط، من جهة ثالثة.

في المسألة الأولى: نمط الحياة – ترك علي المختارة وعاش في بيروت. فقد كان محباً للحياة بكل مباهجها، ويتحلى، كما يقول إيغور تيموفييف، بجاذبية متناهية. يعتمد في علاقاته دبلوماسية الصالونات على ما عداها

12. لمزيد من المعطيات حول نجيب سعيد جنبلاط، يراجع: محمد خليل الباشا، م. س، ص404–402.
13. للمزيد حول فؤاد وعلي، يراجع: م. ن، ص 385–387.

من مظاهر السلطة وأشكالها. فجَمَعَ منزله بين «عراقة السلالة» وحداثة الحياة. فأثاثه من الطراز الحديث الفاخر، وخَدمُه يصل عددهم إلى العشرين تقريباً. وكان بيته يضجّ بالزوار والضيوف من أمثال المندوب السامي هنري غورو، ويجمع تحت سقفه المنتديات واللقاءات بين أبناء البيوتات التقليدية والارستقراطية، بعيداً من المراجعات اليومية للفلاحين وأصحاب الحاجات من بني قومه.

ويبدو أن علياً كان ميالاً إلى حياة المدينة ومَلذاتها ومتحرراً من قيود التقاليد وثقلها، و«مغرماً بالنساء» الحسناوات. لهذا يلقبه إيغور تيموفييف بـ«زير النساء»[14]. وهو تزوج من حسناء إيطالية تدعى ماري توما. وغادر لبنان ليقضي ما يزيد على عشر سنوات متنقلاً بين أميركا وأوروبا. ولعل تخرجه في الجامعة الأميركيّة ساعده على تعزيز هذا النمط من الحياة. غير أن طبيعة حياته ومتطلباتها المادية جعلته في المقابل يعيش شبه مفلس، من حيث المبدأ، فكان عمه نسيب باشا يسعفه باستمرار لأنه يفضله على أخيه فؤاد.

في المسألة الثانية، الاهتمام بالسياسة: لم يكن علي يعبأ بالسياسة أو يهتم بمتابعتها. فبعد تخرجه في الجامعة عُيِّن مديراً لأحد شطري الشوف (1906)،

14. إيغور تيموفييف: م. س، ص 30. ويذكر نجيب بك شمس: مقابلة شخصية، الاحد 6 تشرين الاول 2002، حاصبيا، ان خاله علي جنبلاط كان له صديقة من عائلة دمشقية قبل ماري حداد (توما). كما يشير الحاج شعبان محمد قوير: مقابلة شخصية، الاثنين 22 تموز 2002، سيلين، الى ان علي بك كان «طائشاً» قياساً للمعايير التقليدية التي كانت سائدة آنذاك.
ويشير آل أسبر في تعقيبه على إيغور في **النهار**، تاريخ 2/ 11/ 2000، الى موضوع زواج علي من ماري توما وسفره الى الارجنتين واهتمام الجالية به، خصوصاً المسيحيين، بسبب تنكر اخوانه الدروز له موضحاً انه توجه الى الارجنتين وليس الى أميركا واوروبا كما اشار إيغور تيموفييف.



لكنه سرعان ما استقال من منصبه وعُيّن أخوه فؤاد بدلاً منه. فالاهتمام بالقضايا السياسية ومتابعة مستلزمات الزعامة اليومية وشجونها وهمومها لم يكونا من أولوياته، وعليه لم يتجه علي لتحصيل موقع سياسي أو يعمل لتثبيت الزعامة سواء لشخصه أو لولديه (حكمت ونجيب)، أو للعائلة بحد ذاتها، بل اكتفى بما اختاره من نمط في العيش وأسلوب في الحياة، وجسّد قناعاته مرة أخرى عندما قَبِل، على مضض، قرار تعيينه قائمقاماً للشوف بعد مقتل أخيه فؤاد. فقد تدخل عمه نسيب باشا لأسباب تعود إلى خلافاته القديمة مع فؤاد، كما تدخّل المندوب السامي غورو الذي كان صديقاً لعلي لإقناعه بضرورة تولي المنصب الجديد[15].

إن عودته مجدداً إلى مركز الزعامة في المختارة وتوليه وظيفة القائمقام وانتقال الزعامة إليه بعد موت أخيه فؤاد، ووقوف العم نسيب والسلطة الفرنسية إلى جانبه، لم تغيّر نظرته إلى السياسة. فالمناصب «الرفيعة» لم تغرْه، وموقع الزعامة لم يجذبه، ومراكز السلطة ومغرياتها لم تستهوه من قريب ولا من بعيد، إلى درجة بدا وكأنه في حالة عداء معها. ولم يكن مستعداً، على ما يبدو، لأن يضحي بنمط معيشته وطبيعة حياته تحت أي ظرف من الظروف، ولأي سبب من الأسباب. لهذا، سرعان ما قدم استقالته[16]من وظيفة القائمقام عام 1923، وهو المنصب الذي يطمح إلى بلوغه ويسعى إليه أبناء البيوتات التقليدية، لما يمثله من اعتراف بالزعامة وتكريس لها، وغادر المختارة مرة أخرى، فعُيّن مكانه في القائمقامية فايز العماد.

يلاحظ أن علي جنبلاط منذ استقالته (1923) وحتى وفاته (1937) لم يسعَ إلى منصب أو ينافس على الزعامة الجنبلاطية في المختارة، أو يعمل على تكريسها

15. إيغور تيموفييف: م. س، ص 20-21 و30.
16. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص 49 ويشير حنا أبي راشد: م. س الى أن علياً باع كل أملاكه في الجبل واستملك في بيروت، ص 555.

لشخصه[17]. لهذا، فإن استقالته من جهة، واغتيال أخيه فؤاد من جهة أخرى، جعلا موقع الزعامة الجنبلاطية في المختارة شاغراً، لأن الورثة الذكور كانوا قاصرين. هذا الفراغ كان من العوامل الأساسية والمهمة التي فتحت المجال أمام نظيرة جنبلاط لملء موقع الزعامة والقيام بمستلزماتها. وبذلك كانت ظاهرة غير مسبوقة، سواء في تاريخ الزعامة الجنبلاطية، أو على مستوى الزعامة الدرزية، أو على المستوى الوطني العام. كما كان من نتائج هذا الفراغ أن العائلة الجنبلاطية في المختارة لم تحظَ، ولمدة أربع وعشرين سنة، بأي مركز أساسي في المجالس الإدارية أو النيابية. واستمرت هذه الوضعية لغاية العام 1937 عندما استعادت المختارة من خلال حكمت علي جنبلاط موقعاً نيابياً[18]، بعد نجاح نظيرة في جمع شمل العائلة الموزعة بين البرامية وبيروت والمختارة.

## الشخصية والاهتمام

على النقيض، وإلى حد بعيد، من علي، كان أخوه الأكبر فؤاد، سواء على مستوى الشخصية وطبيعة الحياة أو على مستوى الاهتمامات السياسية.

في المستوى الأول يُلاحظ أن فؤاد لم يستطع متابعة تحصيله الجامعي لأسباب صحية. لذلك ترك الجامعة الأميركية قبل التخرُّج، وعاد إلى المختارة. ولعل هذه المسألة كانت من العوامل المحرّكة لأن يكون أكثر اهتماماً بتثبيت زعامته وتعزيزها.

يصفه إيغور تيموفييف فيقول: إنه كان «معتدل القامة، أسمر الوجه، ذا

17. لم يسعَ علي جنبلاط، مثلاً، للزواج من نظيرة جنبلاط بعد وفاة زوجها، الأمر الذي كان يوفر له مركز الزعامة بدون أية اشكاليات او منازعات. وربما كانت أسباب هذا العزوف عن الزواج أحد المظاهر المعبرة بوضوح عن نهجه في الحياة ونظرته إلى الأمور، رغم ما كان تردد عن الاتاحة لتزويجهما.
18. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 63.



نظرة ثاقبة من عينين رماديتين متقاربتين... يعاني، منذ الطفولة، لكنةً طفيفة، وينطق ببعض العبارات بلهجة بيروتية لم يألفها سائر الدروز»[19]. ويصفه كليمان غرانكور فيقول: إنه كان ذا وجه صغير، مربوع القامة، متواضعاً، ويتمتع بخصال طيبة، متسامحاً وكريماً تجاه الجميع، ولم يميّز بين الناس رغم الأحداث الأليمة والدامية، الأمر الذي جعله معروفاً في المنطقة واكتسب محبة الناس[20].

تزوج فؤاد مرتين، وفي المرتين كان محافظاً على التقاليد والأعراف السائدة في محيطه الاجتماعي وبيئته. زواجه الأول كان من امرأة من آل شمس من غريفة – الشوف – قرب المختارة. أنجبت له بنتاً، أصيبت منذ طفولتها بداء الشلل الفطري (عاهة فطرية) فاستدعى لها مربّية خاصة من عين وزين اسمها ميّاسة[21]، لرعايتها والاهتمام بها. غير أن الطفلة لم تعش طويلاً بسبب مرضها.

الزواج الثاني كان في العام 1915 بعد أن طلّق زوجته الأولى وتزوج نظيرة فارس جنبلاط ولها من العمر 25 سنة، والدتها فريدة سعيد جنبلاط، وهي من أفخاذ الأسرة في عين قني – الشوف – المجاورة للمختارة. لذلك كانت نشأتها الأولى في المختارة، حيث تربّت، مبدئياً، في عائلة واحدة مع فؤاد. وزواجه منها كان تكريساً للسائد في الزواج من أبناء العمومة. وقد رزق منها بنتين وصبيّاً. الأولى كان اسمها ليلى (1916)، توفيت في عامها الأول بسبب المرض بداء الأمعاء، وكمال (1917) وليندا (1919).

زواجه الثاني ترك بصماته على موقع الزعامة الجنبلاطية ومستقبلها، سواء للدور السياسي المميز جداً الذي لعبته زوجته بعد وفاته، أو لإنجابه ولداً ذكراً

19. للمزيد: يراجع إيغور تيموفييف: م. س، ص 19.
– د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 49–50.
20. كليمان غرانكور: **حياة محارب** (بالفرنسية)، 1936، باريس، ص 128.
21. يراجع: إيغور تيموفييف: م. س، ص 15، ود. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 50.

استلم الزعامة لاحقاً، وأحدث فيها تحوّلات جذرية في أبعادها ومضمونها وموقعها وخياراتها[22].

كانت حياة فؤاد جنبلاط تقليدية، كرجل في زعامة إقطاعية عريقة، ولها جذورها ووزنها في بيئتها الاجتماعية. فقد تميّز بالصرامة والشدة وحدّة الانفعال. غير أن هذه المواصفات لم تلغِ نزاهته وحسن تصرّفه مع جماعته. فقد سادت جبلَ لبنان، بعد إلغاء «استقلاله» إبان الحرب العالمية الأولى، الاضطراباتُ السياسية والاقتصادية، وأخذت القوات العثمانية تنهب كل شيء وانتشر الجراد وعمّت المجاعة وساد القحط وتكاثرت الأمراض المعدية. وترافق هذا مع ما أصاب موظفي الدولة أيام السلطنة العثمانية من فساد واختلاسات واستبداد بالناس. كما إنّ ثقل الاحتلال الفرنسي بعد الاندحار العثماني، وما كان يعانيه الدروز من ظروف صعبة جعلاه أكثر استياءً من الأوضاع، فزاد سخطه[23] وعمل من موقعه على الحدّ من وطأة المشاكل الاجتماعية التي أفرزتها الأحداث فقام خلال الحرب بإنقاذ عائلات كثيرة من الموت جوعاً. وكرّس حياته، كما يقول إيغور تيموفييف لخدمة محيطه. لذا تعزز موقعه وذاع صيته في المنطقة – الشوف – وخارجها[24].

ويبرز بعض ملامح شخصيته، المختلفة عن شخصية أخيه، بهواياته الخاصة واهتماماته الشخصية. فقد كان مولعاً بالسلاح والخيل، الأمر الذي جعله «فارساً»، قياساً بمعايير تلك المرحلة. لهذا اهتم كثيراً بالجياد الأصيلة، واقتنى منها

22. يتطرق الفصل السادس الى نماذج محددة لما أحدثه كمال جنبلاط في الزعامة مقارنة بما كان معتمداً في زعامة الست نظيرة.
23. يذكر حسن أمين البعيني: **دروز سورية ولبنان...** م. س، ص 144 ان فؤاد جنبلاط عزم على ترك الشوف، والالتحاق بالحكومة العربية نظراً إلى ما آل اليه الوضع تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، وما اصاب «مزرعة الشوف». لكنه عدل عن رأيه بعد أن اقتنع بنصيحة المخلصين بأنّ بقاءه يفيد منطقته أكثر من تركه لها.
24. إيغور تيموفييف: م. س، ص 19 و21–22.



الأفضل. وكان لديه ما يقارب عشرة جياد، أحدها حصان كان يسمّيه «حمام»[25] وكان الحصان معروفاً في المنطقة لشدة اهتمامه وتعلّقه به.

أما على مستوى الاهتمامات السياسية، فإن فؤاد جنبلاط لم يتوانَ عن تولي المسؤولية والسعي للمحافظة على كرسي الزعامة الجنبلاطية وموقعها في محيطها. فقد بدأت «زعامته» رسمياً مبكرة، من حيث المبدأ، إذ عيّنته السلطنة العثمانية في العام 1906، وهو ابن الواحد والعشرين عاماً تقريباً، مديراً لمنطقة الشوف الكبرى، بعد استقالة أخيه علي. ثم تكرّست هذه الزعامة عملياً عندما عيّنه الفرنسيون قائمقاماً على الشوف في العام 1919.

غير أنّ وظيفة القائمقام واستحقاقاتها السياسية كانت لها مفاعيلها المباشرة على مستوى العائلة الجنبلاطية من جهة، وعلى مستوى تحديد الخيارات السياسية واتجاهاتها من جهة أخرى، وعلى مستوى النتائج المأسوية على فؤاد جنبلاط من جهة ثالثة، يمكن لحظها على النحو الآتي:

أ) ساهم الموقع–الوظيفة في إحداث خلافات عائلية داخل الأسرة، لعل من أهمها الجفاء الذي ازدادت حدّته بين فؤاد وعمه نسيب، إلى درجة حرمان فؤاد حقّه الطبيعي كوريث بعد موت والده. وقد عزّز الخلاف وعمقه الاتجاه

25. يشير حسن يوسف: مقابلة شخصية، السبت 2 تشرين الثاني 2002، سبلين، أن فؤاد بك كان مولعاً جداً بالخيل. وجياده العشرة «بيربعهم» في بلدة سبلين. وقد كلف بسياستهم ابراهيم السيد وابراهيم سعيد. ويروي قصة موت «حمام» على النحو الآتي: مرض «حمام» في سبلين واحضر له البك حكيماً بيطرياً من كترمايا. لكن دون جدوى. فقال فؤاد بك: سأذهب الى المختارة ومن يخبرني بموت «حمام» سأقوصه بايدي. ويؤكد الراوي ان البك كان اذا قال كلمة نفذها دون تراجع. وبعد يومين نفق «حمام». فكانت المرجلة باخبار البك. فانتخى ابراهيم السيد. وكان قبضاي ومشهود له بالشجاعة والقوة. ولم يثنه الاهل والاصدقاء عن قراره. فذهب الى المختارة، وعند وصوله سأله فؤاد بك عن «حمام» فرد انه لاحظ في الصباح أن الحصان «بطنو منفوخ ومعلي رجليه للأعلى وكأنه يضحك». فقال البك «مات حمام». فرد السيد: انت قلت سيدي مش انا. فاجابه فؤاد بك: يا مقرود ذكي ومش رح تروح ميت على سبلين.

السياسي لكل من الزعيمين. ويبدو أن العم نسيب اعتبر أن اتجاه المختارة نحو فرنسا وقبول سياستها، كان تحولاً كبيراً ومتعارضاً مع الموقف الدرزي التقليدي، لذلك اتخذ من البرامية مركزاً لزعامته المعارضة لمركز المختارة وسياسة زعيمها.

ب) ساهم الموقع – الوظيفة، مع أسباب أخرى، في توجيه الخيارات السياسية للعائلة أي إنها دعمت علاقة آل جنبلاط – المختارة بالفرنسيين. وهذا ما سيترك آثاره على نهج نظيرة جنبلاط لاحقاً ويجعلها تتخذ المسار ذاته. ومهما كان موقف فؤاد جنبلاط من الفرنسيين وسياستهم تجاه الدروز، فإن الفرنسيين أبدوا تعاطفاً مع المختارة واعتمدوا سياسة تبادل الزيارات لآل جنبلاط باستمرار، وإبراز هذه الزيارات والإعلان عنها[26]، لغرض سياسي عندهم. غير أن طبيعة العلاقة مع الفرنسيين، من خلال الزيارات، أو من خلال الموقع الوظيفي، لم تؤدِّ، كما يشير إيغور تيموفييف، إلى اعتبار فؤاد بك متواطئاً مع المحتلين أو مرتداً في نظر جماعته[27].

جـ) ساهم الموقع–الوظيفة في إحداث نتائج مأسوية مباشرة، فالوظيفة كانت الشرارة التي أدت إلى مقتله. فقد اضطر فؤاد بك من موقع مسؤوليته «الرسمية» إلى متابعة الأحداث الأمنية في منطقته بشكل مباشر، الأمر الذي جعله هدفاً سهلاً للمعارضين والمعترضين والمقاومين لسياسة فرنسا في المنطقة. وقد أحدثت هذه المأساة مضاعفات على قدر كبير من الأهمية في مسار العائلة ومصيرها.

26. تحت عنوان «الجنرال غورو في المختارة»، تذكر صحيفة **الصفاء** بتاريخ 13 أيار 1921 انه قبل ظهر الجمعة الواقع فيه 6 أيار قدم الى المختارة صاحب الفخامة الجنرال غورو، المندوب السامي، يلحق به عدد من علية الفرنسيين كالمسيو فرنان دافيد عضو مجلس الشيوخ، والمسيو سوليه نائب باريس، وحاكم لبنان القائد ترابو، و غيرهم من الفرنسيين والوطنيين. فاستقبله قائمقام الشوف فؤاد بك وتلامذة وتلميذات مدرستي الصبيان والبنات وأمضى حوالى ثلاث ساعات في المختارة.
27. إيغور تيموفييف: م. س، ص 26.



## اضطرابات سياسية

لا يمكن قراءة حادثة اغتيال فؤاد جنبلاط خارج السياق السياسي العام في المنطقة، أو بشكل منعزل عن الاضطرابات السياسية والأمنية التي شهدتها تلك المرحلة. من هنا، فإن وضع الحادثة في إطار التحوّلات التي رافقت انهزام العثمانيين وفرض الانتداب يجعلان عملية الاغتيال لحظة سياسية مفصلية في وطأة الصراع الذي كان دائراً ضد الفرنسيين، ما جعل فؤاد جنبلاط إحدى ضحاياها.

لقد اضطربت الأوضاع السياسية في بلاد الشام قُبيل الحرب العالمية الأولى. وكان لانهزام العثمانيين والوعود التي أغدقها الحلفاء على الشعوب وحقّها في تقرير مصيرها، دور فاعل في تقوية الفكرة الاستقلالية، وتشجيع الأفكار الوحدوية وتوسيع الدعوات إلى إقامة دولة عربية موحّدة ومستقلة. غير أن الأطماع الاستعمارية التي مثّلها البريطانيون والفرنسيون، عملَتْ في الاتجاه المعاكس، وسعَتْ لإحكام قبضتها على المنطقة برمتها وتكريس هيمنتها عليها، الأمر الذي صدم حركات الاعتراض والممانعة العربية والتي كان من أبرزها ثورة الشريف حسين. فالوعود التي أطلقها البريطانيون للشريف حسين لم تكن أكثر من خديعة استُغِلَّتْ لتثبيت النفوذ الاستعماري في المنطقة وتجزئتها، لضمان مصالح الدول المستعمِرة. ويبدو أن الفرنسيين والبريطانيين عرفوا كيف يتعاملون مع القيادات السياسية العربية بعد أن فهموا طبيعتها وخبروا الذهنية السائدة والعقلية القبلية المهيمنتين على المجتمع والمتحكِّمتين بزعمائه.

انعكست هذه الصورة على «دولة لبنان الكبير» عموماً وجبل لبنان خصوصاً. فقد عبّرت ردود الفعل «اللبنانية» حيال دخول القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو إلى بيروت في 18 تشرين الأول من العام 1919 عن التناقض في المواقف

السياسية للقوى والهيئات والمتحدات الطائفية من الوجود الفرنسي، وما يمكن أن يمثّله على مستقبل المنطقة عامة والدول الناشئة خاصة.

توسّعت حركة الاحتجاج في جبل لبنان – كما في غيره من المناطق التي ضُمّت إلى دولة لبنان الكبير – ضد الوجود العسكري الفرنسي. ففي منطقة الشوف مثلاً وقع العديد من المناوشات الأمنية التي استهدفت الفرنسيين وقواتهم مباشرة. وفي 24 تموز 1919، جرت محاولة لاغتيال أول مندوب سام فرنسي (جورج بيكو) في بعقلين، عندما كان متوجهاً لزيارة البلدة بدعوة من شيخ العقل محمد حماده[28]، إضافة إلى مهاجمة منزل حبيب السعد في «عين تراز» بتاريخ 6 تشرين الأول 1919، بقصد اغتياله، مع الإشارة إلى أن السعد كان رئيس مجلس إدارة جبل لبنان، ثم حادثة «مزرعة الشوف»، حيث حاولت السلطة الفرنسية تطبيق «القانون» بحق خمسة أشخاص من آل البعيني، فتمّ التصدّي لـ«الجندرمة اللبنانية والفرقة الفرنسية»، مما دفع بالقوات الفرنسية إلى محاصرة المزرعة، فأحرقت حوالى ثلاثين بيتاً، وهجّرت الكثير من سكانها،

28. يراجع إيغور تيموفييف: ص 25 وحسن أمين البعيني: ص 81 و142–144. ويشير حسن امين البعيني الى انه بعد محاولة اغتيال المفوض السامي في بعقلين استدعى خليفة الجنرال غورو زعماء دروز جبل لبنان للتعرف إليهم. فحضر وفد كبير في 6 كانون الاول 1919 ضم مَن أيّد الفرنسيين مثل فؤاد وتوفيق ارسلان، نجيب عبد الملك، شيخ العقل حسين حماده واخوه أمين وشفيق الحلبي. اضافة الى مَن عارض الفرنسيين مثل: عارف ارسلان، فؤاد جنبلاط، رشيد جنبلاط، مصطفى العماد ومحمد تلحوق. ويعتبر البعيني ان الاجتماع كان تعبيراً عن شبه اجماع درزي حول توطيد العلاقة مع الفرنسيين (البعيني، ص 81). غير ان هذا الاجتماع وما أسفر عنه يمكن ان نستخلص منه ما يلي: اولاً: ان فؤاد جنبلاط لم يكن معتبراً على خانة الفرنسيين. وهذا قد يتناقض مع مجرى الاحداث ووقائعها. والثاني: ان هذا الاجتماع يبدو خارج سياق المنطق الذي مثلته حركة «العصابات» في المنطقة وخارج الهوى الدرزي العام. والمناخ الذي هيمن على دروز وادي التيم وجبل الدروز في سورية. لهذا يمكن القول ان هذا الاجتماع بقي محدود «التأثير في لحظته السياسية، وعبر عن اتجاه مثله بعض الدروز في جبل لبنان خاصة.



واعتقلت العديد من الأهالي[29]. وكادت الأحداث أن تمتد إلى قرية «غريفة» لولا الخشية من أن يصيبها ما أصاب المزرعة.

ترافقت هذه «الانتفاضات» المسلحة مع حركة تمرُّد شهدها العديد من المناطق في سورية ولبنان. وتناقلت الصحف أخبار «العصابات»[30] المسلحة ضد الفرنسيين و«القرى الموالية» لهم [31]. فعمدت القوات الفرنسية وبقرار من الجنرال غورو، إلى تشكيل ما سمي «الميليشيا السورية» التي عملت على تنظيم العناصر المحلية الموالية لفرنسا ودفعها إلى مواجهة نشاطات «العصابات» المعادية للاحتلال الفرنسي، الأمر الذي عزز الانقسام المجتمعي في جبل لبنان، كما في دولة لبنان الكبير (اعلن في ايلول 1920)، وكرّس السمة المذهبية والطائفية لكل من الموالين للوجود الفرنسي كما المعارضين والمقاومين لاحتلاله.

لذلك، فإن نتائج مؤتمر سان ريمو – نيسان 1920 – التي وضعت لبنان وسورية، نهائياً، تحت الانتداب الفرنسي من جهة، ومعركة ميسلون – 24 تموز 1920 – التي استشهد فيها وزير الدفاع السوري يوسف العظمة ومعظم ضباطه وجنوده في مواجهتهم التقدم الفرنسي نحو دمشق من جهة ثانية، ودخول قوات الاحتلال الفرنسي دمشق وتصفيتها الكيان السياسي العربي من جهة ثالثة، وانحسار حركات المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين من جهة رابعة، وقوة الحضور

29. حسن أمين البعيني: **دروز سورية ولبنان...** م. س، ص 142–144.
30. تعبير «العصابات» اقترن بالنضال الوطني ضد الاحتلال الفرنسي. والعصابات عبارة عن مجموعات غير منظمة من الثوار الذين كانوا يقاتلون الفرنسيين باسلوب «حرب العصابات» بحسب المفهوم الذي اصبح معروفاً في حركات التحرر الوطني. وبذلك كان مصطلح «العصابات» هنا لا يتضمن ابعاداً سلبية ومضامين خارج الاستخدام السياسي التعبير.
31. للمزيد من التفاصيل، تراجع جريدة **لسان الحال**، الاعداد الآتية:
   - 3 تشرين الثاني 1919.
   - 27 كانون الاول 1919.
   - 7 و12 كانون الثاني و3 شباط 1920.

العسكري الفرنسي وكثافته من جهة خامسة، مهّد مجمل هذه العوامل وغيرها الطريق فعلياً للهيمنة الأجنبية على المنطقة والتأسيس لمرحلة جديدة كان من أبرز مظاهرها إعلان دولة لبنان الكبير – 31 آب 1920 – وردود الفعل التي رافقته من الجماعات والفئات اللبنانية وتثبيت الوجود الفرنسي–العسكري والسياسي والاقتصادي – لحماية المصالح الفرنسية في سورية وجبل لبنان، لما يمثلانه من أهمية حيوية في حوض البحر المتوسط[32].

في ظل هذا المناخ السياسي الملتهب والأوضاع الأمنية العاصفة، وقعت عملية الاغتيال التي تعرّض لها فؤاد جنبلاط. فوظيفته «الرسمية» كقائمقام وضعته أمام تحدّيات جمة، لعل من أهمها ضبط الوضع المضطرب والحدّ من انفجاراته ومنع اتساع رقعة الصراعات الطائفية–المذهبية في جبل لبنان. غير أن هذه التحديات هي في جوهرها خارج نطاق الوظيفة وخارج إمكاناتها وحدودها، الأمر الذي أوصل الأمور إلى نهاياتها المأسوية.

## حادثة الاغتيال

إثر تعيّنه في القائمقامية، عمد فؤاد جنبلاط إلى ترتيب أوضاع مكتبه الجديد في السرايا في بعقلين، وإلى إجراء بعض التغييرات في نمط حياته. فقام بداية بتجهيز مركز وظيفته، وفرشَهَ بأفخر الأثاث ودفع ثمنه حوالى مئتي ليرة ذهباً من أمواله الخاصة. كما اقتنى سيارة «فورد» سوداء فخمة وكان سائقه الشخصي

32. يراجع د. مسعود ضاهر: **الجذر التاريخية**... م. س، ص 35، 33–37 و45–47 و261–266 و270–273.
– د. وجيه كوثراني: **الاتجاهات الاجتماعية**... م. س، ص 303–313.
– سليمان تقي الدين: **المسألة الطائفية في لبنان**، بيروت، دار امين خلدون، ص 245–247.



نايف دليقان يوصله يومياً من قصره في المختارة إلى سرايا الحكومة في بعقلين[33]، مع ما يرافق ذلك من حركات استعراضية، خصوصاً وأن المنطقة لم تكن اعتادت بعد على السيارات تجوب طرقاتها. كان امتلاك السيارة في تلك المرحلة مؤشراً هاماً على مقدرة الشخص ومظهراً من مظاهر الأبهة والنفوذ التي يتمتع بها صاحبها.

امتصت الوظيفة الجديدة وأوضاع المنطقة وناسها الكثير من وقته وأزالت العديد من هواياته واهتماماته الشخصية، لا سيّما وأن التعيين ترافق مع ازدياد الأخبار التي تصل تباعاً عن الأحداث الدامية بين القوات الفرنسية والدروز في سورية، الأمر الذي جعل الشوف معنياً بالمسألة وعلى تواصل مع أحداثها، وجعل مشاركة العديد من الشوفيين في «العصابات» المسلّحة ظاهرة عادية جداً، على الأقل من دافع وحدة «المصير» التي تجمع الدروز وتشدّهم كأقلية بعضهم إلى بعض. لهذا اتسعت دائرة التوتر في الشوف وتأزمت الأوضاع الأمنية وكثرت العمليات العسكرية التي تشنها «العصابات» ضد مواقع الاحتلال الفرنسي وقواته.

ويبدو أن عصابة شكيب وهّاب[34]، من غريفة، كانت إحدى أهم هذه «العصابات» وأكثرها جرأة ومقدرة من غيرها. لذا، ذاع صيت زعيمها وغدا بمثابة قصة «سيف بن ذي يزن»[35] كما يقول إيغور تيموفييف. ما زاد في تشدّد السلطة الفرنسية وتنكيلها بالقرى التي ينطلق منها أفراد هذه العصابة وغيرها.

33. إيغور تيموفييف: م. س، ص 26.
34. عارف حذيفة وسيف الدين القنطار: **شكيب وهاب (1890–1980)، سيرة كفاح**. بلا طبعة، بلا دار. يتحدث عن حياة شكيب وهاب ونضالاته.
35. للمزيد عن سيرة سيف بن ذي يزن، يراجع على سبيل المثال:
– ثريا منقوش: **سيف بن ذي يزن، بين الحقيقة والاسطورة والأمل**، بلاطبعة، بلا دار نشر.
– محمد عبده غانم: **سيف بن ذي يزن**، بيروت، دار العلم للملايين.

أمام هذا الوضع، كان على القائمقام أن يتخذ الإجراءات المناسبة لردع أفراد «العصابات»، والحدّ من نشاطاتها، خصوصاً وأن حاكم جبل لبنان يلحّ باستمرار ويلحّ دوماً على المزيد من القسوة تجاه أفرادها، ويهمه أن لا تتخذ هذه الأحداث وتلك الصدامات في منطقة الجبل طابعها الطائفي-المذهبي.

في هذه الأجواء، كان على فؤاد جنبلاط أن يطارد «المخلّين بالأمن» و«الخارجين على النظام». ونتيجة لصرامته ورغبته في «تضييق رقعة النزاع بين الدروز والموارنة» كان أكثر قسوة على المخالفين من جماعته وأبناء ملّته. فعمد، مثلاً، إلى اعتقال زوجات «العصاة» والمتمردين وزجّهنّ في سجن بيت الدين، الأمر الذي وسّع نطاق الاعتراض على تصرّفه وحرّض العائلات الدرزية ضده، وأفقده هذا التصرف الكثير من التعاطف، لأن عملية اعتقال النساء بدت إجراءً غريباً ومستهجناً ونافراً، يستنفر مشاعر الطائفة الدرزية ويتناقض مع عاداتها وتقاليدها. وعمد أخصامه التقليديون إلى إذكاء النار وإلهاب المشاعر ضده، فقام شيخ العقل حسن طليع المناوئ لآل جنبلاط بزيارة سجن بيت الدين «مستنكراً علناً تصرفات فؤاد بك»، ما زاد في إحراجه ودفعه إلى تقديم استقالته[36] إلى الحاكم العسكري الفرنسي في الشوف. ولشدة تأثير هذه الحادثة عليه وثقل وطأتها، فإنه لم ينتظر الرد الرسمي على طلبه بالاستقالة، فعمد بتاريخ 5 آب 1921 إلى نقل حاجاته الشخصية من السرايا الحكومية إلى دار المختارة بواسطة عربة لنقل الحاجات، لأن سيارته كانت معطلة ويتم تصليحها في بيروت[37].

36. تشير **لسان الحال** بتاريخ 11 آب 1921 ان سبب الاستقالة يعود الى وجع في احدى عينيه. ومن المعروف أن الجريدة كانت فرنسية الهوى والميل، الأمر الذي يدلّ على ان السلطات الفرنسية لم تكن ترغب في أن تعطي الاستقالة أبعاداً سياسية ولا تريد أن يظهر استياء القائمقام واحتجاجه على ما حدث.
37. يراجع إيغور تيموفييف: م. س، ص 27 ود. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س ص 15.



غير أن الظروف لم تسعفه، فخلال المدة الزمنية القصيرة الفاصلة بين تقديم الاستقالة وانتظار قبولها وقعت عملية الاغتيال. فقد وصله خبر إقدام عصابة شكيب وهّاب على قتل مختار الزعرورية – المسيحي – في وادي عينبال[38].

وتُجمع الروايات، من حيث المبدأ، على القول إنّ حادثة الاغتيال كانت قضاء وقدراً ولعبت فيها المصادفات والأقدار دوراً كبيراً، باعتبار أن مجرياتها ودقائقها كان يمكن أن تمر من دون تدخل فؤاد جنبلاط المستقيل من وظيفته والمحرَج من شدة الإجراءات التي ساهم في تنفيذها لضبط الأمن.

فقد زادت «العصابات» عملياتها العسكرية ونوّعتها: إغارة على المراكز الحكومية الفرنسية، نصب كمائن للقوات الفرنسية، إثارة البلبلة في مناطق وجودها... بالتزامن مع تصاعد الأحداث في جبل الدروز في سورية. لذلك بدا قتل مختار الزعرورية مسألة محرجة لفؤاد جنبلاط، لما قد تساهم فيه عملية القتل المتعمد لرجل بريء لا علاقة له بالأحداث، من دور في تأجيج النار المذهبية الكامنة بين المسيحيين والدروز في الشوف. من هنا، أصرّ القائمقام «المستقيل» على التدخل، لما يتركه تدخله المباشر والشخصي من مساهمة في تطويق المضاعفات ومحاصرة نار الفتنة ومحاولة إخمادها، سواء لأهمية موقعه السياسي-التقليدي كزعيم درزي في الشوف، أو لموقعه كزعيم للأسرة الجنبلاطية، أو لموقعه الرسمي-الوظيفي في المنطقة.

غير أن مقتل المختار ( 6 آب 1921)[39] بدا وكأنه كمين مدبّر ضمن العمليات التي يقوم بها أفراد المقاومة السرية لاستدراج الضباط الفرنسيين

38. تشير **لسان الحال** بتاريخ 11 آب 1921 الى انه بعد خمسة أيامٍ على تقديمه الاستقالة وفي انتظار الجواب بقبولها، جاء خبر جريمة عينبال. يراجع ايضاً: إيغور تيموفييف: ص 28 ود. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... ص 51.
39. تذكر بعض المراجع منها (إيغور تيموفييف وخليل أحمد خليل: م. س) الى ان حادثة عينبال وقعت بتاريخ 6 آب 1921. غير ان العودة الى جرائد تلك المرحلة يرجح ان تكون الحادثة بتاريخ 30 تموز 1921.

والشيخ يوسف كسبار قائد سرية الدرك في المنطقة[40]، بعد أن أوغل هؤلاء في قمعهم للقرى الدرزية ومطاردة أفرادها والتنكيل بسكانها تحت ذرائع مساندتها للعصابات أو تعاطفها مع إخوانهم في جبل الدروز في سورية. وهذه المسألة لم يَعِها القائمقام أو ينتبه اليها. لذلك أصرّ على الذهاب إلى مكان الحادث ممتطياً حصان صديقه الدكتور خليل المصفي. وكان هذا الحصان أبيض وشديد الشبه بحصان يوسف كسبار الذي كان على رأس قائمة المطلوبين عند «العصابات الدرزية»، الأمر الذي جعل التعرف إلى فؤاد جنبلاط يبدو صعباً في لحظة التوتر والهيجان اللذين كانا سائدين.

ويركز البعض على التفاصيل التي ترافقت مع مسار الحدث، للتدليل على دور الأقدار في تحديد مصير فؤاد جنبلاط. فقد «حرن» الحصان الذي امتطاه في بعقلين، فتدخل الناس والأهالي المحيطون و«المحبون» ونصحوه بعدم متابعة طريقه[41]. لكنه أصر على المتابعة لما عرف عنه من نخوة وعناد وقسوة، من جهة، وحتى لا يُفسّر البعض تصرّفه تراجعاً، من جهة ثانية، ولما تفرضه الزعامة و«الفروسية» في مثل هذه المواقف من سلوكيات ومواقف على الشخص في مثل مركزه، من جهة ثالثة. لذلك انطلق في طريقه مُحملاً بكل هذه المشاعر ومحركاتها ليواجه مصيره. وتشير جريدة «الصفاء» في نقلها لخبر الاغتيال أن فؤاد جنبلاط تحرك باتجاه مكان الحادث بكل «ما في صدره من البسالة والحمية»، وأخذ معه سكرتيره الخاص وثمانية فرسان[42]،

40. تشير **لسان الحال** بتاريخ 3 آب 1921 الى ان القوة العسكرية الكبرى كانت بأمرة اليوزباشي فؤاد مغبغب ومساعده الضابط الشيخ يوسف كسبار. وتجدر الاشارة الى التعقيبات التي صدرت في جريدة «النهار» على كتاب القبور تؤكد ان الحادثة قضاء وقدراً وان المقصود الضابط كسبار.
41. للمزيد يراجع: إيغور تيموفييف: م. س، ص 38 ود. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص 51 وحسن امين البعيني: م. س، ص 148.
42. **الصفاء** بتاريخ 15 آب 1921.



بعد ان أرغم الحصان على السير مستخدماً السوط بقوة وقسوة معه. وعند وصوله إلى مكان الحادث، انهال عليه وعلى المجموعة العسكرية المرافقة وابل من الرصاص. فأصيب «برصاصة غادرة اخترقت جانبه الأيمن[43] بعد أن شطرت سلسلة ساعة الجيب السويسرية المذهبة[44]. فسقط ارضاً واصيب اثنان من الجنود[45]».

كانت إصابته مميتة، كما تؤكد صحيفة «الصفاء»، غير أنه تمكن من امتطاء جواده وإطلاق بضعة عيارات نارية باعتبار أنه ليس من شيم الفارس أن يسقط عن صهوة جواده، كما أوعز لرفيقه بأن لا يقول شيئاً عن اصابته لئلا يجبن الجند. وتم نقلهِ إلى عينبال، لكنه لم يكد يصل حتى «قضى شهيد الواجب والإخلاص والمروءة». فحضر الطبيب بسيارة الفقيد لكنه لم يلحقه حياً، فنقله إلى المختارة[46]. وفي الحال، خف متصرف اللواء والشيخ كسروان الخازن ومستشاره الإداري إلى محلّة الحادثة ومعهما فرقة من الجنود، وبوشر التحقيق وبُثت الجندرمة لتعقب الجناة[47].

تنقل «لسان الحال» عن صحيفة «الوطن» التي نشرت حديثاً دار بين أحد صاحبيها، شبلي بك الملاط، ومدير عاليه الشيخ رشيد امين الدين، حول مقتل فؤاد جنبلاط، أن رئيس العصابة كان شكيب وهّاب من غريفة وعدد أفرادها ستة عشر رجلاً بينهم اثنان من عرمون. وقد طاردتهم قوة من مئة فارس وراجل بقيادة ضابط فرنسي والشيخ كسبار. وقد رفع شيوخ الصلح في القرى التي

43. م. ن.
44. إيغور تيموفييف: م. س، ص 28.
45. **لسان الحال** بتاريخ ا آب 1921.
46. **الصفاء** بتاريخ 15 آب 1921. ويشير حسن يوسف: **مقابلة شخصية**، م. س الى ان خاله وأحد الافراد من سبلين كانا عائدين من المختارة وشاهدا جثة الفقيد وساعدا في نقلها الى بيت الدين ثم تم نقلها الى قصر المختارة.
47. **لسان الحال** تاريخ 1 آب 1921.

ينتسب اليها الأشقياء إلى رؤساء هذه القوة أسماء الأشخاص الذين كان رجال العصابة ينتمون اليها. وتوضح الصحيفة نقلا عن ناطور «قنافر» (والأصلح «قنافار») في البقاع، أنه شاهد نحو خمسة عشر شخصاً من العصابة على تلال القرية في جبل «عربة» في البقاع موقعاً لها[48].

## النعي والمآتم

كان لحادثة القتل وقعها المؤثر في الشوف وفي عموم دولة لبنان الكبير. فما كاد الخبر يُعرف حتى توافدت الناس إلى قصر المختارة للمشاركة والإعلان عن تضامنها واستنكارها. وبالرغم من تعيين ميعاد الدفن في اليوم الثالث، فإن الجماهير، كما تشير جريدة «الصفاء»، توافدت من صباح اليوم التالي إلى المختارة[49].

نعى الفقيد آل جنبلاط ونصّ برقية النعي، التي كانت مختصرة جداً، عمه نسيب جنبلاط، وركز فيها على أن فؤاد جنبلاط «قضى ضحية الواجب[50]». وفي اليوم المحدد تم له مأتم حاشد في المختارة[51] حضره عدد كبير من الشخصيات

48. **لسان الحال**، تاريخ 11 آب 1921.
49. **الصفاء** تاريخ 15 آب 1921 وأوردت رثاء للشهيد جاء فيه:
أفؤاد حسبك ان ذهبت شهيدا
في موقف لم تدحض عنه محيدا
فأديت فيه بمهجة لو لم تنسل
برصاصاتهم كادت تكون حديدا.
50. **لسان الحال**، تاريخ 1 آب 1921. وجاء في نص البرقية: من قلب دام ننعى اليكم وفاة فؤاد جنبلاط الذي اغتالته أمس يد أثيمة بينما كان يطارد الاشقياء فقضى ضحية الواجب. وقد قدمت الجريدة التعزية لعمه نسيب جنبلاط ولعموم آل جنبلاط الكرام.
51. **لسان الحال**، تاريخ 3 آب 1921. ويذكر د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م، س، هامش ص 52، الى انه بعد اغتيال فؤاد جنبلاط أصدرت الحكومة الفرنسية المنتدبة أمراً بوسام استحقاق عُلِّق على صدر ابنه كمال. وقدم أحمد تقي الدين قصيدة قال فيها: =



الرسمية، في مقدمها بعثة موفدة من قبل الجنرال غورو، مؤلفة من المندوب روبير دي كاي ومن قادة الجيش الفرنسي ودولة الحاكم العام ترابو، وناب القومندان بولس وموظف كبير في القومسيرية عن الجنرال غورو شخصياً. إضافة إلى شيخي العقل (طليع وحمادة) وداود بك عمون، رئيس اللجنة الإدارية، وأوغست باشا أديب، المستشار العام للبنان الكبير، وشارل بك دباس، مدير العدلية ومستشار السنجق، وشفيق بك الحلبي، مدير المعارف، والمتصرف كسروان بك الخازن، إلى جانب أعداد غفيرة من أبناء الشوف والقرى المجاورة ومن مناطق لبنان الكبير[52].

ألقى القومندان ترابو بالأصالة عن نفسه وباسم الحكومة الفرنسية وباسم لبنان الكبير وبالنيابة عن الجنرال غورو خطاباً تأبينياً اعتبر فيه أن الفقيد قضى ضحية الواجب والشرف. وذكر في كلمته أن «الفقيد زاره منذ ثلاثة أيام، فتحادثا ملياً واتفقا على تمتين روابط الصداقة بيننا وبين أسرته المحترمة وبين كل الدروز». وأبدى «استعداد الحكومة الفرنسية للاقتصاص من أولئك الأشقياء». وصرح بأنه سيعاقب بأشد العقاب هؤلاء الجناة وسيبذل جهده في هذا السبيل.

كما ألقى عدداً كبيراً من المشاركين كلمات تأبينية بالفقيد. ولكن لضيق الوقت وكثرة الكلمات، فإنه لم يتسع المجال لغير الأسماء الآتية: أمين بك خضر،

= وبيتٍ رفيع وقفنا بظله
ومن حِولهِ جَمعٌ يقوم ويَقعُدُ
به شِبلٌ وفيه لبوءة لها
كلُّ أهل الفضل بالفضل يشهد
ولاح وسامُ الطفل بالصدر فرقاً
كما أن هذا البيت بالشوف نرفد
فما أبلغَ الملاَّط في صدرِ ببيته
«على مفرقِ الشوفين بيتٌ مُوَطدُ».

52. يراجع: **الصفاء** تاريخ 15 آب 1921 ولسان الحال تاريخ 3 آب 1921.

محمود بك تقي الدين، الشيخ أحمد تقي الدين، سليم أفندي عطية، الخوري نقولا أيو، مندوب دير المخلص، الشيخ سعيد أبو حمزة، الشيخ سليم حمدان، الشيخ خليل علم الدين، بدري بك طليع، سليم بك زين الدين، سعيد أفندي ملحم ابراهيم، زيدان أفندي ظاهر زيدان، فؤاد أفندي أبو غانم، واختتم المأتم بكلمات مؤثرة لرشيد بك جنبلاط «يودع الراحل الشهيد»[53].

وبعد مرور سنة على الحادثة، أقيمت في المختارة الذكرى السنوية لغياب فؤاد جنبلاط. وقد بعث مراسل جريدة «الصفاء» في الشوف برسالة تضمنت وصفاً «للحفلة التذكارية التي أقيمت في المختارة»، يبين فيها أن ساحة القصر الجنبلاطي غصت بالوفود، وعلت أصوات النشادين تستذرف الدموع وتزكي نار الأسى. كما يشير إلى أن الجماهير اجتمعت عند الضريح، فتلا حضرة شاهين بك جرجس مرثاة مؤثرة، وعقبه د. خليل أفندي المصفي ويوسف بك لطيف بلسان جمعية المختارة، ثم المعلم يوسف العشي والمعلم نعوم قربان والمعلم نجيب العشي، وفي الختام تكلم الشيخ رشيد أمين الدين، مدير الشوفين، شاكراً للمؤبنين وللجمهور «بلسان حضرة السيدة المصون أرملة الفقيد»[54].

إن ما يمكن ملاحظته هو أن المأتم عبّر عن تعاطف شعبي كبير وتضامن رسمي واضح مع آل جنبلاط. بل كان تظاهرة سياسية بامتياز تعكس موقع فؤاد بك في وسطه الاجتماعي والسياسي وتدلّ على فجاعة الحدث. غير أن اللافت هو أن الذكرى السنوية للفقيد، التي لم تتكرر لاحقاً، جاءت معبرة عن الارتباك الحاصل في صفوف العائلة. ففي حين كان المأتم حاشداً وجامعاً، فإن الذكرى السنوية أظهرت بشكل أو بآخر، مستوى الخلافات وطبيعتها. فرموز

53. يراجع: **لسان الحال**، تاريخ 5 آب 1921.
- **الصفاء**، تاريخ 15 آب 1921.
- **الصفاء**، تاريخ 12 آب 1921.

54. **الصفاء**، تاريخ 18 آب 1922.



العائلة لم يرد ذكرهم من قريب ولا من بعيد واثار غيابهم التساؤلات وحمل دلالاته السياسية العائلية. والأهم من ذلك ان الكلمة ألقيت باسم «ارملة الفقيد»، وكانت المرة الأولى التي يرد فيها ذكر اسم نظيرة جنبلاط علناً وفي مناسبة «خاصة» تستقطب حضوراً سياسياً واجتماعياً ورسمياً، الأمر الذي يبين أن موضوع خلافة فؤاد جنبلاط بدأت باكراً جداً، وأن مسألة الزعامة لم تكن حُسمت بعد. بمعنى آخر، لم يتم التسليم من قبل نظيرة جنبلاط بالزعيم الذي فُرض على العائلة، وبالتالي فإن مسألة الزعامة لم تزل ساحة للصراع الداخلي.

## نتائج مباشرة

لم تكن حادثة الاغتيال مسألة يمكن حصر نتائجها بسرعة وسهولة، سواء على المستوى الخاص بالعائلة الجنبلاطية، أو على المستوى السياسي العام المتعلق بالطائفة الدرزية وعلاقاتها الداخلية. لهذا يمكن حصر أهم النتائج بأمرين على الأقل: الأول يتعلق بالأبعاد السياسية للحادث. إذ كاد مقتله يتحول إلى «قميص عثمان» لإحداث شرخ داخل الطائفة الدرزية. والثاني يتعلق بتحديد الزعيم لوراثته، باعتبار أن غيابه ترك ارتباكاً واضحاً داخل العائلة الجنبلاطية. فالخلافات بين البالغين واضحة والوريث قاصر لا يتجاوز الرابعة من عمره.

لهذا يعتبر خليل أحمد خليل أن «الحدث الأبرز داخل الأسرة الجنبلاطية في الربع الأول من القرن العشرين، هو اغتيال فؤاد جنبلاط مدير الشوف». لأن الحدث لم يكن مأسوياً بالنسبة إلى أسرته وحسب، بل ستكون له انعكاساته السياسية على مستقبل الزعامة الجنبلاطية في الجبل، وربما ايضاً على سلوك كمال جنبلاط ودوره في السياسة اللبنانية في مرحلة ما بعد الانتداب[55].

55. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص 53، ويعتبر اسكندر الرياشي: قبل وبعد 1918 الى 1941 الى ان اغتيال فؤاد جنبلاط هو اول اغتيال سياسي. ص 96.

في الأمر الأول المتعلق بإحداث الشرخ، يلاحظ أن السلطات الفرنسية سعت جاهدة لاستغلال الحادث إلى أقصى الحدود، وحاولت الاستفادة منه لتطويق حركة المعارضة الوطنية الملتهبة ضد الانتداب. ووفّر لها مقتل فؤاد جنبلاط مسوغات لإحداث المزيد من الشرذمة في الصف الدرزي عموماً، وأمّن معطيات عملانية لمواجهة المد السياسي المعارض لوجودها في الطائفة وسياستها في لبنان والمنطقة، فحاولت تقليص عمل المجموعات العسكرية – «العصابات» ضد مراكزها ومواقعها، لا سيّما وأن العديد من دروز الشوف كانوا فاعلين في مقاومة الفرنسيين وملتزمين خيار الحكومة العربية في دمشق عبر العمليات العسكرية أو عبر الالتحاق بالجيش العربي[56].

لذلك عمد الفرنسيون إلى مجموعة من التدابير التعسفية لمعرفة الجناة وملاحقتهم. فأحدثت باجراءاتها البلبلة في القرى وافتعلت الحوادث بين العائلات الدرزية من خلال تهييج بعضهم على بعض، أو من خلال اللعب على وتر الانقسام التقليدي في المتحد الدرزي – الجنبلاطي – اليزبكي-. فقامت السلطات بزيادة الإجراءات القمعية في حق القرى التي حصل بقربها حادث الاغتيال، وهي غريفة عينبال وعترين، معتمدة على المبدأ القائل: اخذ الكل بجريرة المخالفين أو المتهمين. فتحملت القرى المحيطة بمكان الحادث مسؤولية ما جرى في خراجها، خصوصاً أن بعض المتهمين كانوا من أبنائها[57].

كما قامت القوات الفرنسية بإحراق البيوت وفرض الغرامات المالية وسجن العديد من السكان، بحيث بلغ عدد المعتقلين حوالى سبعين رجلاً

56. شكل بعض الشوفيين عصابات مسلحة مثل: شكيب وهاب، فندي بو ياغي، حسن ثابت، سعيد ملاعب وسعيد محمود. وكانت هذه الجماعات على تواصل مع غيرها من العصابات في بلاد الشام ضد القوات الفرنسية.
57. حسن أمين البعيني: م. س، ص 148.



وثلاث عشرة امرأة[58]، الأمر الذي زاد التوتر داخل هذه القرى. فقابل الأهالي حاكم لبنان وطلبوا إعفاءهم من الغرامات المالية. ورفعوا إليه كتاباً مفتوحاً بهذا الخصوص يتظلمون من شدة الإجراءات المتخذة بحقهم. كما عمد أهالي غريفة وعينبال إلى التظاهر في بعقلين احتجاجاً على هذه التدابير، مما زاد عدد المعتقلين[59]. وتدخّل شيخا عقل الطائفة الدرزية مع الحاكم ترابو لإزالة الغبن اللاحق بأبنائهم[60].

غير أن السياسة الفرنسية فشلت من حيث المبدأ، في ما قصدت إليه، لأن الجميع عرفوا الحادث على حقيقته من جهة، ولأن آل جنبلاط من جهة أخرى، وبشكل خاص، كانوا أول مَن تفهّموه وعرفوا المخطط الفرنسي ومراميه. لذلك سعوا لمنع استغلال الحادث واحتجوا على التدابير الانتقامية التي اتخذها الفرنسيون وعملوا على وقفها[61]. فقد رفضت زوجة الفقيد ما أمر به الحاكم الفرنسي كاستيلار في الشوف باستيفاء غرامة نقدية من قريتَيْ غريفة وعينبال وتقديم مبلغ كبير بالليرات العثمانية إليها. وامتنعت عن تسلم النقود التي جمعها الفرنسيون من الأهالي، وأعلنت عن تخصيص مكافأة شخصية من مالها الخاص لمن يقبض على القاتل، معبرة بهذا الموقف عن بُعد نظر ورصافة في التعامل مع الحدث المفجع، وسعياً جدياً لضبط تداعياته، وبالتالي الحد من إثارة الانقسامات ومحاولات استغلاله.

أما في الأمر الثاني المتعلق بتحديد الوريث، فإن الارتباك الذي ولّده مقتل فؤاد جنبلاط سرعان ما تم تداركه من خلال تصدر ارملة الفقيد نظيرة جنبلاط

58. تشير **لسان الحال** تاريخ 12 آب 1921 الى ان الحكومة الفرنسية أرسلت النساء الى «جديدة» قضاء المتن وستقوم لاحقا بارسال جميع الرجال الموقوفين.
59. يراجع: **الصفاء** بتاريخ 16 أيلول و30 ايلول 1921.
60. يراجع: **لسان الحال**، تاريخ 12 آب و6 تشرين الاول 1921.
– **الصفاء**، تاريخ 28 تشرين الاول 1921.
61. حسن امين البعيني: م. س، ص 149.

- التي ستعرف باسم الست نظيرة - كرسي الزعامة والغرضية الجنبلاطية بعد تنافس داخل البيت الجنبلاطي على الزعامة. وكان تصدر نظيرة جنبلاط سابقة غير معهودة في تاريخ العائلة كما في التاريخ السياسي للطائفة الدرزية، وحتى في التجربة السياسية اللبنانية، إلى حد بعيد، الأمر الذي يجعل متابعة زعامتها أمراً على قدر كبير من الأهمية.

## الفصل الثالث

■

# تأنيث الزعامة

إن توريث الزعامة في البيوتات السياسية مسألة بديهية وطبيعية في الاجتماع السياسي اللبناني.

غير أن المثير للجدل والنقاش هنا، اذا لم نقل الاستغراب، يكمن في الشخص الذي انتقلت اليه الزعامة، وليس في توريثها.

من هنا يمكن القول ان الدور الذي لعبته الست نظيرة جنبلاط منذ اغتيال زوجها (1921) ولغاية وفاتها (1951) على قدر كبير من الأهمية والخطورة، فهو كان مميزاً وريادياً، لأنها استطاعت من موقعها كامرأة أن تخترق حواجز التقليد في حينه وتتجاوز أعرافه.

ولا نبالغ في هذا التوصيف لأن موقع الزعامة والتوريث السياسي كان مقتصراً على الرجال وحكراً عليهم أولاً وأخيراً، سواء على مستوى العائلة أو على مستوى البيئة المجتمعية.

إن موقع الزعامة في الأسرة الجنبلاطية ارتبط بالقوة والشجاعة ولم يكن خارج قيم المجتمع الذكوري وأعرافه، وهو شهد عبر تاريخ العائلة الطويل، الصدامات والصراعات العسكرية، ما جعل الدور السياسي لصيقاً بالقتال وبطولات المحاربين. لهذا كان زعماؤها رجالاً أقوياء باستمرار، ليكونوا قادرين على مواجهة الأحداث ومواكبتها بكل ما تفرضه هذه المواجهة من

شدة وبأس. ولعل معنى كلمة جنبلاط – جنبولاد (روح الفولاذ) – بحد ذاته خير معبّر عن هذه المسألة وكاشف لها، الأمر الذي جعل المرأة في مرتبة دون الزعامة بكثير، وموقعها محصوراً جداً ومُسوراً بحدود الأعراف والتقاليد.

كما إن تصدر امرأة كرسي الزعامة في بيئة مجتمعية تتسم بطابعها المحافظ وفي مجتمع تسوده العلاقات التقليدية وعصبياته العائلية والعشائرية وتتحكم فيه الصراعات الطائفية والمذهبية وتسيطر عليه العقلية البطريركية[1] وسلوكياتها وعلاقاتها وانماطها الفكرية والذهنية وتهيمن عليه القيم المتأخرة تجاه المرأة ودورها، يبدو أمراً لافتاً للنظر وجديراً بالانتباه والملاحظة.

في ظل هذا الفضاء الثقافي والسياسي والاجتماعي تكمن «فرادة» تجربة نظيرة جنبلاط وخاصية الدور السياسي الذي لعبته. فكيف استطاعت هذه المرأة أن تخترق السائد وتتجاوز المألوف؟ وما هي العوامل التي ساهمت في تكريس زعامتها؟

## الهوية الشخصية

عندما أصيب فؤاد بك، لمس صدره بحذر فأدرك أن الواقعة وقعت وأن قواه تخور، فهمس إلى مدير الشرطة المختبئ وراء الصخرة المجاورة: بلّغ نظيرة أن تحافظ على الأولاد. وكانت تلك آخر عبارة تفوّه بها[2].

1. لمزيد من المعطيات حول خاصية المجتمع البطريركي، يراجع على سبيل المثال:
– د. هشام شرابي: **النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي**، بيروت، الطبعة الثانية، 1993، مركز دراسات الوحدة العربية، أو الطبعة الرابعة، بيروت 2000 عن دار نلسن.
2. إيغور تيموفييف: م.س، ص 28.



قبل هذه الحادثة كانت نظيرة جنبلاط كأي امرأة متزوجة في مجتمعنا، ينحصر دورها في نطاق البيت الزوجي، تدير شؤونه ولا تتعداه. لأن الرجل هو السيد والأساس، والمرأة تقبع في الظل لا دور لها ولا موقع، إلاّ ما رسمته الأعراف وحددته التقاليد. لكن بعد هذا الحدث المؤلم غدت نظيرة زعيمة المختارة وسيدة قومها وزعيمة الغرضية الجنبلاطية وأحد الأقطاب السياسية على مستوى الوطن الناشئ.

لعبت «الأقدار»، إذا جاز التعبير، دورها لتكون زوجة فؤاد جنبلاط (1915)، لتصبح من ثم الأمينة على مصير الزعامة الجنبلاطية والمحافظة على استمراريتها. فقامت بتنفيذ وصية الزوج في «المحافظة على الأولاد»، خصوصاً وأن الأولاد (كمال وليندا) كانا في مرحلة الطفولة المبكرة ويحتاجان إلى الكثير من الرعاية والاهتمام لإعدادهما للحياة وتأمين مستقبلهما. فكمال لم يتجاوز سنواته الأربع، وليندا في مرحلة الحضانة. وهذه مسؤولية كبيرة وخطيرة في الوقت نفسه. كبيرة لأن فقدان الوالد – الأب بهذه الطريقة المأسوية يترك آثاره التربوية والنفسية على الأبناء غير البالغين، وحالة الترمل تجعل المرأة وحيدة وأكثر ضعفاً. وخطيرة ايضاً لأن مكانة الأولاد وموقعهم الاجتماعي ليسا عاديين في وسطهم المجتمعي. لهذا، فإن «المحافظة على الأولاد» تحمل في مضمونها الكثير من الدلالات، سواء المتعلقة منها بعاطفة الأبوة، أو المتعلقة بالزعامة وتأمين ديمومتها، وفي الحالتين فإن المسألة على قدر كبير من المسؤولية والتعقيد.

نظيرة هي ابنة فارس بن حمود بن كليب بن فارس جنبلاط من عين قني – الشوف. والدتها فريدة ابنة الشيخ سعيد جنبلاط. ولدت في بلدة عين قني، قضاء الشوف (1890) ولم تدخل المدرسة لأن التقاليد في حينه كانت تحول دون ذلك. ربّتْها جدتها (لوالدتها) بدر أمان الدين ونشأت في المختارة، إلى أن اقترنت بنسيبها فؤاد بك جنبلاط، ولها من العمر

حوالى الخمس والعشرين سنة، وكان من ثمرة هذا الزواج ولدان: كمال (1917–1977) وليندا (1919–1976)[3].

إن التحول الجذري في دور نظيرة جنبلاط وشخصيتها يثير التساؤل حول أسبابه والعوامل التي ساهمت في إنضاجه وتحقيق أحداثه. غير أن هذا التحول يؤشر في حقيقته الى مدى الظلم الاجتماعي الواقع على المرأة في مجتمعنا، والنظرة المشوهة عنها، ويدل على شدة الإجحاف بحقها والقمع المفروض مجتمعياً عليها، فيحول دون مشاركتها في إدارة المجتمع وتطويره وتحقيق تنميته. فالمجتمع البطريركي يجهد لتدمير الإمكانات المخبوءة في المرأة مستخدماً شتى الطرق ومختلف الوسائل، الأمر الذي يعزز دونيتها ويقتل طاقاتها ويمنع انطلاقتها.

من هنا تبدو نظيرة جنبلاط نموذجاً من النماذج النسائية التي تؤكد على قدرات المرأة وضرورة أخذ دورها في المجتمع، وعلى كفاءتها في تحمل المسؤولية والمشاركة في صنع القرار كإنسان له كامل الحقوق وعليه كامل الواجبات التي يفرضها المجتمع. فالتجربة هنا تبين أن الأزمة تكمن في العقلية المجتمعية

---

3. لمزيد عن هويتها الشخصية، يراجع:
- إيغور تيموفييف: م. ن، ص 15.
- د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 49.
- محمد خليل الباشا: **معجم أعلام الدروز**، مجلد 1، م. س، ص 405–406.
- ناديا الجردي نويهض: **نساء من بلادي**، بيروت، 1986، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 74–76.
- **الواقع الدرزي وحتمية التطور**: م. س، ص 135–136.
- عدنان الشهال: **الزعيمة والقاضي، رسائل نظيرة جنبلاط والقاضي جميل الشهال**، بيروت، الطبعة الأولى، تموز 2002، دار رياض الريس، ص 131–132.
- **حريات** (مجلة): العدد 10–2–1988، بيروت، تصدر عن مؤسسة رينه معوض.
كما يشير مالك بك جنبلاط: مقابلة شخصية، الثلاثاء 2 أيلول 2003، البرامية، صيدا، إلى أن للست نظيرة من أبيها أخ وحيد وهو الشيخ شريف وأخت وحيدة هي الست شفيقة. كما كان لها أشقاء من والدتها هم: سعيد بك جنبلاط (طبيب في أمراض الرأس) وكامل بك جنبلاط (والد مالك بك) وبهية جنبلاط.



والذهنية السائدة وليس في المرأة كإنسان. انطلاقاً من هذه المقاربة، ما هي العوامل التي جعلت نظيرة جنبلاط سيدة قومها وزعيمة العائلة الجنبلاطية؟

## خيارات معقدة

لم يكن أمام نظيرة جنبلاط بعد اغتيال زوجها سوى خيارين لا ثالث لهما. الأول: البقاء على هامش الحياة من خلال الانكفاء كأي أرملة في مجتمعنا، أو من خلال الزواج مرة أخرى، كما يحدث في مثل هذه الحالات. وفي الحالتين، تبقى أسيرة القصر–البيت وحبيسة قسم الحريم فيه تعيش في الظل، بحيث يوفر لها تراث العائلة وعراقة النسب نوعاً من المكانة والتقدير التقليديين من دون أن تضيف شيئاً أو تشارك في مجرى الأحداث المجتمعية. والثاني: أن تتقدم لتتصدر مركز الزعامة وتتولى «قيادته»، وتقوم بمسؤوليته وتتحمل تبعاته. وأمام هذين الخيارين، اختارت الاحتمال الثاني. غير أن هذا الاختيار كانت دونه الكثير من الصعوبات والعراقيل. ولم يأتِ بالسهل الهين أو يُقدم لها على «طبق من فضة». بل إن المغامرة تتطلب الكثير من التحدي والتصدي والجرأة للنجاح في هذه المهمة المعقدة.

ومن المفيد الإشارة إلى أن خلافة فؤاد بك كان لها وجهان، من حيث المبدأ، بمعنى خلافته في منصب القائمقام من جهة، وخلافته التقليدية في زعامة قصر المختارة والغرضية الجنبلاطية من جهة أخرى. وبين الموقعين فروقات في الجوهر، وإن كانا في بعض الأحيان وجهين لعملة واحدة.

إن المنصب الإداري (القائمقام) مهم جداً. ويوفر كمركز وظيفي نوعاً من الإقرار «الرسمي–الحكومي» بالزعامة. كما يضمن لصاحبه ما يساعده على تكريس هذه الزعامة وتعزيز وجاهته وتقوية نفوذه. والانتداب الفرنسي اعتمد في سياسته على تدعيم زعامة البيوتات التقليدية من خلال المراكز الوظيفية التي أسندها إلى أبناء هذه البيوتات، فتكرس ما كان سائداً في مرحلة السلطة العثمانية

من علاقات إقطاعية وبنية تقليدية. غير أن الموقع الوظيفي، رغم أهميته، يبقى أضيق من حدود الموقع الآخر (التقليدي)، خصوصاً عندما يكون استمراراً لامتداد تاريخي في مجتمع محافظ في عاداته وتقاليده وسلوكياته ومغلقاً في انتماءاته، فيكسب الزعيم مكانته – زعامته – مستنداً إلى عصبية عائلية ذات بأس وسطوة. لا بل تغدو هذه المكانة الاجتماعية نوعاً من الموروث الذي تتناقله الأجيال، فيتوارث الأبناء عن الآباء الولاء لهذا الزعيم جيلاً بعد جيل فتتكرس، ما يمكن تسميتها مجازاً، بالطاعة الموروثة، وتصبح الزعامة في هذه الحالة كمعطى «ثابت»، الأمر الذي يرسخ سلطة الزعيم من دون مناقشة أو محاسبة.

هذه الوضعية المجتمعية مثلها الزعماء التقليديون-الإقطاعيون في المتحد الدرزي، كما في غيره من البيوتات السياسية في لبنان، بشكل عام، وأقطاب الغرضية الجنبلاطية-الإرسلانية بشكل خاص. لذلك فإن موقع سيد المختارة – زعيم الغرضية الجنبلاطية – أقوى نفوذاً وأعمق تأثيراً، من حيث المبدأ، من موقع الموظف الإداري. وكلما كان الزعيم محنكاً وذا شخصية قوية، استطاع أن يكون فوق المراكز الوظيفية – الإدارية. باعتباره المرجعَ الأول ومصدرَ «السلطة» ومُشرعنها، إذا جاز التعبير.

من هنا يُنسب إلى الشيخ بشارة الخوري (1890–1964)، أول رئيس جمهورية للبنان المستقل (1943–1952) أنه قال لنظيرة جنبلاط «فخامتي ستزول بانتهاء مدة الرئاسة، وأما سعادتك فستبقى أبد الدهر»[4]. إن هذه الاشارة من الرئيس الخوري تبين في شكل مباشر مدى تجذّر الزعامة التقليدية وعراقتها في المجتمع، كما تبين بطريقة غير مباشرة أهمية أن يكون على رأس هذه الزعامة امرأة بالتحديد في مجتمع ذكوري تقليدي. فإذا كان موقع زعامة تقليدية سيبقى «أبد الدهر» فكيف يمكن أن تكون عليه وضعية الزعامة في حال وجود

4. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س. ص 52.



امرأة على رأسها؟ هذه الملاحظة تُظهر، إلى حد بعيد، مستوى التعقيد في مسار خلافة نظيرة جنبلاط لزوجها في كرسي الزعامة الجنبلاطية من جهة، وتدلّ من جهة أخرى على الصعوبات التي واجهتها والعقبات التي اعترضتها، سواء على مستوى العائلة أو على مستوى الطائفة – المتحد الدرزي.

على مستوى العائلة، فإن الصراع على كرسي الزعامة داخل الأسرة الجنبلاطية كان واضحاً للعيان، فالزعامة موزعة بين المختارة (ورثة فؤاد) والبرامية (نسيب وبيروت (علي وحكمت). وإذا كان قصر المختارة هو الأقوى بين هذه المراكز باعتباره «حجر الغلق»، لما يمثله تاريخياً وما يرمز اليه من معانٍ ودلالات في الذاكرة الشعبية داخل الطائفة أو داخل العائلة ذاتها، الأمر الذي يعطي سيده مركز الصدارة و«شرعية» الزعامة؛ غير أن سيدة القصر – نظيرة جنبلاط – في تلك اللحظة التاريخية هي «الأضعف» بين الآخرين، كون القصر فَقَدَ زعيمه والوريث الطبيعي (كمال جنبلاط) ما زال طفلاً.

أما على مستوى الطائفة الدرزية، فإن التنافس بين الغرضيتين التقليديتين الجنبلاطية والإرسلانية كان على أشده على قاعدة أحقية التمثيل، سواء لجهة المرجعية العامة – الزعامة الدرزية، أو لجهة تولي المراكز الإدارية والوظائف الرسمية من نيابة وقائمقامية ومديرين وموظفين في السلك الحكومي على اختلاف الأنواع والمستويات.

في ظل هذه المناخات، اختارت نظيرة جنبلاط التقدم لتصدر كرسي الزعامة على صعيد العائلة وغرضيتها، كما على الصعيد المجتمعي العام. فما هي أهم العوامل التي ساعدتها على حسم خياراتها؟ وما هي الظروف التي شجعتها على الإقدام وعدم التراجع؟ يمكن في هذا الإطار الإشارة إلى عوامل ثلاثة: الأول مرتبط بالبيت الجنبلاطي ويتمثل في تراجع المنافسين، والثاني عوامل موضوعية تتمثل في الظروف السياسية المؤاتية، من جهة، وحاجة الغرضية إلى زعيم، من جهة ثانية، والثالث عوامل ذاتية تتمثل في شخصية نظيرة جنبلاط بحد ذاتها.

## تراجع المنافسين

طُرحت مسألة الخلافة مباشرة بعد أن ووري جثمان فؤاد جنبلاط التراب[5]. لكن المسألة بدت في المرحلة الأولى وكأنها تأخذ مسارها الطبيعي وتسير، إلى حد بعيد، بحسب الأصول والأعراف المتبعة في مثل هذه الحالات، سواء على المستوى الوظيفي أو على المستوى العائلي.

على المستوى الوظيفي، تم تعيين علي جنبلاط، أخ فؤاد بك، قائمقاماً. ويبدو أن علياً تقبّل الوظيفة على مضض، وبعد تدخلات من صديقه المندوب السامي غورو وإلحاحٍ من عمه نسيب باشا. أما على المستوى العائلي، فقد انتقلت الزعامة إلى نسيب جنبلاط (البرامية)، كونه الأكبر في العائلة وله تاريخه المشهود. في هذه اللحظة التاريخية بدت الأمور وكأنها منسجمة مع المألوف ومتطابقة مع السائد، لا سيما وأن نسيب وعلياً كانا متعاونين وغير متنافسين أو متخاصمين.

غير أن حل المسألة في الشكل لم يكن معبراً عن حقيقة المسائل وجوهرها، فبقيت الأمور تتفاعل في الداخل، والأزمة تتفاقم في الخفاء، والمشكلة تتضخم بشكل أو بآخر، ولم تستقر على حل نهائي يتقبله الجميع ويرتضونه. من هنا، رضخت نظيرة جنبلاط لما جرى وقبلته بشكل موقت، لأنه لم يكن أمامها غير «الرضوخ» والتسليم، خصوصاً أن كره نسيب جنبلاط السابق لابن أخيه (فؤاد) تحوّل إلى أرملته نظيرة[6]، الأمر الذي زاد المسالة تعقيداً، وأسقط من يدها وسائل

5. إيغور تيموفييف: م. س، ص 30.
6. إيغور تيموفييف: م. س. ويشير فؤاد ميلاد رزق الله: **مقابلة شخصية** (9 آب 2003)، بولونيا، المتن، والذي استقى معطياته عن الست نظيرة من والدته بالدرجة الأولى التي كانت على تواصل معها، لأن والده كان في بداية الأربعينات قائمقاماً في عاليه، وقبلها عُين في مناطق أخرى من الجبل. إضافة إلى أن خاليه سركيس ووديع الدويهي كانا ضابطين في الجيش الفرنسي في مركز بيت الدين، وكانا يذكران الست نظيرة بالخير ويقدران زعامتها، يذكر فؤاد أن الست نظيرة كانت تخشى نسيب باشا وتخاف على نفسها من أن تصل حدة كرهه لها إلى مرحلة القتل.



الدفاع الأولية بعد أن أصبحت وحيدة ومُستفردة في مواجهة الآخرين.

هذه الوضعية «المفروضة» لم تعمر طويلاً، ولعبت ما يمكن أن نسميها «الصدف» دورها، فتحركت الرياح في «أشرعتها» وساهمت في تغيير الأوضاع وتحويل الظروف لمصلحتها. ويمكن، في هذا المجال، رصد ثلاثة أمور: الأمر الأول فرضته السياسة، والأمر الثاني فرضه القَدَر، والأمر الثالث فرضته الطبيعة الخاصة والتكوين الذاتي للشخص.

– الأمر الأول تمثل في أزمة الثقة بين الفرنسيين ونسيب جنبلاط، اذ كانت السلطات الفرنسية لا تثق بنسيب باشا، ويتوجس الفرنسيون خشية من علاقاته السابقة مع الانكليز، وبالتالي لا يركنون إلى أهدافه السياسية وميوله في الشأن العام. وتبدو أزمة الثقة قديمة وتعود إلى مرحلة سابقة[7]، لذلك استُبعد من وظيفة القائمقام مرة أخرى.

المرة الأولى في العام 1919 عند تعيين ابن أخيه فؤاد في القائمقامية، والمرة الثانية عام 1921 بعد اغتيال القائمقام فؤاد بك ابن أخيه، بحيث عمدوا إلى تعيين علي جنبلاط في المنصب الإداري. وفي المرتين – الحالتين كانوا ينظرون إليه كـ«معارض» سياسي وليس كصديق. وانساق الموقف الفرنسي من نسيب باشا الى زعامته للأسرة الجنبلاطية وغرضيتها. لذلك، فإن عملية التغييب والمحاصرة التي اعتمدها الفرنسيون تجاهه أضعفته بشكل أو بآخر، وشرّعت نوافذ البحث عن بديل له لا يرهقهم أو يثير في وجههم المشاكل أو يزيد همومهم الأمنية واضطرابهم السياسي في الكيان الناشئ أو في المنطقة. ويبدو أن التاريخ يعيد نفسه مع نسيب باشا، ففي مرحلة الحكم العثماني كانت علاقته بالإنكليز سبباً لإبعاده، وفي مرحلة الانتداب الفرنسي بقي هاجس هذه العلاقة مقلقاً للفرنسيين فعمدوا إلى إقصائه وعدم الارتياح لتصدره الزعامة الجنبلاطية.

7. يراجع الفصل الثاني.

– الأمر الثاني تمثل في ما حددته الأقدار وفرضته، فكان لموت نسيب باشا أثره المباشر على مركز الزعامة. فهو توفي يوم السبت بتاريخ 10 تشرين الثاني 1922 عن عمر يناهز السبعين عاماً[8]، أي بعد حوالى السنة على وفاة زعيم المختارة (فؤاد)، الأمر الذي أعاد طرح مسألة الخلافة مجدداً، كونه الزعيم الطبيعي للعائلة.

وبوفاته غاب المنافس الأبرز و«الرافض» الأبرز وهمدت حدة العداوة التي كانت ملتهبة بوجه الست نظيرة، وخفّت، إلى حد بعيد، العراقيل التي تمنع حضورها. ما ساهم في إبقاء اسمها حاضراً رغم طبيعة المجتمع البطريركي وقسوة علاقاته وثقل أعرافه ورسوخ تقاليده. وقد يعود سبب هذا الحضور في جزئه الأكبر إلى أنها تحتضن الوريث الشرعي للزعامة وترعاه وتقوم بتربيته وإعداده، فبقيت الأنظار شاخصة نحوها ومتعاطفة معها لأنها الأمينة على «الوديعة» وعلى موقع الزعامة في العائلة.

– الأمر الثالث تمثّل في الطبيعة الخاصة والتكوين الذاتي للشخص. فقد انتقلت الزعامة بعد وفاة نسيب باشا إلى علي جنبلاط، فتطابق للحظة المركز التقليدي مع المركز الوظيفي، كما كانت عليه الأوضاع في مرحلة فؤاد بك.

بعد استلام علي منصب القائمقامية انتقل من بيروت إلى قصر المختارة[9]، فأحسنت نظيرة معاملته «صورياً»، كما يقول إيغور تيموفييف. لكن شخصية

8. **الصفاء**، تاريخ 17 تشرين الثاني 1922.
9. إيغور تيموفييف: م. س، ص 30. ومن الضروري الإشارة إلى أن بلدة المختارة وقصرها الذي عُرف بإسم «دار المختارة» حظيا باهمية خاصة بعد استقرار العائلة الجنبلاطية فيها واتخاذها مركزاً للزعامة. وقد قدمت جريدة **الصفاء** تاريخ 7 نيسان 1922 توصيفاً ديموغرافياً منها على النحو التالي:
بلغ عدد سكانها (1922) 384 نسمة منهم 184 درزياً، 10 سُنّة، 72 موارنة، 13 كاثوليكاً و3 بروتستنتاً. وعدد المكلفين 113 والمتعلمين 150 وغير المتعلمين 234 والمهاجرون 224. وعدد البيوت 77 بيتاً وفيها معبد وكنيستان ومدرسة و6 مفالق.



الزعيم الجديد وطبيعة مزاجه ونمط تفكيره وأسلوب حياته حالت دون استمراره في المركز الذي قذفته إليه الإقدار رغماً عن إرادته وفرضته الظروف كلها دون أن يسعى إليه ويعمل له.

ويبدو أن تساهل نظيرة في الشكل لم يُخفِ «تسلطها» في الجوهر. وهذا ما جعل الزعيم الجديد يدرك وعن يقين وخبرة، بأنه ليس «صاحب المختارة الحقيقي» أو زعيمها الأوحد في أقل تقدير، لاسيما وانها (نظيرة) كانت استقرت في القصر وتعزز موقعها في قسم الحريم بعد أن أنجبت ولداً ذكراً، مما ساعدها على أن تفرض وجودها في أيام «الست الكبيرة» بدر أمين الدين والدة زوجها[10]، قبل مجيء علي بك ليستقر في القصر. فغدت على معرفة أكثر منه بخفايا القصر وعلاقته بوسطه الاجتماعي والسياسي العام.

من هنا، جرت محاولة لتزويج نظيرة من سلفها علي. وهذه العادة معتمدة، مبدئياً، في الأوساط الاجتماعية، على قاعدة ان الزواج من ابنة العم أو من زوجة الأخ بعد وفاته تُثبت الزعامة وتحمي الثروة من التشتت وتصون الأولاد، والأهم أنها تحافظ على التركة من الضياع وتحول دون المشاكل أو الصراعات.

غير ان الشخصيتين كانتا مختلفتين اختلافاً جوهرياً[11]، من جهة، كما ان الست نظيرة لم تكن، من جهة أخرى، في مثل هذا الوارد، لأنها أرادت التفرّغ لتربية أولادها [12]، وزير «النساء الكهل»، كما يسميه إيغور تموفييف، لم يقدم على هذه الخطوة أو يصرّ عليها، من جهة ثالثة. وإذا كان من الصعوبة اليوم استعادة اللوحة الكاملة لكل الملابسات التي أحاقت بعلي بك وانطلق منها لعدم الإقدام

10. م. ن، ص 23.
11. تجمع **المقابلات الشخصية** على اختلاف شخصية نظيرة جنبلاط عن شخصية سلفها علي بك اختلافاً جذرياً، إذا جاز التعبير، في السلوك ونمط الحياة، والتفكير والأهداف العامة... الخ، الأمر الذي جعل التلاقي (الزواج) صعباً إذا لم نقل مستحيلاً.
12. نجيب بك شمس: م. س ويشير مالك بك جنبلاط: م. س، إلى أن الست نظيرة هي التي رفضت فكرة الزواج من علي بك ومن غيره.

على الزواج آنذاك من زوجة أخيه[13]. لكن هذه الواقعة ساهمت، مع غيرها من العوامل، في زيادة الجفاء بينهما والبرودة في علاقاتهما، وفي توسيع الخلاف بين أركان الأسرة الواحدة والبيت الواحد، وأحدث انقساماً عميقاً وصراعاً طويلاً بينهما.

غير أن المسألة الأكثر أهمية في هذا السياق تتلخص في استعصاء علي بك على القيود وعدم قبوله بتغيير نمط حياته لأي سبب من الاسباب وتحت أي ظرف من الظروف. فـ«المتمرد» على السائد وتقاليده واغراضه لم يكن سهلاً عليه الانصياع لغير قناعاته أو القبول بغير ما يؤمن به من أفكار. لهذا عمد في العام 1923، أي بعد حوالى سنتين على وظيفته في القائمقامية وسنة واحدة على تصدره كرسي الزعامة الجنبلاطية، إلى الاستقالة من منصبه-الوظيفة، والى ترك قصر المختارة عائداً إلى بيروت. فطبيعة شخصيته وتكوينه النفسي ونمط حياته رفضت الرضوخ لأعراف الزعامة التقليدية ومستلزماتها العملانية، وكانت عصيّة على قيود الوظيفة وروتينها. لهذا لم يكن في قرارة نفسه واعماقه أو في مسار حياته مهيّأً للعب هذا الدور أو استحسانه أو الاندماج فيه. وهو إذا قبل الوظيفة «مُرغماً» فإن «طبيعته غلبت تطبعه» رغم كل المغريات المتوافرة.

إن الاستقالة هنا كانت أبعد من نطاق الوظيفة الرسمية، كونها طالت الأسرة، زعامة وغرضية، في الصميم، وتركت فراغاً جديداً وأحدثت ارتباكاً كبيراً في الأوضاع العائلية التي بدت أنها تستقر وتأخذ منحاها الطبيعي أو المفترض، مما أعاد طرح مسألة الخلافة مجدداً وبحدة أعمق، لأن الخلافات داخل البيت الجنبلاطي غدت أكثر وضوحاً وبادية للقاصي والداني.

في مطلق الأحوال، فإن استقالة علي بك وتركه قصر المختارة ساهما، رغم

13. إيغور تيموفييف: م. س، ص 31.



كل الأوضاع والظروف، في إفساح الطريق على مداه أمام نظيرة للتقدم وتحديد خيارها الصعب في تصدّر الزعامة.

## عوامل موضوعية

تضافرت العوامل العائلية بعد خلو القصر من المنافسين، مع مجموعة من العوامل الموضوعية المساعِدة المتمثلة بالمناخ السياسي العام والانقسام الدرزي الخاص، فتشاركت جميعها لإنضاج فكرة تأنيث الزعامة.

1. المناخ السياسي: كان الفرنسيون بحاجة ماسّة إلى تخفيف الاحتقان الدرزي ضد سياستهم وضد وجودهم، ويرغبون في إزالة فكرة «العداء التاريخي» معهم. لذلك عمدوا في البداية إلى المحافظة على التوازن السياسي الذي كان سائداً بين «العيال الدرزية العريقة» - باستثناء آل نكد - من خلال إعطائها التوظيف كوسيلة جذب ناجحة لاحتواء بعض زعمائهم، وبالتالي احتواء الدروز عبرهم؛ فثبتوا العديد في وظائفهم وأسندوا إلى بعضهم وظائف جديدة بدافع كسب ولائهم، وأبقوا مثلاً على الأعضاء الدروز في مجلس إدارة جبل لبنان (محمود جنبلاط، فؤاد عبد الملك، محمد صبرا الأعور) واسندوا إلى توفيق أرسلان مركز القائمقامية، وعينوا سامي عبد الملك مديراً للجرد الشمالي وسامي العماد مديراً للعرقوب الجنوبي ومصطفى العيد مديراً للعرقوب الأعلى وسعيد زين الدين مدعي عموم الاستئناف في بيروت... إلخ.

وحصلت الأسرة الجنبلاطية على نصيبها من هذا الاتجاه السياسي عبر تعيين فؤاد جنبلاط مديراً للشوفين ورشيد جنبلاط كأحد مستشاري المندوب الإداري في المنطقة الغربية. كما أوصى المفوّض السامي جورج بيكو بتسمية محمود جنبلاط عضواً في الوفد اللبناني الأول إلى مؤتمر الصلح في باريس وتعيينه نائباً للرئيس بدافع الحرص على استمالة الفريق الجنبلاطي خصوصاً وتقريب الدروز عموماً من الانتداب.

غير أن هذا الاتجاه لم يسفر بداية عن نتائج إيجابية، فمحمود جنبلاط مثلاً لم تُغرِه عضوية الوفد ولا نيابته لرئاسته وتخلّف عن السفر إلى فرنسا ولم يوقّع قرار مجلس الإدارة الرقم 561 تاريخ 20 أيار 1919 الذي ينادي باستقلال لبنان السياسي والاداري بحدوده التاريخية والجغرافية، كما شهد هذا الاتجاه الكثير من الصعوبات، لعل من أهمها عدم الاطمئنان إلى فرنسا وسياستها من جهة، وعدم تجرؤ أي زعيم على الوقوف في وجه الأكثرية الدرزية المعارضة للانتداب[14]. من هنا، ركز الفرنسيون اهتمامهم على المتعاونين معهم والذين لا يثيرون الاضطرابات ضدهم، بعدما أصبحوا السلطة الفعلية والوحيدة في الكيان الناشئ وإليهم تعود الأمور والمسائل كافة.

ضمن هذا المناخ السياسي العام، يمكن قراءة الدعم الذي حظيت به نظيرة جنبلاط؛ فقد لعب الفرنسيون دوراً مهماً في تثبيت زعامتها وتوفير ما يمكن أن يساهم في تبوّئها كرسي الزعامة. ولو ان علاقتها بسلطات الانتداب والدوافع التي سيتم التطرّق إليها في سياق النص، لا تخفي أن السلطات الفرنسية بدأت بتوطيد العلاقة مع قصر المختارة مبكراً، وعمدت في أكثر من مناسبة خلال وجود فؤاد بك أو بعد موته، إلى إظهار التعاطف مع الأسرة الجنبلاطية في المختارة وتأييد بعض رموزها، من فؤاد وعلي إلى نظيرة.

لقد وجد الفرنسيون في نظيرة جنبلاط خياراً مقبولاً قياساً بالآخرين لأنها تتسم بنزعة محافظة ومقدرة على المساومة[15]، وتتصف بمرونة سياسية في العلاقة

14. يراجع:
- حسن أمين البعيني: م. س، ص 31.
- حكمت البير الحداد: م. س، ص 37 و78.
- جورج كرم: **قضية لبنان**، م. س، ص 32–33 و333.

15. إيغور تيموفييف: م. س، ص 31 ويعتبر هذه الناحية من العوامل (الملابسات) الموضوعية لتدعيم زعامتها.



مع الدولة المنتدبة ومع الحكام العسكريين[16]. هذه الخصائص والمواصفات توافق الفرنسيين المُحرجين على الأقل في أمرين: الموقف الإسلامي العام الرافض لفكرة «دولة لبنان الكبير» وضم الأقضية الأربعة إلى جبل لبنان من جهة، والموقف الدرزي المتخاصم مع الفرنسيين والمتصادم معهم في أكثر من موقع وجبهة، والمتحمّس بقوة لدعم الإخوان في جبل الدروز في سوريا ضد الإجراءات التعسّفية الفرنسية من جهة أخرى. لذلك قدّم الفرنسيون[17] كل ما يمكنهم من الدعم المعنوي لنظيرة جنبلاط لتسهيل تزعمها والتخفيف من المشاكل الممكن ان تُثار في وجهها، وإزالة الحواجز القائمة والمحتملة من طريقها.

والجدير ذكره هو أن التأييد الفرنسي لنظيرة جنبلاط لا يدخل في موضوع دعم مشاركة المرأة في الشأن العام أو تحسين موقعها في المجتمع أو تغيير النظرة المجتمعية تجاهها، بل يندرج في مجرى السياسة الفرنسية لحماية مصالحها في لبنان خصوصاً والمنطقة عموماً، وتدعيم انتدابها من دون أي اعتبار لمقولة المرأة وتحررها.

2. الانقسام التقليدي: يمكن في المعطيات الموضوعية المتعلقة بالانقسام التقليدي بين الدروز الإشارة إلى أمرين: الأول حاجة الغرضية الجنبلاطية إلى زعيم، والثاني القبول الدرزي بالمبايعة من دون اعتراضات تعوّق تزعمها. في الجانب الأول يمكن القول إنه لم يكن من الممكن أن تبقى الغرضية وعصبيتها السياسية بدون مركز استقطاب جامع لأفرادها. فالفراغ الذي أحدثه موت فؤاد وبعده نسيب ثم استقالة علي، كان مربكاً جداً، وأحدث دويّاً هائلاً وقلقاً داخلياً ليس في وسط الأسرة الجنبلاطية فقط، بل في بنية الغرضية وفضائها

16. حافظ أبو مصلح: **واقع الدروز، معتقداتهم، خلواتهم، آباؤهم وتاريخ دير القمر**، بيروت، الطبعة الثانية، المكتبة الحديثة، ص225–226.

17. تجمع **المقابلات الشخصية** على هذه المسألة.

السياسي والاجتماعي، لاسيما وأن قصر المختارة يفتقد «ذكراً» بالغاً يستطيع أن يشغل هذا المنصب أو يملأ هذا الفراغ، مما فرض بشكل أو بآخر على نظيرة أن تخترق القيود وتتجاوز الأعراف السائدة.

من هنا، لم يكن من الحكمة ان تَقْفُل «أميرة المختارة» بابها في وجه قوم أقروها على سيادتهم واعترفوا بخلافتها لأسلافها في تسلّم زمامهم بعد أن وضعوا ثقتهم في كفاءتها لخدمة مصالحهم[18].

كانت محبة الناس لدار المختارة لما تمثّله في الضمير الجمعي من موقع ودور، اثرها عند الدروز عموماً وعند الغرضية الجنبلاطية خصوصاً، في دعمها[19] والالتفاف حولها، لأن الغرضية ثابتة على ولائها لا تتزعزع. فالولاء هنا يغدو شيئاً من الهوية الاجتماعية في المتحد الدرزي. لهذا يشير رامز أبي صعب إلى أن قوة الولاء عند الجنبلاطيين راسخة لدرجة يصعب، إذا لم نقل يستحيل، تغييرها في تلك المرحلة، وبحيث يمكن، برأيه، لسراي بيت الدين أن تدور حول نفسها مئة وثمانين درجة من دون أن تهتز مقومات هذا الولاء أو يتحوّل إفراده عنه قيد أنملة[20].

إن التأييد الذي يسم أفراد الغرضية والتزامهم بطاعة الزعيم ظاهرة

18. يراجع على سبيل المثال:
- **الخدر**: تاريخ أيار، الجزء العاشر، السنة السادسة، ص 54.
- **الخدر**: تاريخ تموز وآب 1923، ص 74–75.
- **الأجيال**: تاريخ 1951، العدد الثامن، ص 76.
- د. حنيفة الخطيب: م. س، ص 42–43.

19. نازك أبو علوان العابد: **مقابلة شخصية**، الخميس 13/ 6/ 2002، المختارة، الشوف. يشير عزت صافي في تعقيبه على كتاب إيغور في **النهار** 19/ 2/ 2001 إلى أن كمال جنبلاط لم يبتكر دور المختارة بقدر ما أعطاه البعد العصري... فثمة قضية لهذه الدار تنتقل من جبل الآخر ولا يستطيع من يتصدر الدار أن يتغاضى عن هذه القضية وإن حاول فإن القضية تتشبث به وتلزمه بأداء دوره وواجبه.

20. رامز أبي صعب: **مقابلة شخصية**، الخميس 24 تشرين الأول 2002، القنطاري، بيروت.



متوارثة، إلى حد بعيد، يغلب عليها الامتثال لمركز السلطة وموقعها الإقطاعي-الطائفي. فالتجانس «البنيوي» في مثل هذه البيئة المجتمعية والسلوكيات المعتمدة، تجعل حضور الزعيم الجديد أمراً «أوتوماتيكياً» لا يحتاج إلى جهد أو عناء. ويتقاطع هذا «الخضوع الداخلي» مع ما يمكن ان نسميه، مجازاً، «الإخضاع الخارجي» المتمثل في سلطة الانتداب التي تساعد على تعزيز موقع الزعيم وتقويته.

يبدو أن حادثة اغتيال فؤاد بك جنبلاط ولّدت مزيداً من التماسك بين أفراد الغرضية من جهة، وكثّفت التعاطف مع أسرته من جهة أخرى، الأمر الذي قوّى الالتفاف حول زعامة قصر المختارة بالمقارنة مع المنافسين الآخرين في العائلة. لهذا ساند «الجنبلاطيون» حضور نظيرة جنبلاط ولم يستفزهم تصدرها كرسي الزعامة، وتحولت العصبية هنا إلى نوع من الموقف «الإيديولوجي»، إذا جاز التعبير.

أما في الجانب الثاني المتعلّق بالقبول الدرزي، فهو مرتبط بطبيعة الانقسام السياسي التقليدي داخل الطائفة (الجنبلاطي-اليزبكي). فما ترتضيه الغرضية لنفسها يغدو مقبولاً، بشكل أو بآخر، من الآخرين باعتباره شأناً داخلياً. ويتدعم هذا القبول بالمرجعية الدينية المحسوبة على هذه الغرضية أو تلك، فلكل غرضية، في تلك المرحلة، شيخ العقل الخاص بها.

لم تجرِ مبايعة الست نظيرة بحسب الأصول والتقاليد والأعراف المتبعة في مثل هذه الحالات حين يقوم شيخ العقل بإلقاء العباءة السوداء على الوريث كإجراء رمزي لتثبيت زعامته وإعطائه «الشرعية» في وسطه الاجتماعي والإقرار العيني بأحقيته دون غيره لتولي الزعامة، وبالتالي إعلان مبايعته أمام الجميع وتأييده. لكن شرعية سلطة نظيرة جنبلاط وزعامتها راحت ترسخ شيئاً فشيئاً من خارج هذا التقليد وإجراءاته التي لم يكن من الممكن

القيام به كونها إمرأة، وذلك من خلال تردّد شيخ العقل على مجالسها[21]، ما يؤشّر إلى رضى رجال الدين وقبولهم بالموقع الذي احتلته والدور الذي تقوم به.

في مطلق الأحوال، فإن هذا الميل الدرزي نحوها عزّزته بطريقة أو بأخرى نوعية بعض العادات المتبعة في الوسط الاجتماعي عندهم. فالطائفة الدرزية المحافِظة بطبعها، تمنع، وبشدّة، الزواج من خارج بيئتها، الأمر الذي يجعل الشخص الذي يُقدم على هذه الخطوة شبه محاصر في تلك المرحلة. وقد تتراجع مكانته بنظرهم وتقلّ فرص تصدّره للزعامة التقليدية. من هنا تشير نازك العابد إلى أن الندابة حلا الشقراوية ردّدت في ندبها لفؤاد جنبلاط ما معناه أن كمال جنبلاط سيكون شغوفاً على الطائفة ورؤوفاً على أبنائها لأن أمه (نظيرة) درزية[22]. وتدل هذه الحادثة التي ترويها العابد نقلاً عن المعمّرين الذين عايشوا تلك المرحلة، ولم تزل تتناقلها الذاكرة الجمعية في المتحد الدرزي، على نوع من الجفاء تجاه بعض المنافسين لنظيرة الذين خرجوا بشكل أو بآخر عن تقاليد الطائفة وعاداتها.

ومن الجدير الإشارة إليه هنا أن علي جنبلاط كان اختطّ لنفسه مساراً حياتياً خاصاً لم يتنازل عنه أبداً، بالرغم من تعارض هذا المسار في بعض جوانبه مع بيئته المجتمعية، خصوصاً لجهة زواجه من حسناء إيطالية[23]. بينما تتحدّر نظيرة جنبلاط من أسرة درزية عريقة النسب لها تاريخها السياسي والاجتماعي. فالزعامة تعقد لها، كونها من سلالة البيت

21. إيغور تيموفييف: م. س، ص 33.
22. نازك العابد: م. س.
23. يراجع الفصل الثاني من الكتاب.



الكريم[24].

وعليه، فإن مجمل هذه المعطيات الموضوعية[25] بشقّيها السياسي أو الطائفي ساهمت في إعلاء موقع نظيرة جنبلاط وترسيخ زعامتها.

## عوامل ذاتية

إن مختلف العوامل السابقة لم تكن لتفعل فعلها وتترك آثارها الإيجابية لو لم تتوفر في الشخص المعني (الزعيم) المقومات الأولية للعب الدور المطلوب. بمعنى أن المسوغات الخارجية التي تهيّأت لها والظروف المؤاتية التي ساعدتها على تصدّر كرسي الزعامة التقليدية في العائلة، ما كان لها أن تُعطي مفاعيلها وتُؤتي ثمارها في غياب الخصائص الذاتية والسمات الخاصة عندها. فقد استطاعت أن تختزن ما توفر لها من معطيات وتسهيلات مساعِدة لتعيد ترتيبها بما يخدم وضعها ويطوّره.

يُشار أيضاً إلى أن العوامل الذاتية عند نظيرة جنبلاط، قد ازدادت نموّاً مع مرور الوقت وتنوّع التجارب. بحيث ساهمت التجربة السياسية والاجتماعية لاحقاً في صقل خبرتها وتعميق معارفها وتوسيع أفقها وإغناء زعامتها. وما يمكن لحظه في هذا المجال وإبرازه هو بالتحديد ما يمكن اعتباره خصائص فطرية أو مقوّمات

24. الحاج شعبان محمد قوبر: م. س.
25. يشير حافظ أبو مصلح إلى نوع من المبالغة، فيعتبر أن الأقدار أبت أن تساعد المرأة الدرزية وتحقق شيئاً من مطامحها البعيدة، فشاءت أن تخلو الساحة السياسية وتفتقر إلى رجل لإدارة دفة الحكم. ولم يبقَ في الميدان «إلا حديدان» وحديدان هذا بكل فخر امرأة درزية رصينة هي الست نظيرة... فكان أن اختارها الجنبلاطيون زعيمة تتكلم باسمهم غير مبالين بالنقد، ص 222-225. وفي الحالتين (الأقدار والاختيار) فان زعامة نظيرة جنبلاط لم تعكس واقع المرأة الدرزية أو تنعكس (إيجابياً) على وضعية المرأة الدرزية من جهة، كما إن الجنبلاطيين، عملياً، لم يختاروها لأن الصراعات داخل الأسرة كانت حامية الوطيس ولم تكن خافية على المطلع. وقد استمرت الصراعات إلى بداية الثلاثينات، عندما عمدت الست نظيرة إلى رأب الصدع في العائلة.

أوّلية وعوامل كامنة، لأن متابعة سماتها الشخصية ومواصفاتها الذاتية ستتبلور بوضوح أكثر من خلال النص. لذلك، فإن أهم ما يمكن رصده لتوصيف ما ساعدها على الارتقاء سريعاً في سلّم الزعامة السياسية والاجتماعية، سواء في بيئتها الخاصّة، أو على المستوى الوطني العام، يكاد أن ينحصر، وإلى حدّ بعيد، بثلاثة عوامل متداخلة في ما بينها: الأول يُعبّر عنه بالعاطفة «الغريزية» للأم؛ والثاني تعكسه السجايا الشخصية، والثالث يتعلّق بالمحنة التي ألمت بالعائلة.

1. محبة الأولاد: تعتبر عاطفة الأم محرّكاً أساسياً وغريزياً للدفاع والتضحية والإقدام. وتبرز هذه العاطفة بأشكال مختلفة ومظاهر متعددة. ولعل محبة الأولاد والعمل بكل الطرق والوسائل لتوفير المستلزمات الضرورية لراحتهم وتأمين الحياة الرغيدة لهم والإمكانات اللازمة لحياة أفضل لهم وحماية حقوقهم والدفاع عنها، وتسهيل سُبل العيش أمامهم وتعبيدها... ألخ من المظاهر المعبّرة عن عاطفة الأم ومحبتها لأولادها. وتجمع المقابلات الشخصية كافة، إضافة إلى المراجع التي تطرّقت بشكل أو بآخر الى تجربة الست نظيرة، إلى أن محبتها لأولادها كانت عاملاً أولياً ومحركاً أساسياً دفعها إلى التفكير جدياً في خوض الصراع، وتحمُّل أعباء الزعامة.

وإذا كانت محبة الأم لا تفرّق بين الأنثى والذكر، غير أن الأولوية هنا هي للولد الذكر. أولاً، بسبب الأهمية الخاصة التي يوليها المجتمع للذكر على حساب الأنثى[26]، كونه يحمل اسم العائلة ويحافظ على استمراريتها، وثانياً،

26. حول المجتمع ونظرته للمرأة يراجع على سبيل المثال.
- قاسم أمين: **تحرير المرأة**، القاهرة، 1899.
- قاسم أمين: **المرأة الجديدة**، القاهرة 1899.
- د. نوال السعداوي: **دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي**، الطبعة الثانية، 1990، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (مجموعة كتب).
- فاطمة المرنيسي: **الحريم السياسي، النبي والنساء**، ترجمة عبد الهادي عباس، دمشق، الطبعة الأولى 1990، دار الحصاد.
=



لأنه سيكون الوريث الشرعي لزعامة قصر المختارة والغرضية الجنبلاطية. لهذا يشير إيغور تيموفييف إلى أن حبها لـ«فلذة كبدها» جعلها تحتفظ بالزعامة السياسية في المختارة وتصون توارث الزعامة السياسية التي انقطع حبلها بمقتل زوجها[27]. فالهمّ عندها تجلى في السعي الحثيث للمحافظة على استمرارية الزعامة.

لقد تقاطعت عاطفة الأم «الغريزية» مع الهدف السياسي، فكان دافعاً على قدر كبير من الأهمية. لذلك سنلاحظ من خلال سياق النص أن نظيرة جنبلاط وفّرت كل المقومات الضرورية والمستلزمات الأساسية التي تضمن لابنها الوحيد استلام الزعامة، فمهّدت الطريق أمامه ليكون «الزعيم المنتظر» من خلال تمسكها هي بالزعامة ومواجهة الآخرين، أو من خلال محاولتها تحديد خياراته التي تشده إلى وسطه الاجتماعي وتسمح له القيام بدور سياسي مستقبلي. وفي هذه النقطة بالتحديد، بدت وكأنها تقوم بتنفيذ وصية زوجها، ليس فقط في الجانب الأمومي والتربوي والرعائي البحت، بل في الأبعاد السياسية والمضمون السياسي لما قاله قبل أن يفارق الحياة أي «المحافظة على الأولاد»!.

2. السجايا الشخصية: تعبِّر السجايا الشخصية لنظيرة جنبلاط عن الإمكانيات الخاصة بها والتي وسمت في جزء مهم شخصيتها. ويُجمع مَن قابلتهم على الإشادة بصفاتها والاشارة إلى عناصر شخصيتها والمميزات الإيجابية التي سمحت لها بأن تكون في مستوى المسؤولية. فقد كانت سجاياها الشخصية التربة الأولية التي نمّت مواهبها وأطلقت قدراتها و«حرّرتها»، إلى

= - حليم بركات: **المجتمع المعاصر، البحث إستطلاعي إجتماعي**، بيروت، الطبقة الثالثة، 1986، مركز دراسات الوحدة العربية، القسم الثاني.
- هشام شرابي: **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**، بيروت، 1975، المتحدة للنشر.
- **المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية**، ندوة فكرية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993، مركز دراسات الوحدة العربية، القسم الأول.

27. إيغور تيموفييف: م. س، ص 31.

حد ما، من ثقل القيود ووطأة القيم الذكورية–المجتمعية التي تحدِّد مكانة المرأة والنظرة إليها.

وبالرغم من عدم دخولها المدرسة[28]، فإنها تعلّمت من «مدرسة الحياة» الكثير والكثير، وأتقنت لاحقاً تقنيات العمل في المعترك الذي دخلته «مُجبرة» وعرفت فنونه معرفة ممتازة واستوعبت ألاعيبه السياسية بشكل جيد ووعت خباياه بدقة. وقد وفّرت شخصيتها القوية وقدرتها على التعلُّم استيعاب ما تتعلمه بسرعة وتجسيده في حياتها اليومية، إلى جانب شجاعتها وإقدامها وذكائها الفطري والحكمة التي اتصفت بها ودرايتها في معالجة الأمور وقراءة الأحداث والتعامل مع المستجدات، وغيرها من المواصفات الشخصية التي منحتها المقدرة على التفاعل مع بيئتها الطائفية ومحيطها الاجتماعي كما مع الوسط السياسي العام

28. يمكن في هذه القضية إظهار الآراء الآتية:
- تشير السيدة نايفة شمس: **مقابلة شخصية**، الإثنين 28 تشرين الأول 2002، بيروت، إلى أنها أحضرت معلمة خاصة للست نظيرة علمتها الإنكليزية.
- يعتبر الجنرال كليمان-غرانكور في كتابه، **حياة محارب** (بالفرنسية) ص 133، أنها تربت عند المرسلين الأميركان، غير أن هذا الرأي لم نجده عملياً في أي مرجع آخر، ولم تشر إليه المقابلات الشخصية.
- يوضح عدنان الشهال: م. س، ص 131 إلى أنها لم تدخل المدرسة، لكنه يشير إلى أنها تلقت العلم على أيدي مدرسين. وقد تعلمت بواسطتهم اللغتين الفرنسية والانكليزية، وفي **مقابلة شخصية**: الإثنين 4 آب 2003، بيروت إلى أنه عند صدور كتابه سأله الكثيرون شو الست بتعرف تكتب. بمعنى أن هناك عدم معرفة عميقة بتجربتها وخبرتها.
- يشير فوزي زين الدين: **مقابلة شخصية**، م. س، إلى أنها غير متعلمة بالمعنى المدرسي، وقد أتقنت عملياً اللغات الأجنبية بتواضع. تتكلم الفرنسية بما يمكن ان نسميه تكسير، وتعرف بعض التعابير الإنكليزية. ويبدو أن هذا الرأي هو الأقرب إلى الدقة والموضوعية، ويؤكد هذا الرأي ما أوردته مود فرج الله (ان مود فرج الله تتحدث بالفرنسية)، ص 115–117 إلى أن الست نظيرة ألقت كلمتها بالوفد البريطاني باللغة العربية.



في البلد. بل إن هذه السجايا الشخصية جعلتها «متفوقة معنوياً وثقافياً»[29]، الأمر الذي عزز زعامتها ورسخ مكانتها.

3. ثقل المصيبة: إن المصاعب التي يتعرّض لها الشخص قد تضعه، من حيث المبدأ، أمام خيارين لا ثالث لهما. إما الانهيار أمام وقعها وثقلها، وإما التماسك والتوازن لمواجهتها. ويبدو أن الست نظيرة كانت من النوع الثاني الذي يمكنه استيعاب الصدمة وتحمُّل أوزارها.

بل يمكن القول في هذا المجال إن الفاجعة التي ألمت بالأسرة الجنبلاطية قد فجّرت إمكاناتها وأطلقت قواها المخبوءة، الأمر الذي جعل المحنة حافزاً للتقدم بدل أن تكون عاملاً للإحباط والتراخي.

ويبدو أن الضرورات العائلية والغايات المرتبطة بإرث الماضي وامتداداته المستقبلية، قوّت الدفاعات النفسية عندها لمواجهة المحنة ودفعها إلى تحمّل مسؤولية ليست سهلة. فالمصيبة حوّلتها إلى مُواجهة بدل أن تكون خانعة، وإلى مقدامة بدل أن تكون متراجعة، وإلى طامحة بدل أن تكون قانعة. لذلك تقدمت بثقة لتصدّر الزعامة وتصدّت بعزم للورثة المتعاقبين والطامحين إلى كرسي الزعامة الجنبلاطية. وبقي هذا العامل حاضراً باستمرار في حياتها. فالمآسي لم تثن عزيمتها أو تدفعها إلى القنوط واليأس أو التسليم والتراجع.

## تجربة خاصّة

إن تفاعل العوامل الآنفة الذكر وتساندها ساهما في «تأنيث» الزعامة من خلال تصدّر نظيرة جنبلاط الزعامة التقليدية في قصر المختارة. غير أن استقرار الوضع على هذا النحو، جعل التجربة تبدو وكأنها خاصة، باعتبار أن تعاطي المرأة الشأن السياسي في مجتمعنا بقي ظاهرة خجولة إذا لم نقل شبه معدومة في حينه.

29. كليمان-غرانكور (بالفرنسية): م. س، ص 130.

إن السؤال الذي يمكن إبرازه في هذا الإطار، يتمحور حول طبيعة هذه الخاصية وحدودها. فإلى أي مدى يمكن اعتبار تجربة نظيرة جنبلاط خاصة ومميزة؟ وهل هناك تجارب أخرى وظواهر مشابهة؟ وإذا وجدت مثل هذه التجارب، أين مجالات التلاقي والتمايز بينها؟

## تجارب نسائية

إن مقارنة تجربة سيدة قصر المختارة مع غيرها من «التجارب النسوية»، حيث كان للمرأة فيها دور سياسي ومشاركة فعلية في إدارة شؤون مجتمعها أو جماعتها قد تساعد على تبيان خاصية التجربة التي ندرسها من جهة، وتقدم إسهاماً ما لكشف حدودها من جهة ثانية، ويخفف، إلى حد بعيد، الغموض الذي يحيط بها من جهة ثالثة، ويؤشر من جهة رابعة الى مدى تأثير الحضور النسوي وعمقه في الشأن العام – أي التعاطي في السياسة وقضاياها.

لقد تقاطعت بعض التجارب النسائية في مجتمعنا مع تجربة نظيرة جنبلاط في جوانب محدّدة، والبعض الآخر في الإطار العام. فقد عرفت البيئة الدرزية، كما المحيط الاجتماعي الأوسع، نماذج سياسية لعبت المرأة فيها أدواراً على قدر من الأهمية.

من التجارب القريبة، إلى حد ما، تبرز الست بدر أمان الدين، جدة فؤاد جنبلاط في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد استطاعت بعد موت زوجها سعيد جنبلاط في السجن بداء السلّ، أن تربي طفليها نسيب ونجيب. ولم تفقد هذه المرأة للحظة صفاء الذهن وقوة العزيمة. وبفضل «ثقافتها»، وفّرت لطفليها تحصيلاً علمياً راقياً بمقاييس ذلك الزمان في الكلية الوطنية، وسعت لأن يحتفظا بالزعامة في الطائفة الدرزية[30]. غير أن دور

30. إيغور تيموفييف: م. س، ص 19.



الست بدر بقي في حدود القصر، وهي لم تتصدر الزعامة–الغرضية الجنبلاطية ولم يمتد نشاطها إلى حدود السياسة والشأن العام لوجود ولديها نجيب (والد فؤاد جنبلاط توفي عام 1885 وله من العمر أربع وثلاثين سنة) ونسيب الذي توفي عام 1922 وكانت له مواقع سياسية واضحة كما يبين النص.

أما في المراحل التاريخية الأبعد، فتبرز تجربة الست نسب التنوخية (1546–1633)، التي تكنى بـ«الست الكبيرة»، ولقّبها المؤرخون الأجانب بـ«السلطانة» أو «سلطانة البر»، ويعتبرها كرم البستاني من أجمل الصفحات في تاريخ أميرات لبنان. برزت الست نسب في القرن السادس عشر بعد مقتل زوجها الأمير قرقماز، فقامت بتربية ولديها الأمير فخر الدين (12 سنة)، والأمير يونس (10 سنوات) لحين استطاع الأمير فخر الدين تولي الحكم. وبقيت تلعب دوراً أساسياً خلال فترة حكمه. وقد أشاد المؤرخون بذكائها وعزيمتها وقدرتها على معالجة الشؤون السياسية ومهارتها في التخطيط والتنفيذ. وكانت مرجعاً للأمير يسترشد برأيها في إدارة شؤون الإمارة[31].

تبدو هذه التجربة قريبة، إلى حد بعيد، من تجربة نظيرة جنبلاط، سواء في فقدان الزوج أو في المحافظة على الزعامة والسهر على تربية الأولاد وإعدادهم لتولي حكم الإمارة، أو لجهة القدرات الذاتية والشخصية، أو لجهة دورها بعد استلام الأمير فخر الدين إمارة الجبل. فالتجربة التي خاضتها «سلطانة البر» كانت مميزة قياساً لعصرها، إلى درجة أنها بدت في بعض الأوقات الحاكمة

31. لمزيد من المعطيات حول الست نسب، يراجع على سبيل المثال:
- كرم البستاني: **أميراً من لبنان**، بيروت، 1950، مكتبة صادر، ص 53–61.
- املي نصرالله: **نساء رائدات من الشرق ومن الغرب**، الجزء الأول، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، مؤسسة نوفل.
- **الواقع الدرزي وحتمية التطور**: مساهمة عفيفة صعب، م. س.
- **الرؤية**: تاريخ كانون الأول 1991.

الفعلية وصاحبة الكلمة الفصل. ولعل من أهم القواسم المشتركة أو أوجه الشبه بينهما يعود إلى أنهما وقفتا، كما تقول عفيفة صعب، وجهاً لوجه على مفترق الطريق: إما انتقال الإمارة أو الزعامة إلى مَن ينبري لها من الرجال بقدرة السيف أو قدرة الحيلة، وإما المبادرة إلى استلام الزمام والتمرس بشؤونه والنهوض بتبعاته والاحتفاظ بالإمارة أو الزعامة سليمة إلى أن يبلغ الوريث الشرعي أشده. و«كلتاهما اختارتا المبادرة»[32].

غير أن التمايز الأبرز يكمن في أن نظيرة جنبلاط تولّت الزعامة مباشرة وقادت الزعامة-الغرضية الجنبلاطية باعتبارها المرجع الأول وصاحبة السلطة والنفوذ من دون «منازع»، إذا جاز التعبير. واستمرت في مركز الصدارة الأولى حوالى عشرين سنة (1923-1943) وبشكل متواصل، لحين بداية بروز زعامة ولدها كمال وفوزه بالمقعد النيابي. وبقي حضورها السياسي بوجود ابنها قائماً رغم التحوّلات الجذرية التي بدأ الوريث في إحداثها. في حين مارست نسب التنوخية ما يمكن أن نسميه «الزعامة بالوكالة» ومعاونة الأمير ابنها وتقديم المشورة له.

كما قد نجد نماذج نسائية أخرى مماثلة في بعض الجوانب مع تجربة نظيرة جنبلاط، مثل الشيخة نايفة جنبلاط (1810-1880) إبنة الشيخ بشير جنبلاط الملقب «عامود السما»، والتي قال عنها شكيب أرسلان بعد زيارتها: «زرت كثيراً من الكبراء فلم أتأثر تأثيري بشخصية هذه السيدة»[33]. تزوجت الشيخ خليل شمس من حاصبيا وغدت زعيمة حاصبيا بعد وفاته. رفضت الزواج واهتمت بتربية بناتها الثلاث. وقد عُرفت بوقارها وحصانتها وذكائها وشغلت منصباً رفيعاً في الشأن السياسي في منطقتها[34]؛ غير أن تجربتها كانت أقصر وتأثيرها بقي

32. **الواقع الدرزي وحتمية التطور**: م. س، ص 135-136.
33. م. ن.
34. لمزيد من المعطيات يراجع على سبيل المثال: =



محدوداً في الزمان والمكان.

غير أن ما يمكن الاشارة اليه في التجربتين، تقاطعهما حول فكرة «العيش المشترك» والعمل على ترسيخه خصوصاً بين المسيحيين والموحدين الدروز.

فقد كان للسيدة نايفة دور مهم في أحداث 1860، من خلال محاولتها وضع حد لهذه الاحداث وسعيها للتخفيف من آلامها. وعندما اشتدت المعارك وتوسعت دائرة التهجير والقتل، عمدت إلى حماية عائلات من المسيحيين، واهتمت بالجرحى منهم، وأخرجت نساء الشهابيين وأطفالهم المحاصرين في سراي حاصبيا، ونقلتهم إلى دارها، مما جعلها بعد استتباب الوضع الأمني أشبه بملكة غير متوّجة.

كذلك، فإن الست نظيرة جنبلاط وطدت العلاقات بين أبناء الجبل اللبناني، وصانت نسيجه المجتمعي والوطني بعد تشكيل دولة لبنان الكبير، كما عمدت خلال الثورة السورية الكبرى (1925-1927) إلى حماية «السلم الأهلي» في ربوعه وعدم الانجرار إلى صراعات طائفية بين أبنائه، الأمر الذي يجعل من التجربتين نموذجاً يحمل الكثير من المعاني والعِبر لحماية الوطن وصيانة وحدته.

وكانت تجربة حبوس الإرسلانية (1768-1826) ابنة الأمير بشير ابن قاسم الإرسلاني متماثلة في بعض جوانبها مع تجربة نظيرة جنبلاط. فقد توفي زوجها الأمير عباس بن فخر الدين الإرسلاني (1809) وأولادها صغار، وليس فيهم مَن يصلح للإمارة، فقامت بها وشملت إمارتها الشويفات، عين عنوب، عرمون، بشامون وعين كسور، واستمرت حاكمة على مقاطعة

= - ناديا الجردي نويهض: م. س، ص 70-73.
- **الواقع الدرزي وحتمية التطور**: م. س، ص 132-133.
- **الرؤية**: م. س.
- د. حنيفة الخطيب: م. س، ص 38.
- **الخدر**: تاريخ تموز وآب 1923، السنة الخامسة، الجزء الأول والثاني، ص 58-64.

الغرب الأقصى لغاية 1820 تقريباً، ولعبت دوراً سياسياً مهماً ومميّزاً، قياساً بأعراف تلك المرحلة وتقاليدها. وكانت ذات شخصية قوية وطموحة إلى درجة إنها فاقت شخصيتَيْ أبيها وزوجها معاً، واستطاعت مواجهة البطش الشهابي، بحيث استنجدت بالشيخ بشير جنبلاط عندما حاول الأمير بشير الشهابي إنزال العقاب بالأمراء الإرسلانيين وإحراق دورهم في الشويفات[35]. لكنها تراجعت تحت وطأة الأحداث وثقلها، ولم تترك حبوس الإرسلانية أثراً مميزاً بعد وفاتها. فقد حوصرت بطبيعة المرحلة وصراعاتها وآفاقها السياسية، فاعتزلت السياسة واستقرت في بلدة بشامون حذرة من غضب الأمير بشير الشهابي الذي صنفها في خانة الشيخ بشير الجنبلاطي وقام الأمير الشهابي بتعيين ابنها أحمد في الإمارة بدلاً منها.

وتبرز تجربة عمشة القنطار في سياق آخر، بحيث ارتبطت سلطتها ونفوذها بالقوة والقدرة على الغزو لتوسيع رقعة الإقطاعية، عرفت عنها القوة البدنية ومضاء الهمة والبراعة في استخدام السيف والرمح، واستطاعت في أوائل القرن التاسع عشر أن توسّع إقطاعية آل القنطار التي كانت محصورة في منطقة راشيا وادي التيم لتصل إلى زحلة[36]. غير أن المقارنة هنا تبدو خارج السياق، كونها مختلفة في الشكل والمضمون، كما في الأسلوب والتوجه.

35. لمزيد من المعطيات، يراجع:
- حسين غضبان أبو شقرا: م. س، ص 36.
- **الواقع الدرزي وحتمية التطور**: م. س، ص 130-132.
- أنيس يحيى: م. س، ص 74.
- **الرؤية**: م. س.
- ناديا الجردي نويهض: م. س، ص 27-31.
- د. حنيفة الخطيب: م.س، ص 35-36.
- كرم البستاني: م. س، ص 106-108.
- نساء تاريخ 3 تشرين الأول 1981.

36. **الواقع الدرزي وحتمية التطور**: م. س، ص 132.



ويمكن الاشارة، على الأقل، إلى الاطار السياسي للتجربتين. فتجربة عمشة القنطار جاءت في الحقبة العثمانية ونمط علاقاتها الاقطاعية، بينما أتت تجربة نظيرة جنبلاط في إطار مفهوم الدولة الحديثة ومستلزماتها. وهذا ما سوف يتوضح في سياق النص.

وتحضر، في المقابل، تجربة نازك العابد بيهم كرائدة من رائدات الحركة النسائية التي اقتحمت ميدان الحياة العامة السياسية والاجتماعية، وكانت من «نادرات عصرها». فهي بادرت مع عدد من النساء في سوريا من أعضاء «النجمة الحمراء»[37] إلى التطوّع في الجيش السوري للعناية بالجرحى في العهد العربي الفيصلي. وصدر مرسوم ملكي بتاريخ 17 تموز 1920 بمنحها رتبة «يوز باشي» فخرية، وشاركت مع رفيقات لها في الجيش العربي في ميدان القتال مع يوسف العظمة في معركة ميسلون؛ وقد اضطرت إلى مغادرة البلاد إسوة بسائر الوطنيين الذين كافحوا ضد الانتداب. ثم لم تسمح السلطة الفرنسية لها بالعودة إلا شريطة أن لا تتدخل بالأمور السياسية.

تبدو هذه التجربة مختلفة أيضاً عن تجربة نظيرة جنبلاط رغم أنها ترافقت مع المرحلة الزمنية ذاتها. ولعل أهم مجالات التمايز بين التجربتين، يتلخص في موضوع الاهتمام السياسي وآفاقه وأطره. فقد ركّزت الست نازك على مقاومة الانتداب بشكل مباشر، من جهة، والنضال لتأييد عروبة فلسطين، من جهة أخرى، ونشطت في أوساط الحركة النسائية لتحرير المرأة وتعزيز موقعها في المجتمع، من جهة ثالثة، وبادرت إلى تأسيس الجمعيات النسائية والثقافية لخدمة هذا الغرض[38]، من جهة رابعة.

37. «النجمة الحمراء» تأسست في 7 تموز 1920 برئاسة نازك العابد بيهم – غايتها القيام بأعمال الصليب الأحمر، وكانت من رواد الجمعيات التي عُرفت لاحقاً باسم «الهلال الأحمر».

38. يراجع:

=

إلى جانب ذلك، نجد نماذج نسائية أخرى كان لها موقع في «الحكم» وإدارة شؤون إقطاعياتها وإن بشكل محدّد، مثل زوجة الشيخ جفال الخازن وأخته بدوانية اللتين تولّتا عهدته في منطقة الفروق في الذوق وعينطورة، أو أم منصور زوجة الشيخ فضل الخازن التي تولت عهدة منطقة كسروان في أيام الأمير بشير الثاني، أو جلول المرعب زوجة حمد بك المرعب ووالدة أحمد بك المرعب التي تولّت حكم عكار في النصف الأول من القرن التاسع عشر من قبل إبراهيم باشا المصري[39].

كما برزت نماذج نسائية كان لها حضورٌ في الشأن العام مرافقٌ لحضور الزوج ومتمّمٌ له ومستندٌ إليه بالدرجة الأولى. بمعنى أنه لم يكن لمثل هذه النماذج أيّ تظهير لولا وجود الزوج. كما إنها لم تستمر في غيابه مثل مريم الحبشية، زوجة الشيخ فارس حبيش في إدارة عهدة غزير أيام حكم الأمير بشير الثاني، أو الست عليا شهاب، ابنة الأمير بشير الثالث وزوجة الأمير فندي، رئيس مجلس إدارة لبنان في العهد العثماني، والتي كان لها نفوذ في «الحكومة» والمنطقة الساحلية، وفاطمة خليل الأسعد، الكاتبة الشهيرة التي ساعدت زوجها علي بك الأسعد في حكم جبل عامل[40].

---

= – محمد جميل بيهم: **المرأة في الإسلام وفي الحضارة العربية**، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الأول 1980، دار الطليعة، ص 27–30

– د. زاهية قدورة: **تاريخ العرب الحديث**، بيروت، الطبعة الثانية، 1971، دار النهضة العربية، ص 582.

– د. حنيفة الخطيب: م. س، ص 42.

39. للمزيد يراجع:
– د. حنيفة الخطيب: م. س، ص 37.
– كرم البستاني: **أميرات لبنان**، م. س، ص 9.
– **الأجيال**: تاريخ 1951، الجزء الثاني، ص 76.
– **الرؤية**: م. س.

40. يراجع:
– **الرؤية**: م. ن.
–د. حنيفة الخطيب: م.ن.



## مجالات التمايز

إن هذه التجارب، وغيرها، تبين أن الحضور النسوي في إدارة الشأن العام في مجتمعنا كان متواضعاً جداً، إذا لم نقل نادراً، وتؤشر إلى عدد من الأمور، لعلّ من أهمها ما يلي:

1. محدودية التجربة والتأثير، إلى درجة بدت فيه هذه التجارب، رغم أهميتها وكأنها خارج السياق التاريخي والسياسي والثقافي والاجتماعي لمسيرة المجتمع وتطوره. مما يدفع الى الاستنتاج، من حيث المبدأ، بأنه لا يمكن البناء على هذه التجارب للقول بحضور المرأة أو للقول إنّ المرأة لعبت دوراً في الحياة العامة.

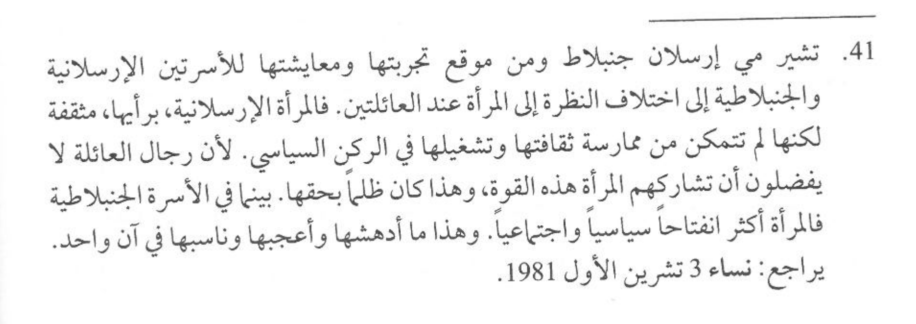
2. ضغط الظروف الحياتية ووطأة الأحداث المفاجئة (موت الزوج غالباً) كانا الدافع الأول والمحرِّك الرئيس لتقدّم المرأة، في لحظة تاريخية، الصفوف الأولى، وليس بناء على وعي مجتمعي عام يُقرّ بقدرات المرأة ويعترف بحضورها ويُؤمن بدورها ويلحظ وجودها ويصون حقوقها، الأمر الذي يمكن الاستنتاج معه بأن هذه التجارب تبدو ومضات مهمة في مسار الحركة النسائية، لكنها لم تؤدِّ عملياً إلى تحقيق تراكم «معرفي» وثقافي يُغيّر النظرة المجتمعية تجاه المرأة. وتبقى تجربة نازك العابد من الأكثر تمايزاً في هذا السياق.

3. التجارب النسائية التي ارتبطت بالبيئة الدرزية خاصة، كانت بغالبيتها خارج الغرضيتين التقليديتين: الجنبلاطية-الإرسلانية (عمشة القنطار، نايفة جنبلاط شمس)، الأمر الذي قد يكون من الأسباب التي لم تسمح لمثل هذه التجارب بالاستمرار. وقد يدل ذلك في جزء منه على مدى عمق الانقسام «السياسي» داخل الطائفة وتجذره من جهة، ويبين من جهة أخرى أن تجربة نظيرة جنبلاط كان يمكن أن تتماثل مع ما سبقها لولا تزعمها رأس الهرم الجنبلاطي وتولي ابنها كمال الزعامة من بعدها. أما تجربة حبوس الإرسلانية، فإضافة إلى عدم توافر المعطيات الكافية لها، إلا أن الظروف السياسية والأحداث في تلك المرحلة ساهمت في تقليصها،

إضافة إلى أن الست حبوس لم تكن في المركز الأول للغرضية.

أما اللواتي برزن من النساء ضمن الغرضيتين، فقد ظللْنَ خافتاتٍ جداً ولم يصلْنَ إلى مستوى سيدة المختارة ودورها في تزعم الغرضية الجنبلاطية. فوالدة فؤاد بك قامت بدور هام في رعاية ابنيها علي وفؤاد بعد مقتل الوالد في منتصف القرن التاسع عشر، لكن حضور العم (نسيب باشا) لم يدع مجالاً لبروزها. أما الست خولا جنبلاط زوجة نسيب باشا في البرامية - صيدا، فقد كانت كما يقول نجيب بك شمس ذكية ولبقة، لكن «الست نظيرة شيء آخر» واسمها لم يكن حاضراً. أما في الغرضية الإرسلانية فقد برزت الست خولا إرسلان منذ النصف الثاني من القرن العشرين لكنها تختلف في حجم الدور وطبيعته وظروفه عن تجربة نظيرة جنبلاط. لذلك تبدو هذه التجارب على اختلافها، محدودة جداً قياساً على تجربة سيدة المختارة[41].

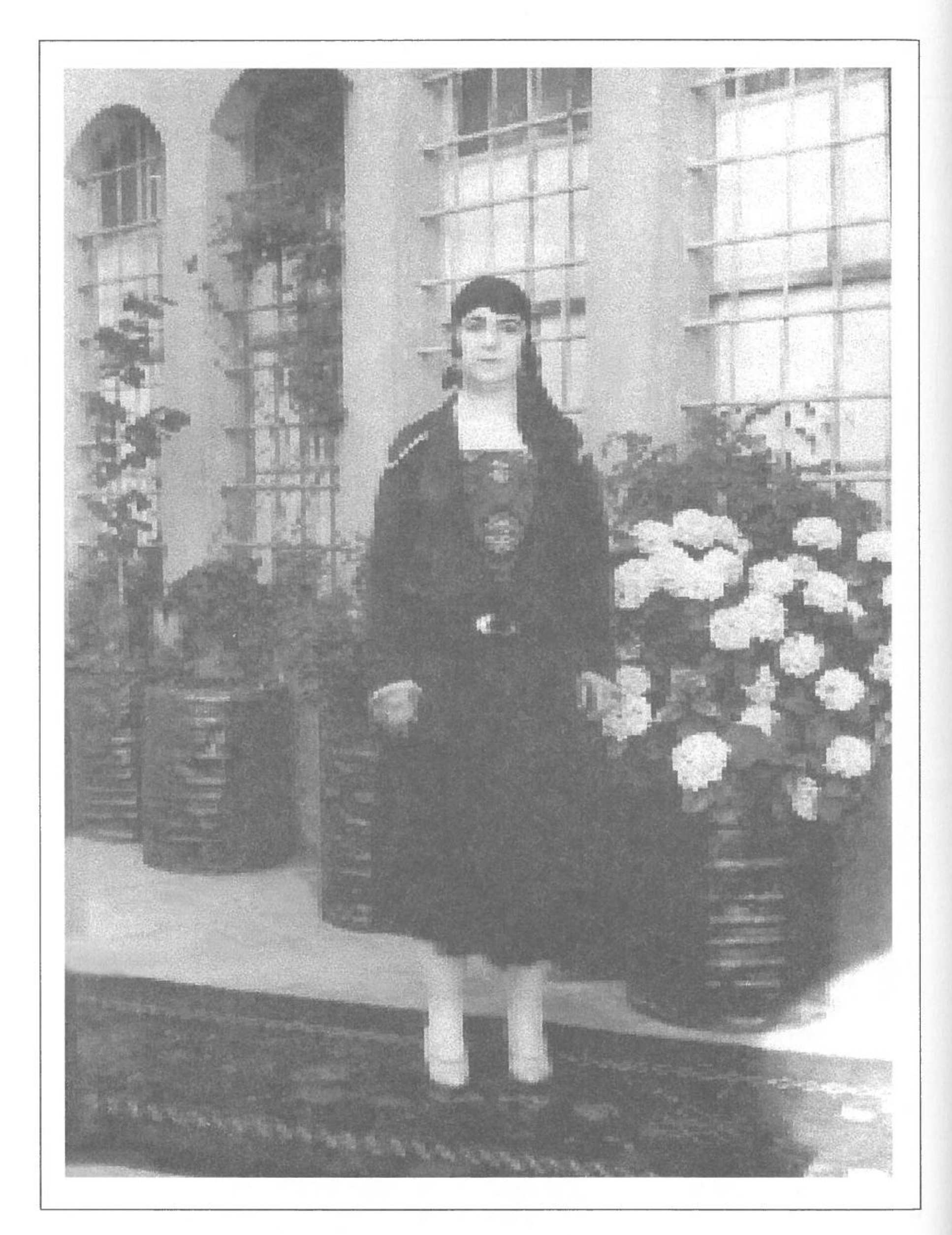
من هنا يمكن القول إن تجربة نظيرة جنبلاط تبقى الأوضح والأبرز والأكثر تمايزاً، من حيث المبدأ، الأمر الذي يدفع الى التساؤل عن ماهية «طريقتها» السياسية، والبحث في الخصائص التي اتسمت بها وساعدتها على القيام بدورها، ومحاولة تحديد حدود هذا الدور في وسطها الاجتماعي الضيق، أو على المستوى المجتمعي الأوسع، وبالتالي توضيح كيفية اكتسابها النفوذ وشيوع سيادة سلطتها في مجتمع مغلق بطبعه.



41. تشير مي إرسلان جنبلاط ومن موقع تجربتها ومعايشتها للأسرتين الإرسلانية والجنبلاطية إلى اختلاف النظرة إلى المرأة عند العائلتين. فالمرأة الإرسلانية، برأيها، مثقفة لكنها لم تتمكن من ممارسة ثقافتها وتشغيلها في الركن السياسي. لأن رجال العائلة لا يفضلون أن تشاركهم المرأة هذه القوة، وهذا كان ظلماً بحقها. بينما في الأسرة الجنبلاطية فالمرأة أكثر انفتاحاً سياسياً واجتماعياً. وهذا ما أدهشها وأعجبها وناسبها في آن واحد. يراجع: نساء 3 تشرين الأول 1981.



الست نظيرة جنبلاط.



أمام مدخل قصر المختارة.



مع ابنها كمال وابنتها ليندا.



مع السيدة مود فرج الله «إلى اليسار» وإحدى الصديقات.

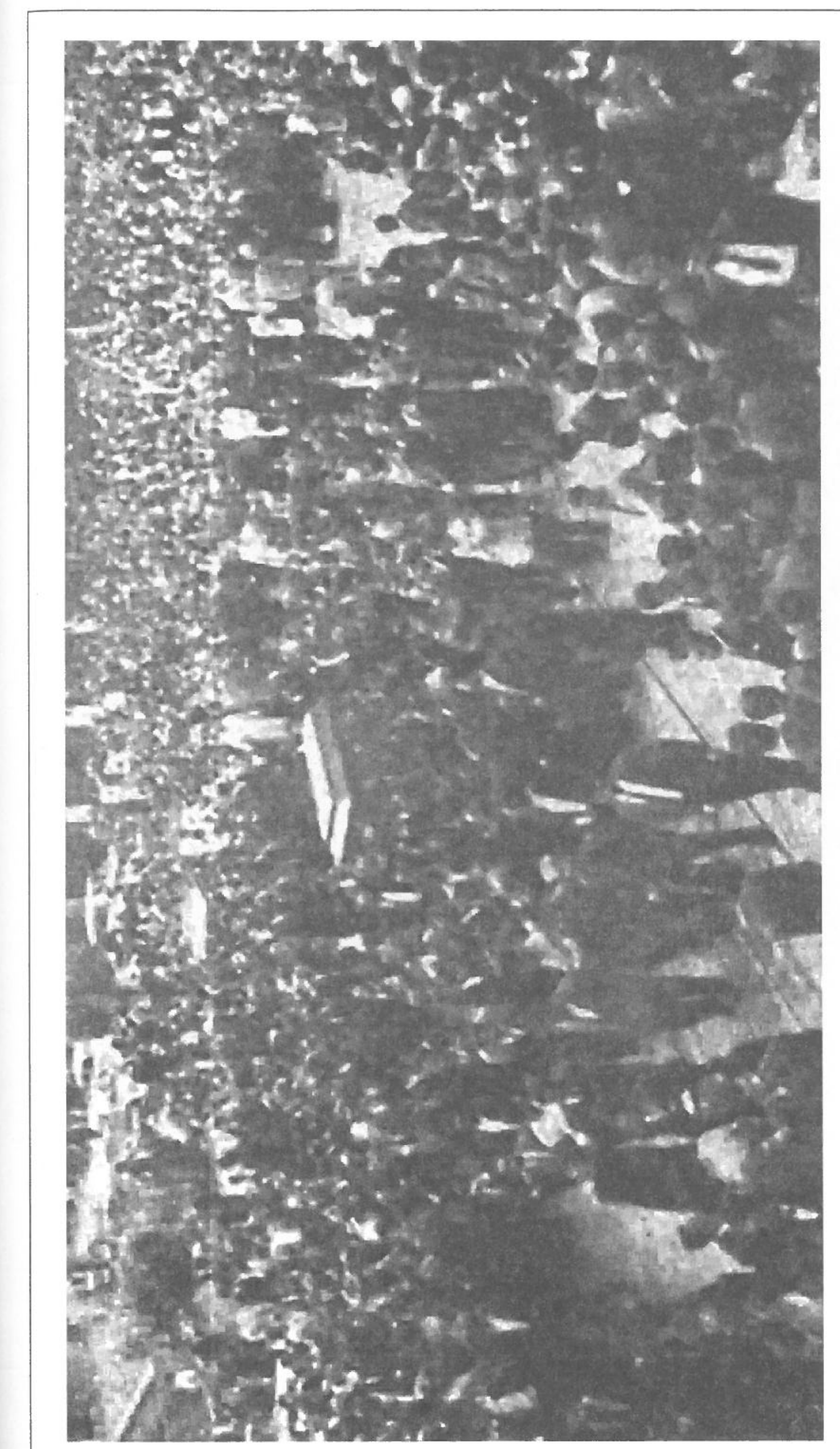


مع زائرتين في القصر.





مع لفيف من الشخصيات بعد تقليدها وسام فرنسي رفيع.



جانب من موكب تشييع الست نظيرة في طريقه إلى شارع الشيخ بشارة الخوري.

## الفصل الرابع

■

# المواصفات والطريقة السياسية

البدايات الأولى لنظيرة جنبلاط كانت خجولة ومتواضعة جداً، نتيجة لقلة الخبرة وضعف التجربة. غير أن مسار التجربة أكسبها دراية كافية بطبيعة الحياة، وجعلها قادرة على التعاطي مع الوقائع ومعطياتها، ومواجهة الأحداث وتعقيداتها بمقدرة الخبير العارف، الأمر الذي كرّسها زعيمة على القصر بلا منازع، فتصدّرت كرسي الزعامة الجنبلاطية بثقة وجدارة.

ان قيامها بدور الزعيم وتحملها مسؤولية الزعامة أثارا وما زالا، نقاشاً، سواء في مضمون الدور، أو في طريقة الأداء بحد ذاته. وإذا كان مضمون الدور يبقى موضوعاً خلافياً وخاضعاً للتأويل، فإن محاولة رصد طريقة إدارتها لأمور الزعامة وقضاياها وأسلوبها في العمل تبقى أكثر وضوحاً وأقل مجالاً للخلاف، كونها تعتمد على الملاحظة والمعاينة المباشرتين.

في الحالتين، فإن التجربة بحد ذاتها، أثارت الاستهجان والتعجب، وطرحت التساؤلات حول المقومات التي ساعدتها على أن تضطلع بمسؤوليتها في ظل الثقافة السائدة. فكيف استطاعت أن تسيطر؟! وكيف استطاعت أن تكتسب كل هذا النفوذ، وبالتالي أن تتفاعل مع مختلف المستويات السياسية والوضعيات الاجتماعية والثقافية؟!

من هنا يتساءل غسان تويني في افتتاحيته عام 1951 عن مكمن هذه القوة.

أتراها تكون من غير قوة القدر تلك القوة التي جعلت نظيرة جنبلاط تلعب الدور الذي لعبته؟ ماذا تراها تكون هذه القوة التي هيأت لسيدة نبيلة صبية وأم لطفلين اثنين أن تخرج من خدرها وقد استشهد زوجها لتمسك بزمام سياسة بيت من أعرق البيوتات اللبنانية، فتنصاع لها الزعامة كما لم تنصع للرجال[1]. إن الموضوع يبدو، بحد ذاته، نوعاً من السر أو اللغز المطلوب حلّه، لأن تصدّر الزعامة شيء والقيام بمتطلباتها شيء آخر.

فقد تطورت شخصية الست نظيرة مع تطور التجربة وتقدمها، وتكاملت مع مرور الوقت وعمق الخبرة، وانتقلت من حالتها العفوية إلى وضعيتها الرسمية–الزعامية. فكيف يمكن توصيف ملامح هذه الشخصية وتحديد أهم مواصفاتها كنقطة انطلاق لتبيان طريقة عملها السياسي، وركائز هذه السياسة وأهدافها العامة؟

## معالم الشخصية

يطغى على الكتابات التي تناولت شخصية نظيرة جنبلاط الوصف الأدبي بكل ما يتخلله من تعظيم وتبجيل ومدح وثناء، كما إن المقابلات الشخصية لم تخرج عملياً عن هذا الإطار بقدر ما أكدته واسبغت عليه المزيد من الصفات والمواصفات الخاصة والمميزة، الأمر الذي يجعل التطرق إلى هذا الموضوع على قدر من الصعوبة، ومعالجته محفوفة بالكثير من المخاطر. ويعود السبب إلى انه من غير الممكن في ظل هذه الوضعية المفعمة بالتعظيم والمضخمة بالمدح المتميز تحديد معالم الصورة أو استرجاع الكثير من الوقائع والمعطيات حول شخصيتها.

إن محاولة تفسير هذا النمط «الأدبي» في التعاطي مع شخصية نظيرة، تعود الى أسباب متعددة وترتبط بعوامل مختلفة، منها ما يتعلق بالتجربة، ومنها ما هو

1. **النهار**، الاربعاء 28 أيار 1951.



ناشئ عن طبيعة المركز في حد ذاته، ومنها ما له علاقة بخاصيتها كامرأة.

في ما يتعلق بالتجربة، فإنه من المؤكد أن المحن التي مرت بها والأحداث التي تفاعلت معها، والمصاعب التي واجهتها، والمواقف التي اتخذتها ومسالك الحياة السياسية في لبنان ودروبها الوعرة وأساليبها المتعرجة باستمرار، قد صقلت شخصيتها، وبلورتها وأكسبتها بالتالي المزيد من القوة، الأمر الذي أسبغ عليها المزيد من المميزات الإيجابية.

أما لجهة خاصيتها كامرأة، فإنه من الضروري الإشارة إلى أن تقدم نظيرة جنبلاط الصفوف الأمامية، أعطاها هالة خاصة في وسطها. فـ«الغرابة» بدأت منذ اللحظات الأولى لتوليها الزعامة في مجتمع لم يتفلت من هيمنة الرجل وسطوته واحتكاره للنشاط السياسي وسيطرته على مختلف مظاهر الحياة فيه، وفي بيئة لم تعتد حضورَ المرأة، من حيث المبدأ، ولم تستسغ مشاركتها في ادارة الشأن العام، فكيف اذا كانت في المركز الأول تأمر وتنهى ولها الكلمة الفصل، وهي صاحبة النفوذ والسلطة فيها؟ هذه الخاصية جعلت الحديث عنها، أو الكتابة حولها مقترنة بالتفخيم والتعظيم، وجعل حضورها محاطاً بالهيبة والوقار. من هنا خاصيتها كامرأة في مجتمع ذكوري بامتياز، ما اضفى على موقعها المزيد من الاحترام والمدح والاطراء.

أما لجهة طبيعة المركز، فإن صاحب السلطة والنفوذ غالباً ما تحاط صورته بكل مظاهر التبجيل والعظمة. فالتعاطي مع موقع الزعامة يفترض تقديراً خاصاً ووقاراً مميزاً وتعابير تبين سمو المكانة ورفعتها، ما يجعل مقاربة الزعامة في هذه الحالة في منأى عن النقد أو التجريح إلى حد بعيد.

وتزداد هذه الوضعية رسوخاً وتتعمق كمسار عندما تأتي الأوصاف من أبناء العصبية ذاتها والغرضية نفسها. فـ«المتزلّم» هنا يسبغ على زعيمه أو قائده كل ما يمكن أن يحسّن صورته ويلمعها.

ولم يخرج المؤرخون الأجانب، من حيث المبدأ، والرحّالة الذين كتبوا عنها

بعد زيارتها والاجتماع بها عن الإطار الذي رسمه لها أتباعها ومحازبوها، بحيث أغدقوا عليها ايضاً، ما يشير إلى فرادتها وقوتها وأهمية دورها. وهم في ذلك كانوا من المتعاطفين معها كونهم نظروا اليها من زاوية الصديق والحليف، وثمّنوا تجربتها من خلال علاقتها السياسية الإيجابية مع فرنسا.

إن محاولة تفسير الطابع الخاص والمميز في التعاطي مع تجربة نظيرة جنبلاط وشخصيتها، لا تهدف إلى التقليل من قدرها أو التشكيك في ما قدمه الآخرون. فالباحث لا يستطيع أن يبخسها حقها، وإن كان من حقه أن يلحظ طبيعة الوصف الأدبي وثقله في التعاطي مع شخصيتها ومقاربة تجربتها ويسعى من موقعه كباحث لتفسير هذا الوضع ومعرفة أسبابه. فاستمراريتها في موقع الزعامة بعد اغتيال زوجها وحتى مماتها (1951) لم يكن إلا دليلاً حسياً على تمتعها بالقدر الكافي من الطاقات والإمكانات والمواصفات الشخصية التي تؤهلها لتولي الزعامة وإدارة شؤونها، خصوصاً أن منافسيها داخل العائلة أو في الغرضية اليزبكية تعرضوا لها من موقع الصراع السياسي وليس من موقع التشكيك أو التقليل من قدراتها. لذلك اعتبرتها مجلة «الخدر» انها مسؤولة لها كل جلال المسؤولية، كما لها كل بلاياها[2].

من هنا، فإن تحديد معالم شخصية الست نظيرة يستند إلى ما قدمته المراجع والمقابلات التي تقاطعت كثيراً في التوصيف لجهة الاطراء والثناء، أو لجهة التوافق على ابراز أهم خصائصها، وبالتالي فإن استنطاق ما كُتب عنها أو ما قيل، يشير من حيث المبدأ، إلى أنها ذات شخصية قوية وهيبة طاغية. تمتلك مؤهلات القيادة وصفات الزعامة من الحكمة والدراية[3]. فكانت امرأة خلابة وقوراً[4] جميلة رصينة متزنة عاقلة، ثاقبة النظر، قديرة مثقفة، فهي «مزدوجة الشخصية».

2. **الخدر**، أيار 1925، الجزء العاشر، السنة السادسة.
3. عدنان الشهال: م. س، ص 9-10 و132.
4. كمال أبو مصلح: م. س، ص 171.



بمعنى أنها عرفت كيف توفق بين إدارة بيتها ومسؤوليتها السياسية. فاضطلعت بدورها وأتقنته[5]، فقد ساهمت نشأتها في بيت الوجاهة والسؤدد ان تتربى على وفرة من الصفات النبيلة المميزة، وعلى ذكاء وفطنة وهيبة وجمال[6].

يقدم فوزي زين الدين وصفاً لتبيان شخصيتها وقوة حضورها فيقول: عندما تلج قصر المختارة، وقبل أن تدخل مجلسها-المقعد[7] تسمع صوتها الجهوري فتعرف مباشرة صاحب السلطة والنفوذ في الداخل. وعندما تصبح في الداخل تجد أن «المقعد» كله رجال وهي بينهم بكل ثقة وجرأة فتشعر برهبة ما وتشعر بحضورها رأساً. فقد كانت قوية الشخصية واضحة الحضور مهما كان الشخص الذي يقابلها[8].

لم تكن كريمة جداً، كما أنها لم تكن بخيلة. بل هي مقتصدة ككل الجبليين. غير أنها سخية جداً مع ولديها. وتُجمع المقابلات الشخصية في هذا المجال على سخائها على أبنائها وشدة عاطفتها تجاههم[9]، إضافة إلى كرمها على الآخرين. فسفرتها، مائدتها، حاضرة باستمرار. وقد كان هذا النوع من الكرم مرتبطاً بطبيعة الزعامة وخاصية قصر المختارة المفتوح دوماً أمام الزوّار، من جهة، ومنسجماً مع العادات والتقاليد المعروفة عن بني معروف، من جهة أخرى. فـ«الطبق» يبقى ممدوداً للقريب والغريب، لكثرة القاصدين من الزوار والمراجعين وأصحاب الحاجات والمؤيدين... الخ.

فقد جمعت في شخصها قساوة أهل الجبال في اخلاقهم وشمائلهم من جهة،

5. يراجع: كليمان غرانكور: **يوميات محارب**، م. س، ص 130.
   - حافظ أبو مصلح: م. س، ص 223-224.
6. محمد خليل الباشا: م. س، ص 40.
7. المقعد أو المجلس أو الديوان حيث تلتقي الست نظيرة بالوفود. وهو عبارة عن قاعة كبيرة الحجم تتسع لعدد كبير من الزوار.
8. تجمع **المقابلات الشخصية** على قوة شخصيتها. كما تذكر مي جنبلاط في «**نساء**» - مجلة - م. س حادثة الشخص الذي اعترف أمامها أنه جاء وفي رأسه خطة لتحوير الحقيقة، لكنه عجز عن ذلك بعد حديثه معها.
9. د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 58.

ولين أهل المدن في حلاوتهم وظرفهم ونعومتهم[10] من جهة أخرى. لذلك اعتبر كليمان غرانكور أن شخصيتها مميزة ورفيعة الشأن. بل تبدو «غريبة» عن محيطها. بمعنى تمايزها «كأميرات العصور الوسطى»[11] من دون تكبر ولا عنجهية. فقد كانت متواضعة وعطوفة. من هنا، يشبهها إيغور تيموفييف بملكات الشرق في بعض النواحي، فهيبة القوام واتزان الحركات يقترنان لديها بعدم التكلف وبساطة الخطاب[12]. وهي جمعت في شخصيتها كل عناصر السيادة والنفوذ، فكان لها صبر الحلم على تفاهة الهنات وحصانة الحكيم في تناول المهمات[13]. فغدت «روح الفولاذ ومولد القوة لنفسها ولجماعتها»[14]. فسمّيت «اخت الرجال»[15] لشجاعتها وصبرها ومقدرتها على التحمّل والتغلب على المحن واحتواء المشاعر المتباينة الهادرة[16] وحنكتها السياسية والقدرة على تسيير الأمور[17]. فعقلها، كما تشير بعض النسوة، «لا يشيله القبان» سواء في الحكم أو الفطنة أو الادارة[18]. فهي تعرف ما تريد وتسعى اليه. فإذا «عزمت على امر فلا

10. كمال أبو مصلح: م. س، ص 171. ويذكر المطرب وديع الصافي في **مقابلة شخصية**. الثلاثاء بتاريخ 25 شباط 2003، بيروت انه كان في التاسعة من العمر سنة 1930 وقد سمح له فقط من بين الموجودين بالدخول الى خدرها وهي مريضة وانشدها شعراً من تأليف استاذ مدرسة نيحا يوسف أبو عجرم هذا نصه:

    يا حمام الدوح بالله ألا     انشد مثلي بلحن مطرب
    واشكر المولى على انعامه     بشفا فخر نساء العرب.

11. كليمان غرانكور: م. س، ص 128.
12. إيغور تيموفييف: م. س، ص 32.
13. **الخدر**، أيار 1925، الجزء العاشر، م.س.
14. **السفير**، 20 أيار 1996.
15. **النهار**: 20 نيسان 1987 ويشير اسكندر الرياشي: م. س، ص 98 الى ان الدروز لهم على مدى الدهور اعجاب بالشجاعة عن اية طريق اتت. وقد وجدوا الشجاعة مجسّمة في تلك السيدة وسموها اخت الرجال.
16. **النهار**، 20 أيار 1996.
17. **النهار**، 20 آذار 1951.
18. **مقابلة** مع مجموعة السيدات: م. س.



تبالي بما يقف في سبيلها من العقبات لأنها تذللها بأية وسيلة»[19].

لقد تميزت نظيرة جنبلاط بذاكرة قوية. وعُرف عنها انها تكاد لا تنسى الوجوه ولا الأسماء ولا الأشخاص. وتتعرف بالشخص من صوته، الأمر الذي جعلها قادرة على الاحتفاظ بالتفاصيل وتخزين المعلومات والمعطيات واسترجاعها مثل «شريط تسجيل»[20]. فعندما تسمع صوتاً ما، فهي لا تحتاج إلى سؤاله مرة أخرى عن شخصيته. ويذكر رامز أبي صعب أن الشيخ نمر تلحوق الذي كان من أركان الغرضية الجنبلاطية حاول مع نسيبه المحامي سليم المقدم «امتحان» هذه المقدرة من خلال تقليد شخص آخر، لكنها استطاعت أن تميز وتستدل على صوت المُقلّد والمُقلِّد»[21].

في هذا السياق، يشير عدنان الشهال إلى استغرابه ودهشته عندما كانت الست نظيرة تتعرف على محدثيها الذين جاؤوا للاطمئنان عن صحتها من خلال أصواتهم. فترد على كل شخص باسمه مستفسرة عن أحواله وأوضاع اسرته وأرزاقه وحتى مواشيه[22]. فإذا زارها وفد من ثلاثين شخصاً فإنها تستمتع للجميع، ثم ترد على كل شخص باسمه وبمضمون ما قاله.

19. **نساء** (مجلة) 3 تشرين الاول 1981، م. س ويدخل في هذا المجال دعوة البريطانيين لتناول الغداء في المختارة بهدف المصالحة. يراجع مود فرج الله: م. س.
20. رامز أبي صعب: م. س. ويشير كمال أبو مصلح: م. س، ص 176 الى ان ذاكرتها كانت وكأنها «أمينة السجل العدلي». ويذكر مالك كامل جنبلاط الى ان ذاكرتها كانت قوية جداً إلى درجة لافتة للنظر ومحط الدهشة.
21. رامز ابي صعب: م. س وتشير مي جنبلاط الى حادثة مماثلة راجع النساء م. س.
22. عدنان الشهال: م. س، ص 17. كما يوضح حسن يونس (مقابلة شخصية) الى ان الوفد الذي زارها في سبلين لتهنئة كمال جنبلاط بالنيابة كان بحدود الاربعين شخصاً. وعمدت الست نظيرة الى سؤال كل فرد باسمه عن عياله وأوضاعه. وهي اذا التقت بشخص لمرة واحدة، فمن الصعوبة ان تنسى وجهه او أسمه. كما تذكر مجموعة من النساء (**مقابلة شخصية**) قوة ذاكرتها وتروي حادثة الصبي ابن السنوات السبع عندما حضر مع والده للتهنئة بزواج كمال جنبلاط، فقبلته وشكرته على حضوره. ثم صادف ان حضر مرة اخرى مع والده يوم مولد وليد للتهنئة فتذكرته وأعطته ليرة ذهباً قائلة له: «عملت معنا واجبين كتّر خيرك».

كما تمتعت نظيرة جنبلاط بالفراسة وسرعة البديهة والذكاء الفطري والمقدرة على قراءة الأفكار[23]. إلى جانب هذه الشخصية «الجدية»، إذا جاز التعبير، فقد كانت تتقرب من الآخرين إلى الحد الذي لا يمس موقع الزعامة ومكانتها، الأمر الذي جعل شخصيتها محببة وصاحبة نكتة[24].

إن هذه السمات الشخصية جعلتها تستحق لقب نظيرة عن جدارة، فهي، كما يقول شكيب ارسلان، «في الحقيقة لا نظير لها ولا نظيرة»[25].

---

23. يشير فوزي زين الدين (**مقابلة شخصية**)، م. س، الى حادثة كان شاهداً عليها فيقول: عندما تزوج الاستاذ كمال جنبلاط من السيدة مي ارسلان جاءت الوفود للقيام بواجب التهنئة. ومن بينها وفد من مجدل بعنا ترافقه النوبة والطبل والزمر. فتقدم أحدهم وبدأ كلامه بالمدح والاشادة بالعريس وزعامته وأطال بمدحه وثنائه. وعندما انتهى قالت الست نظيرة: «ضيّعت وقتك يا فلان بها الحكي» فتعجب وانصدم. وقال: ليش يا ست؟». فردت «لأنك رددت الكلام ذاته اليوم في خلده قبل مجيئك الى المختارة». والحقيقة أنها تعرف الشخص وميوله، الامر الذي جعلها تتوقع ماذا يمكن ان يصدر عنه. خصوصاً وان زواج كمال جنبلاط من مي ارسلان عزز عند البعض فكرة الاستفادة من هذه الوضعية.
24. يذكر رامز أبي صعب: م. س ان وفدا كان في زيارتها فقامت الست بملاعبة الطفلة الصغيرة التي كانت برفقته. لكن الطفلة كانت تبكي وتتهرب، فسألت الست عن اسمها فقالوا أزاهير. فردت الست سموها «طناجير». كما يشير الى مدى اهتمامها به وهو لم يزل طفلاً وبوالدته وعمته عندما كانوا يضطرون إلى المبيت في قصر المختارة لزيارة قريب لهم في سجن بيت الدين. ويبين الغيور ص 61–62 انها كانت تخوض مع الضيوف في أحاديث لا تنتهي، متناولة كل صغيرة وكبيرة. وتهتم بالأخبار المحببة اليها ابتداء بالهمس والنميمة الواردة من صالون عشيقة المندوب الفرنسي السيدة السليطة كيركوف وانتهاء بآخر انباء موضة باريس المعروضة في المتاجر الفاخرة في شارع اللنبي. كما يشير الشيخ نواف ابو علي الى انه تأخر في إحدى زياراته للقصر. فدعته للبقاء وكان الوقت متأخراً فاعتذر فردت: ما بيضيق البيت بواحد زايد، فبقي فطلبت من الخادمة احضار عدة التبولة وقامت بتحضيرها بنفسها وعندما انتهت دعته للعشاء فاعتذر من موقع حمل الثقلة. فقالت: كل يوم حتعمل إلك نظيرة جنبلاط تبولة؟
25. كليمان غرانكور: م. س، ص 130، +ويرد رأي شكيب ارسلان في **اوراق لبنانية** ليوسف ابراهيم يزبك، الجزء الثالث، آذار 1956، السنة الثالثة ص 575–577. ويشير عدنان الشهال: م. س الى ان هدى شعراوي قالت فيها بعد عودتها الى القاهرة عام 1945 «رأيت في لبنان امرأة تتزعم الرجال». ص 132.



فقد صدقت نبوءة الاسم (نظيرة المنظورة في قومها) فكانت منظورة بحق ومرموقة في قومها. فهي «شمس لبنان»[26] أو «المرأة الأسطورة» أو «لبوة الشوفين»[27]. بل هي ست بكل معنى الكلمة. فصدرها الرحب كان الملجأ الحصين لجميع الفئات والمستويات، للأعيان والعامة للرفيع كما الوضيع[28]. لذلك تقول مي جنبلاط (زوجة كمال جنبلاط) إن «سيرة نظيرة جنبلاط سيرة رجل بطل في انوثة امرأة، في وقار شيخ، في شموخ جبل، في صورة أسطورة»[29].

إن الإجماع على قوة شخصيتها وفطنتها حَمَلَ كليمان غرانكور إلى القول: «السيدة نظيرة وحدها عبقرية، سيدتان من طرازها خطر، ثلاث سيدات من طرازها كارثة»، مع ما يتضمنه هذا الرأي من معانٍ ودلالات.

---

26. الحاج شعبان قمبر: مقابلة شخصية، تموز 2002، سبلين، الشوف.
27. **النهار**، 20 أيار 1996، و**نساء** (مجلة) 3 تشرين الاول 1981. ويشير يوسف معوض: م. س، نقلاً عن جدته ان شهرتها في شمال لبنان كانت قوية إلى درجة ان العديد من العائلات كانوا يسمون اولادهم الاناث باسمها. وزوجة النائب والوزير السابق فؤاد غصن من كفرحتا كان اسمها نظيرة تيمناً بالست نظيرة جنبلاط.
   – اورد الشاعر أديب صعيبي في ديوانه قصيدة خاصة بالست نظيرة:
   بعنوان: زعيمة الشوفين جاء فيها:
   حيّوا الزعيمة لَبوةَ ال ... شوفَين وارثةَ العَلاء
   قَرَنت الى النسبِ الرَّفدِ ... ع الأريَحّةَ والذكاء
   وتفرَّدت بنبوعها ... يَهبُ المُهَيمِنُ مَن يشاء
   لو جئتِ في عصرِ الرَّهيد ... ن المَحْبسَيْن «أبي العلاء»
   ودَرى خِلالَكِ لَمْ يَقُلْ ... إلاَّ بتفضيلِ النساءْ
   يراجع أديب صعيبي: الاعمال الشعرية الكاملة، بلاَ طبعةَ، بلا دار، ص 117.
28. مجموعة من السيدات: م. س.
29. رأي الست مي في نساء: م. س. ورأي كليمان في الواقع الدرزي وحتمية التطور، م.س. ص 139

## الطريقة السياسية

إن الشخصية التي «لا تتسع لها حدود الخدر»[30] فرضت نفسها خارج الأطر الضيقة لأحكام العُرف وتقاليده، فأمسكت بزمام الأمور بثقة وجرأة، معتمدة في أدائها نمطاً سياسياً جمع بين العفوية والدراية، وربط بين الواقع المجتمعي ومتطلبات الموقع، فبدت في مجمل أدائها السياسي على معرفة بالمحيط الذي تعيش فيه واطلاع على ظروفه وإدراك لطبيعته وخصائصه وعلى بيّنة تامة من الهدف الذي تسعى اليه، فعمدت في عملها إلى تحقيق نوع من التوازن الذي يبقيها على تواصل مع محيطها من جهة، ويحافظ من جهة أخرى على هيبة الزعامة وموقعها ودورها، ويخدم من جهة ثالثة ما تصبو اليه. من هنا، فإن عملها السياسي اتسم، من حيث المبدأ، بأهم الخصائص الآتية:

### 1. احترام الوسط الاجتماعي

وعت نظيرة جنبلاط بعمق طبيعة الوسط الاجتماعي الذي نشأت فيه، وعرفت بدقة تفاصيل أوضاعه، فغدت خبيرة بعقليته ونفسيته وسلوكياته، وعلى دراية تامة بعاداته وتقاليده، واطلاع وافٍ على كل ما يثيره أو يستحسنه، وما يستفزه أو يرتضيه وما يقبله أو يرفضه.

لقد كانت محط الأنظار ليس لكونها زعيمة الغرضية الجنبلاطية وحسب، بل، ولعل هذا هو الأهم، لكونها امرأة تحتل «موقع الرجال» وتقوم بالدور السياسي المفترض بأنه خاص بالرجل واهتماماته. لذلك أدركت موقعها كامرأة في وسط بيئة اجتماعية محافِظة، وتصرفت على اساس الالتزام بما يفرضه هذا الوسط وتلك البيئة على تصرف المرأة وسلوكها، الأمر الذي وفر لها حماية اجتماعية وساعدها على الصمود وكسب رضى الناس وتأييدهم.

30. الخدر، أيار 1925، م. س.



من هنا، يُلاحظ أن الست نظيرة استنّت لنفسها اتجاهاً واضحاً في السلوك، سواء لجهة الزي (اللباس)، أو لجهة الاتصال بالناس عامة وبالأجانب خاصة.

في موقع الزي – اللباس – فإنها اعتمدت ارتداء ثياب محتشمة لا تختلف في الشكل العام عن غيرها من نساء الموحدين الدروز. غير أنها في مرحلة متقدمة أصبحت تخرج لاستقبال الضيوف الأجانب في فستان «مخملي» على الطراز الأوروبي[31]. وحافظت خلال حياتها على ارتداء غطاء للرأس، واعتمدت بداية على الحجاب ثم الحبرة، ثم استبدلت الحبرة بالمنديل الابيض الشفاف حتى آخر ايامها[32]. ويشير كليمان غرانكور الذي زارها مرة ثانية برفقة زوجته وبناته إلى أنها استأذنتهم خلال الزيارة لإبقاء المنديل عند تناول الطعام بالرغم من أنه ليس من عادات الدروز ابقاء الغطاء على الوجه خلال الأكل. لذلك يشبّهها بـ«الطوارق»[33]. وهذا الغطاء للرأس لا يُظهر إلاّ عينيها السوداوين اللتين تنبئان، برأي إيغور تيموفييف، بالثقة والاطمئنان والفطنة.

أما في موضوع الاتصال بالناس، فإنها اعتمدت بداية على مخاطبتهم من خلف ستار. ويشير اسكندر الرياشي إلى أنها قبل أن تخرج إلى الميدان السياسي بشكل علني، كانت تتدبر سياسة المختارة من وراء ستائر خدرها، وبتكتم واعتزال كاملين؛ ما جعل معظم أهل البلاد لا يعرفون عن قوة شخصيتها ومقدرتها[34]. غير أن هذا الوضع لم

31. يراجع: إيغور تيموفييف: م. س، ص 32.
– كليمان غرانكور: م. س، ص 134.
32. الحبرة عادة هي قطعة قماش من الحرير لونها في الغالب اسود تلبسها النساء خارج المنزل او عند الاختلاط بالجنس الآخر. أما المنديل الابيض فهو غطاء الرأس المعروف الذي ترتديه النساء غير «المشايخ» في طائفة الموحدين الدروز. ويشير فؤاد ميلاد رزق الله، الى انها كانت تضع المنديل الابيض على رأسها، وتحرص على ان تمسك احد اطرافه بشفتيها لتخفي انفها الكبير وتظهر عينيها الجميلتين. وهذا التصرف برأيه ذكاء أنثوي.
33. الطوارق قبائل في شمال الجزائر يعتمد فيها الرجال على تغطية وجوههم (على شكل الحجاب) فلا يظهر غير العينين، في حين ان النساء عندهم يبقين سافرات.
34. اسكندر الرياشي: **قبل وبعد 1918 الى 1941**، ص 96–97.

يستمر طويلاً، لأن طبيعة الموقع ومستلزماته فرضت إزالة الستار والتعامل المباشر مع الوافدين إلى قصر المختارة. وفي خروجها من خدرها خرجت هكذا على التقاليد التي كانت تقضي بتحجّبها؛ لكنها أحاطت عملها هذا بالشيء الكثير من النبالة والكبر والجرأة الجميلة التي يحبها الدروز كثيراً، الأمر الذي جعل الناس، كما يوضح الرياشي، وحتى أشدهم تمسكاً بتقاليد المذهب الدرزي، «يجدون في ظهورها كرامة واعتزازاً لا عصياناً وتحرراً» وبالتالي تصرفاً غير متناقض مع العادات والحياة الدرزية[35].

ضمن هذا الإطار، فإنها عمدت عند مقابلة الفرنسيين أو اتصالها بسلطات الانتداب أو حضور وفود أجنبية، إلى استدعاء شيخ العقل (الشيخ طليع) بشكل خاص أو أحد مشايخ المذهب من بني معروف بشكل عام، لحضور هذه اللقاءات. بمعنى أن اتصالاتها مع الفرنسيين والأجانب كانت تتم بوجود مرجع ديني أو شخص من جماعتها. وبقيت على هذا النمط في السلوك السياسي طوال فترة الانتداب[36].

---

35. م. ن. ص 97. وتشير مود فرج الله: م. س، خلال زيارتها والجنرال هولمز قصر المختارة، جاء وقت الصورة التقليدية، فطلب الجنرال هاتكنز Hatkins من الست نظيرة ان تسمح له بأخذ صورتها، ولم يكن يعلم العادات المتبعة في المنطقة. فقبلت الست بشرط ان اكون واياها فقط في الصورة مؤكدة انها المرة الاولى التي تقبل مثل هذا الأمر. رغم انها شربت نخب انكلترا خلال مأدبة الغداء.
36. تشير بعض النساء (**مقابلة شخصية**، م. س) الى ان خالها كان باستمرار، ومن حيث المبدأ، مع الست نظيرة. وتجمع المقابلات الشخصية على هذه المعطيات ويوضح الشيخ نواف ابو علي، مقابلة شخصية، الى ان الشيخ صالح فرحان العريضي كان يحضر مثل هذه اللقاءات. ولمزيد من التفاصيل حول زي (لبس) نظيرة جنبلاط واتصالاتها يراجع:
    - إيغور تيموفييف: م. س، ص 32.
    - د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص 53-54.
    - عفيفة صعب: **في الواقع الدرزي**: م. س، ص 136-137.
    - ناديا الجردي نويهض: م. س، ص 76.
    - كليمان غرانكور: م. س، ص 134.
    - حافظ أبو مصلح: م. س، ص 226.
    - **النهار**، 28 نيسان 1987.



إن هذا التصرف يتضمن، من حيث المبدأ، بُعدين: الأول اجتماعي، بحيث يبين طبيعة النظرة المجتمعية للمرأة وضرورة التزامها بما تفرضه عليها البيئة الاجتماعية، مهما كان موقعها. والثاني سياسي بامتياز، بحيث تبين، من خلال حضور رجل دين خصوصاً أو شخص آخر بشكل عام، مدى تماسك المتحد الدرزي حولها ووحدة الغرضية الجنبلاطية سياسياً ودينياً.

إن طريقة الاتصال بالناس واكبت كيفية التحول في الزي - اللباس - بمعنى أن مرحلة الحجاب[37] رافقت مخاطبة الناس من خلف ساتر. ومرحلة الحبرة تماشت مع البدايات الأولى للظهور العلني والتحدث مع الزوار. ومرحلة المنديل ارتبطت بمرحلة التسليم باليد[38]. وفي الحالتين (الزي والاتصال بالناس)، كان تصرف الست، برأي محمد خليل الباشا، تأكيداً على «المحافظة على تراث عشيرتها وعلى آدابهم وتقاليدهم»[39].

وتدعيماً لهذا النمط في العمل السياسي، فإنها لم تكتف بمراعاة العادات والتقاليد الاجتماعية في الوسط الدرزي، بل عمدت أيضاً إلى إظهار حرصها على التقاليد الدينية المتبعة عند الموحدين الدروز وسعت للمحافظة عليها،

---

37. يشير البعض (د. خليل أحمد خليل، عفيفة صعب، ناديا نويهض...) الى انها احتفظت بحجابها الأسود حتى بلغت الخامسة والخمسين من العمر، فاستبدلته بآخر ابيض. أي بقيت ترتدي الحجاب الاسود إلى العام 1945 تقريباً. غير ان المعطيات تبين ان ارتداءها المنديل الابيض كان في أواخر العشرينات. وفي هذا الصدد يوضح فوزي زين الدين (م. س) أنها اعتمدت المنديل مباشرة بعد الحبرة، وكان يسقط بين الفترة والأخرى على كتفيها فتعمد الى رفعه وتثبيته. كما ان كليمان غرانكور (م. س) يشير الى ان هذا المنديل كان شفافاً. ويعتبر شفافيته دليلاً على التمدن الذي عرفته المنطقة. ويوضح انها كانت ملتزمة لا تزيل المنديل عن رأسها.
38. يوضح ابراهيم عبدالله (م. س) أنها كانت ترتدي كفوفاً (غطاء لليد) وأنها لجأت إلى ذلك بعد أن حضر وفد فرنسي لزيارتها فارتبكت كيف يمكن أن تصافحهم. فإذا سلّمت باليد انتقدها المشايخ، وإذا لم تسلم باليد اعتبرها الفرنسيون متخلفة. لذلك اقترح عليها شخص من آل البستاني إرتداء الكفوف فحُلت المشكلة. غير أن هذه المسألة لها أكثر من وجهة نظر.
39. محمد خليل الباشا: م. س، ص 405-406.

فالاهتمامات السياسية والدنيوية لم تلغ التزاماتها الدينية. لذلك حرصت على إبقاء المجلس-الخلوة كمركز ديني قائماً في قصر المختارة بكل ما يتطلبه هذا الإبقاء من أعباء والتزامات ومراعاة لأصول الدين وتعاليمه[40].

## 2. التواصل مع الناس

عمدت الست نظيرة في أدائها السياسي إلى إقامة علاقة طيبة مع الناس. فقد أكسبتها التجربة معرفة بأهمية أن يكون الزعيم على تواصل مع مؤيديه ومناصريه، فحرصت على مراعاة هذه القاعدة في عملها وإتقانها على أحسن وجه.

وإذا كان قصر المختارة، كغيره من البيوتات الإقطاعية التقليدية في لبنان، مفتوحاً أمام الزوار وله في هذا المجال تراثه وتقاليده العريقة، فإن نظيرة جنبلاط عمّقت هذا الاتجاه ورسخت هذا التقليد. فقد وعت اختلاف الظروف في مرحلة الانتداب عما كانت عليه في المراحل السابقة، لا سيّما وأن القرار السياسي الذي اتخذه الفرنسيون في إقامة دولة لبنان الكبير قد فرض تحولات مهمة على حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية... الأمر الذي وسّع دائرة المراجعين والزوار لقصر المختارة، سواء على مستوى المحيط الاجتماعي المباشر، أو على مستوى المنطقة أو على المستوى الوطني العام.

من هنا، فإن قصر المختارة شرّع أبوابه في وجه قاصديه في كل الأوقات، وبالتالي فإن زيارات الناس ومراجعاتهم لم تكن تتم بناء على موعد مسبق، لغياب وسائل الاتصال الحديثة من هواتف وسيارات.

40. يؤكد عدنان الشهال (م. س) أن الست نظيرة كانت تصر على القيام بواجباتها الدينية من خلوات وعبادة حتى ولو كان الأمر على حساب صحتها. ص 23 و25. وتؤكد في رسائلها إلى والده على ضرورة الالتزام بالصيام كونه أمراً مقدساً ص 29، كما يشير كمال أبو مصلح (م. س) ص 178-188 إلى أن قصر المختارة كان يعج بالأجاويد يوم الجمعة.



يصف كمال أبو مصلح، بصورة «أدبية وشاعرية»، زيارة إلى القصر، فيشير إلى أن الخولي (وكيل القصر) يستقبلك أولاً ثم تحضر الست نظيرة... وتسألك عن صحتك وأحوالك وعمن فارقت بعبارة موجزة مألوفة مكرورة وتخطو من دون أن تقترب منك. فتقعد إزاءك تنتظر أن تعرف أي حاجة جئت لتلتمسها أو أن تسمع قولاً أزمعت أنت أن تقوله... ثم تفارق المختارة وقد ارتسمت في قلبك صور ثلاث: صورة القصر المنيف العامر المجيد، والمرأة الخلابة الوقور، ووجه الصبي[41] (يقصد كمال جنبلاط).

كما تُجمع المقابلات الشخصية والمراجع على أنها كانت تحيط الضيوف والزوار والمراجعين والمناصرين بالكثير من الترحاب وتُحسن استقبالهم وتتبادل معهم أطراف الحديث. فقد عُرف عنها اللياقة وحسن التصرف والمقدرة على المسايرة. وتبدو هذه المواصفات من سمات المتحد الدرزي وخصائص المجتمعات القبلية والعشائرية، بحيث يبدو الاهتمام بالضيف أمراً مُفرغاً منه وبديهية في سلوكيات هذه المجتمعات وذهنيتها وعلاقاتها الاجتماعية.

ومن اللافت إلى النظر أنها كانت تبدي اهتماماً بأبناء محيطها الاجتماعي عموماً وأفراد الغرضية الجنبلاطية خصوصاً، وتشعرهم بأنها تتابع أخبارهم وأنه يهمها الاطلاع على أوضاعهم والاطمئنان إلى صحتهم وأعمالهم ومعيشتهم، وأنها على معرفة شخصية بكل فرد منهم. لذلك تعمد إلى أن تسأل كل شخص عن وضعه وظروفه. وقد شَهِد لها بشير بهيج الخطيب في حفل تأبينها إلى أنها كانت تُحدّث زائريها وتسامرهم، وتسأل عن الصغير والكبير من شؤونهم، ولا تغفل الاستعلام عن مريض منهم أو غائب عنهم وعن جودة مواسمهم وحالة مواشيهم، وإلى غير ذلك من صميم الشؤون المنزلية[42].

41. كمال أبو مصلح: م. س، ص 136 و190.
42. **النهار**، 1 نيسان 1951.

كما يوضح حسن درويش يونس أن وفد سبلين الذي زار المختارة لتهنئة كمال جنبلاط بفوزه بالنيابة في العام 1943 كان يتألف من أكثر من أربعين شخصاً. وقد عمدت الست إلى أن تطمئن عن كل فرد منهم وتسأله عن عياله وأوضاعه... كما إنه يتذكر عندما زارت بلدتهم في أواخر العشرينيات وتجمّع الأولاد لرؤيتها، فإنها رفضت إبعادهم وطالبت بإدخالهم إلى مجلسها ولاطفتهم وأكرمتهم وسألتهم إذا كانوا يذهبون إلى المدرسة[43].

لقد تنوعت أهداف زيارة قصر المختارة ومراميها بالنسبة إلى عامة الناس، فمنهم من جاءت زيارته في سياق الولاء وتأكيده، أو طلباً لمعونة أو خدمة على اختلاف أنواعها أو حلاً لخلاف... إلخ. من هنا فإن زعيمة القصر كانت تتابع كل هذه القضايا وتوفر ما يلزم من مساعدة. فمن شروط الزعامة التقليدية في مجتمعنا أن يكون الزعيم هو المرجع في كل المسائل ويؤمن لأتباعه الخدمات والمساعدات

43. حسن يونس: م. س. ويروي كشاهد أنها عندما زارت سبلين في العشرينات، وكان عمر كمال جنبلاط في حدود العشر سنوات، تجمع الأولاد في القرية لرؤيتها. فحاول الشيخ ابراهيم سعيد شعبان إبعادهم حرصاً على راحتها، فطلبت منه إدخالهم إلى حيث تقيم وطلبت «تنقيلهم»، كضيوف، ملبّس على لوز. فأنشدها «حسن يونس» وهو لم يزل طفلاً بعمر 13 سنة ما يلي:
يا سيدا جاءنا وأنار به المكان
وجهه لما بدا لي في معانيه الحسان
من مجاليه العوالي قلت نفسي في الجنان
فأحاط البيت أنس في سرور وأمان
فأجمع الأفكار فينا زاك تفتيت الزمان
فعليك مني سلاماً مع كمال الحق بان».
فأعجبت بما قاله ونقدته خمس ليرات، عندها أنشد مرة أخرى ما يلي:
بنت المكارم بين المكارم وسط كفك منزلي
وجعلتي مالك للأتام مباح
اذا المكارم قفلت أبوابها
كانت يديك لقفلها مفتاح
فصفقت من حولها من النساء ورددت عفاك برافو يا حسن.



اللازمة التي تساعدهم على تحسين أوضاعهم الحياتية والمعيشية وتيسيرها بطريقة أو بأخرى. ويوفر هذا النمط من التعامل مع الناس الدعمَ اللازم والتأييد المطلوب والمساندة الضرورية للزعيم. بل يمكن القول، من حيث المبدأ، إن درجة الولاء لهذا الزعيم أو ذاك تقاس بمدى الخدمات والمساعدات التي يوفرها لجماعته. فالعلاقة نفعية بين الزعيم والناس، أو لنقل إنها تبدو علاقة طردية بين التأييد والخدمات. وتزداد هذه الوضعية رسوخاً في ظل ترهّل عمل المؤسسات وتراجع العمل بالقوانين وهامشية حضور الدولة وغياب فكرة المواطنية وثبات البنى التقليدية والطائفية والمذهبية، الأمر الذي يجعل الزعامة ترتكز على قاعدة النفوذ والعصبيات الأولية، وليس على أساس البرامج والتخطيط لقيادة المجتمع وتطويره وتنميته.

وإذا كانت ظاهرة الزعامة التقليدية من سمات مجتمعنا، فإنها تبدو أكثر بروزاً في المتحد الدرزي لاعتبارات متعددة، فتغدو ظاهرة لا يمكن للطائفة أن تسير بدونها أو ضرورة لا غنى عنها، الأمر الذي يجعل موقع الزعيم على قدر كبير من الأهمية من جهة، ويجعل العلاقة بين الزعيم ومؤيديه أكثر خصوصية من جهة أخرى. وتتمظهر هذه الوضعية على أشدها في منطقة الشوف، كما تشير مجلة **الخدر**. فمن أتفه ا لمشاكل إلى أجلّها يجب «أن يمد إليها الزعيم إصبعاً أو يخوض فيها حتى العمق». وهو برأي المجلة، ضعف عام و«ضعف وراثي» تناوله الجيل الحاضر عن الأجيال التي تقدمته وأنشأته عليه ووضعت في يقينه أنه غير قادر على المسير خطوة واحدة إلاّ بإرادة الزعيم وإلمامه[44].

من هنا، فإن سيدة القصر خَبُرت هذه المسائل واعتمدتها في أدائها السياسي. لذلك يشير إيغور تيموفييف إلى أن بهو قصر المختارة كان دوماً يغصّ بالمراجعين؛ ولا أحد ممن يأتي طلباً للنصح أو المعونة يعود خائباً. فالمعوزون يغادرون المختارة وقصرها مزوّدين بالمال لحفل زفاف أو لجنازة، والجيران المتخاصمون يترددون

44. **الخدر**، أيار 1925، الجزء العاشر، م. س.

على الست لتسوية خلافاتهم، والأزواج يجدون سبل الصلح مع زوجاتهم، والمجرمون التائبون، برأيه، يتلقون منها رسائل موجّهة إلى الحاكم العسكري في الشوف للعفو عنهم أو لتخفيف العقاب[45]... إلخ.

ويؤكد وجدي ملاط في حفل تكريم الست نظيرة بدعوة من الملتقى الأدبي في عاليه، أن الأحاديث تزاحمت في كل مكان عن أسلوبها الفريد في الزعامة، وعن معايشتها لهموم الناس وشجونهم والمشاركة في قلقهم أمام طوارئ الحدثان، ومؤازرتها لهم غير المنقطعة في تحمل أعباء الحياة[46]، الأمر الذي جعل الناس، كما يقول نجيب شمس، تراجعها في كل الأمور والقضايا، بدءاً من الخدمات وصولاً إلى ما يحافظ على كرامة الطائفة. فقد أدركت، برأي كمال جنبلاط «... آنذاك أن الدروز بدون قائد»، فضحّت «بعافيتها لكي تخدم الناس ليلاً ونهاراً»[47]، فأصبحت محجّة للجميع من مسيحيين ومسلمين ودروز[48].

لقد عمقت أسلوبها في العلاقة مع الناس ليس من خلال إبقاء أبواب مقرها مفتوحةً

45. يشير الشيخ حسن الدبيبسي: مقابلة شخصية، إلى أن كامل أبو علي وقاسم زيدان تقدما للدرك: الأول من حماية الست والثاني من معلم كامل أن وساطته لم تنفع فقصدها مرة ثانية، فاتصلت بالمسؤول نور الدين وكان لها ما أرادت. كما يشير الشيخ نواف أبو علي: مقابلة شخصية إلى أنه وقعت له حادثة فحولوه لمحكمة الجنايات فكلفت ثلاثة محامين للدفاع عنه، معضاد معضاد من بزبدين، وقاسم عمار من الباروك، وفريد أبو شقرا من عماطور، وتحملت التكاليف وحكم عليه بليرة وترك. يراجع إيغور تيموفييف: م. س، ص 32-33.
46. **النهار**، 20 أيار 1996
47. **قضايا المرأة** (مجلة) 8 آذار 1977.
48. نجيب شمس، وتجمع المقابلات كافة على هذا الأمر. ويذكر الحاج شعبان قمير (مقابلة شخصية) ردية كانت معروفة هي التالي:

| | |
|---|---|
| الست نظيرة يا سعد من زارها | جنة الفردوس بتكون دارها |
| آيات ربي ترسمت عابلاطها | وشملت شيوخها وشبانها |
| وعاجبل لبنان عملت إحتياط | وشملت الشعب كلو بأنظارها |



أمام المؤيدين والمناصرين وأبناء المحيط، بل أمام كل قاصد وسائلٍ وغريب. فلم تكن ترضى أن يمر أي شخص في المختارة ويسأل بمجرد الاستفسار عن القصر وأهله إلاّ ويلجه. بل إنها عمّمت على الأهالي بأن كل مَن «يسأل عنا» يجب إرشاده إلى القصر لكي «يتعرف علينا ويرانا»[49]، الأمر الذي جعل شهرتها تتعدى حدود منطقتها[50].

إضافة إلى ذلك، فإن طريقتها السياسية في التواصل مع الناس تجنّبت، من حيث المبدأ، الانفعال[51] من جهة، وأخذت الناس على قدر

49. فوزي زين الدين: م. س.
50. يروي الحاج شعبان قمير: م. س حادثة جرت معه عندما ذهب لشراء الغلة من الجنوب. فاستضاف في بيت من آل درويش في زفتا. وخلال السهرة سأله أحد الحاضرين واسمه أحمد (لا يذكر الكنية) عن بلدته. فأجابه أنه من سبلين. فرد أحمد من عند نظيرة جنبلاط، يا عمي أنتم مكبرينا كثير لنظيرة. فرد شعبان قصدكَ الست نظيرة، عندها أخذ الكلام أحد الحاضرينٍ واسمه محمد دعجه من الرفيد موجهاً كلامه لأحمد. وأنّبه على عدم احترام الست قائلاً إنه كان مثله لكنه عرف الست بعد أن قصد قصر المختارة وبقي في ضيافتهم ثلاثة أيام، مردداً: ما في متل الست نظيرة في كل لبنان.
كما يذكر د. يوسف معوض: **مقابلة شخصية**، الاحد 10 آب 2003، بولونيا، المتن نقلا عن جدته لوالده أنها قصدت الست نظيرة من إهدن إلى المختارة طلباً لمساعدتها في قضية عالقة في بيت الدين، فلقيت الترحاب والاهتمام منها.
51. يشير فوزي زين الدين (م. س) إلى أن الست نظيرة أرسلت في أحد الأيام خبراً لجده ليأتي إلى القصر. وعندما حضر قالت له: بدي بشرك يا شيخ أبو عجاج عندما يتحسن الطقس ستأتي فرقة الهندسة من الجيش الفرنساوي ويباشروا بشق الطريق من المختارة إلى بطمة. فرد جدي بانفعال: شو إنتِ خوتا يا ست فأجابت بهدوء: كيف بتقول هيك؟ فقال: بدك الجيش الفرنساوي يطلع على بطمة يتفرج على نسوانا. فقالت: يعني ما بدكم «الكروسة» – الطريق. فقال نعم لا نريدها. وهكذا كان. وتأخرت الطريق حوالى ثلاثين سنة. اللافت للنظر أنها لم تنفعل أو تزعل منه أو تأخذ موقفاً بالرغم من أن كلامه كان بحضور مجموعة من الناس.
كما يذكر حسن يونس (م. س) أنهم عندما ذهب وفد سبلين لتهنئة كمال جنبلاط بالنيابة وبعد السلام والكلام، قال والده الشيخ درويش (مختار الضيعة الذي عينته الست): يا ستي إللي إجو هنو كمال بك بالنيابة هودي بلا عقل بالمرة ونحن أولهم. فلم تنفعل. فتهامس الحاضرون، وردت: ليش بلا عقل يا مختار؟ فقال الوا لد: لأن الشخصية أكبر من الرتبة. شو يعني نائب قدام كمال جنبلاط. عندها وقفت وقالت على الملأ: قل تحيا يا شيخ درويش». عفاك هيدي الشاعر ما قالها. وهيدي الكلمة أحسن من كل اللي اجو هنو.

عقولها[52] من جهة ثانية، وعمدت إلى الدخول في تفاصيل الحياة الخاصة مع أبناء جلدتها[53] من جهة ثالثة، وتوخّت، من جهة رابعة، تقديم المساعدة لكل من يقصدها. لذلك تشير مي جنبلاط الى أن الست نظيرة كانت تقول لها: «يا كنتي إن الزائر الفلاني ليس من يمنا [أي إنه ليس من سياستنا] ولكن علينا مساعدته فقد دخل دارنا»[54].

انسحبت علاقاتها الإيجابية مع الناس على علاقتها بالفلاحين الذين يعملون في أرضها كمرابعين أو شركاء. وهذا ما حاول أن يؤكده بعض الفلاحين من سبلين، وأشاروا إلى أن معاملتها لهم كانت جيدة وتعاملها معهم كان لائقاً. وكانت تحرص باستمرار على الاهتمام بهم كثيراً والاستفسار عن أوضاعهم عند قيامهم بزيارتها في المختارة أو مراجعتها في مسائل الأرض والغلة[55]. غير أن هذا

52. يروي فوزي زين الدين (م.س) أنه عندما أحضرت مولداً كهربائياً للمختارة وقّع بعض الأهالي عريضة ضدها ومن بينهم أبو محمود وهو موجود بشكل دائم في القصر. فأحضر أحد المسؤولين العريضة للست، فاستدعت أبو محمود وسألته على ماذا وقّعت؟ فقال لا أعرف. فشرحت له الموضوع وسألته هل ما زلت معترضاً على الموتير. فأجاب بالنفي وسحب توقيعه.

53. يروي فوزي زين الدين (م. س) أنه من العادة ان يقوم بزيارتها نساء من بطمة فتسأل عن أولادهن وأحوالهن وأوضاعهن وإنتاجهن وتستفسر عن كل شيء. فتستغرب بعض النساء، فتقول الست بعد بدكم أولاد؟ وتكون المرأة التي تركز عليها في الأسئلة حامل. وتشير الست إلى أن الله رزقكم والمطلوب الاهتمام بالموجود وتربيته.

54. **نساء** (مجلة)، 3 تشرين الأول 1981، م.س.

55. يؤكد هذا الموضوع الحاج شعبان محمد قوبر وحسن يونس. ويذكر الأخير أن الخولي في سبيلين اقترح مرة أن يساهم الفلاحون في دفع ثمن الأسمدة للزيتون. فاعترضوا بتحريض منه وكان لهم ما أرادوه. كما يؤكد إسكندر الرياشي م.س، ص 98 إلى أن الست فرضت إرادتها على القرى التابعة لإقطاعيتها بمساعدة الفرنسيين. غير أن إرادتها هذه توجهت بالأكثر نحو الخير والإخلاص للبنان وفرنسا. ومقارنة مع من سبقها من المشايخ الجنبلاطيين فإنها كانت تفرض إرادتها بطريقة صديقة ودية إلى درجة خلقت تقارباً حبياً بين الجانبين ما جعل الأهالي يعتبرونها زعيمة صديقة لا أميرة مطلقة. وهذا ما غفر لها لتركها تقاليد التحجب والانشغال بالامور العامة التي هي من شأن الرجال.



الرأي على أهميته، له ظروفه ومن الصعوبة الاطمئنان اليه واعتماده بشكل مطلق لتوضيح طبيعة علاقة الست مع الفلاحين، أو اعتماده كمنطلق لتبيان حقيقة هذه العلاقة ونمطها؛ باعتبار أن المعروف عن السلطة الإقطاعية في مجتمعنا، كما في غيرها، انها ترتكز في الأساس على القهر والتسلط وتعتمد في الجوهر على التحكم والاستغلال وعلى استلاب إرادة الفلاح.

وتجدر الإشارة إلى أن الطريقة السياسية التي اختطتها سيدة المختارة في تواصلها مع الناس استندت إلى اتجاه واحد في مسارها. بمعنى أن سيدة القصر لم تكن، من حيث المبدأ، تخرج من قصرها، وزياراتها خارجه قليلة جداً، إذا لم نقل نادرة. وفي حال حدوثها كان يرافقها موكب. أما في المناسبات الخاصة (ولادة، فرح، وفاة...) فإنها كانت تُرسل مَن يقوم بالواجب. فقد كانت في هذا المجال، كما يقول البعض عنها، «جبارة خواطر»[56].

بناء على هذه الصورة، فإن الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والسياسية، يقصدونها إلى قصرها. وإذا كان هذا النمط في العلاقة هو الغالب بين الزعيم وأتباعه، فهو تعزز أيام الست كونها امرأة، ما جعل العلاقة مع الناس تتخذ خطاً واحداً، أي من الناس باتجاه القصر، وليس العكس[57]. غير أن هذه

56. مجموعة من السيدات: م. س. ويبدو أن خروج سيدة القصر من عرينها كان نادراً جداً. ويولد في حال حدوثه الاهتمام والمتابعة، خصوصاً إذا تخطت نطاق الشوف. لذلك تشير صحيفة **الجبل** بتاريخ 7 نيسان 1943 إلى خبر زيارتها لبيروت كحدث مميز. وتذكر الصحيفة في أخبار أنباء بيروت أن سعادة السيدة نظيرة جنبلاط ما برحت منذ وصولها إليها موضوع حفاوة الأعيان وتكريمهم. ويغص منزل معالي حكمت بك جنبلاط بالوافدين إليه للترحيب بالسيدة الكريمة والاحتفاء بها. وتوضح الصحيفة أنه لم يصل إليها السبب الرئيس لهذه الزيارة التي تقوم بها سعادتها وهل لها علاقة بالموقف السياسي والانتخابات أم لأسباب خاصة؟

57. من المتعارف عليه في العلاقات التي تحكم الإقطاعي بالفلاحين ان يقوم الناس بزيارة قصر المختارة خاصة في المناسبات كواجب اجتماعي-سياسي. ويذكر الحاج ابراهيم عبدالله (م. س) أنه كان يانعاً عندما شاهد سجالاً بين بعض شباب أحد الوفود من المتن وشيوخه في بيت الدين جاء في عيد الأضحى لمعايدة أقرباء لهم في عينبال. فقرر =

الحركة لم تقتصر على عامة الناس بل شملت العديد من المثقفين الذين يزورون لبنان فيعرجون على قصر المختارة ويلتقون سيدته[58].

إن هذا النمط من العلاقة شمل الأجانب أيضاً، سواء لجهة المسار أو لجهة الطبيعة. فأصحاب السلطة ورجال الحكم والزوار هم الذين يقومون بزيارتها فتُحسن استقبالهم وتبدي الكثير من الاهتمام بهم؛ الأمر الذي ترك آثاره الإيجابية في نفوسهم. وقد أشار كليمان غرانكور إلى أنها كانت محبوبة وتجيد الحديث وكان اللقاء معها مُشوقاً[59]، فتبدأ دوماً بالترحيب بضيوفها «بالفرنسية»، وبعد الانتهاء من الترحيب والاستفسار عن الصحة تتحدث «باللغة الانكليزية»[60].

= قسم من الشباب زيارة الأقارب أولاً، بينما رأى المشايخ ضرورة زيارة الست أولاً. ولاحظ إصرار الكبار وتعليلاتهم لإقناع الشباب، وهكذا تم الأخذ برأي المشايخ بعد جدل طويل.

58. ورد في «**ديوان الخليل**» إنه خلال رحلة الشاعر خليل المطران في صيف 1924 إلى لبنان، حيث لبى دعوة جمعية تنشيط اللغة العربية في الجامعة الأميركية، ألقى في المناسبة قصيدة بعنوان «نيرون» وأعقب الحفلة حفلات متلاحقة أقيمت في بيروت تكريماً للشاعر واشتركت فيها أندية ومعاهد علمية. ومن بيروت استجاب الشاعر دعوات متعددة في سائر أنحاء لبنان وسوريا وفلسطين. وكان من أهمها في لبنان رحلة زحلة وبعلبك (مسقط رأس الشاعر) ورحلة أرز الجنوب (المختارة) وجزين. وقد أنشد قصيدة بعنوان «أرز الجنوب» تحية منه للطائفة الدرزية الكريمة حين زار أكابرها في المختارة مجتمعين في قصر السيدة نظيرة جنبلاط، وكانت الزعيمة المطاعة المحترمة في مختلف طبقات الأمة. ومما جاء في هذه القصيدة (أرز الجنوب) عن الست نظيرة ما يلي:

يَا رَبَّةَ القَصْرِ الذَّي نَهَضَتْ بِهِ ... عَلْيَاءُ تَنْمِيهَا أَعَدُّ مَنَاسِب
هَذي إِلَيْكَ تَحِيَّةٌ مِنْ شاعر ... لِعُلاَكَ بِالأَدَبِ الأَتَمِّ مُخَاطِب
يُثْنِي عَلَيكَ وَيَحْفَظُ الذِّكْرَى لِمَا ... أَسْدَيْتِ بَاقِيَ دَهْرِه المتعاقِبَ
مِنْ زَائِرٍ لَمَحَ التُّقى مُجَلِّياً ... كَالنُّورِ مِنْ سِسْرِ الجَلاَلِ الْحَاجِب

كما تشير **لسان الحال** بتاريخ 3 تشرين الأول 1932 أنَ الشيخ أدمون بليبل قابَلَ السيدة نظيرة جنبلاط مع شيخ اللغة العربية الأب انستاس الكرملي أثناء رحلته إلى الجنوب.

59. كليمان غرانكور: م. س، ص 134.

60. إيغور تيموفييف: م. س، ص 32.



في مطلق الأحوال، فإن نمطها السياسي في العلاقة والتواصل مع الناس وفّر للست نظيرة أرضية صلبة، وقوّى عصبيتها، وعزّز زعامتها وموقعيها السياسي والاجتماعي.

### 3. الاعتماد على المقرّبين

ارتكز الأداء السياسي للست نظيرة في إحدى قواعده على مجموعة من المقربين المحيطين بها، الذين يمكن اعتبارهم من أسس الغرضية الجنبلاطية وأعمدتها الراسخة، بحيث يمكن الاعتماد عليهم والاستئناس برأيهم وأخذ مشورتهم في القضايا المهمة، فيشاركونها في معالجة المسائل الطارئة والأحداث المفاجئة ويقدمون وجهة نظرهم لتحديد الاتجاه العام لمسار العمل وحلحلة المشاكل وحل الإشكالات ومعالجة الخلافات.

ومن الجدير ذكره أن هؤلاء الأشخاص لا يمكن اعتبارهم «هيئة قيادية» ولا هيئة «استشارية» بالمفهوم المتعارف عليه حديثاً، لأن الغرضية الجنبلاطية وإن عبّرت عن اتجاه سياسي وانقسام مجتمعي أو اندرجت في «إطار» شعبي له «هويته» السياسية وخياراته العامة، غير أنها لم تتبلور كحزب سياسي بالمفهوم العصري للحزب السياسي. فقد بقيت قاعدة الانتماء إلى هذه الغرضية والانضواء في تيارها العام يستند إلى الإنتماءات الأولية وعصبياتها التقليدية. وبالتالي، بقيت كغرضية خارج أسس التنظيم السياسي الحزبي، مفهوماً وآليات عمل ومنطلقات فكرية وتنظيمية. لذلك، فإن «قيادتها» تقوم على التوارث السياسي[61] بالدرجة الأولى، وفكرة الزعامة التقليدية ومنطق الأتباع والرعية؛ الأمر الذي يجعل الموروث الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي هو المحدد والمحرك.

كما إنّ المقربين من الست نظيرة لا يمكن النظر إليهم كـ«هيئة استشارية» أو

61. راجع: د. خليل أحمد خليل: **التوريث السياسي في الأنظمة الجمهورية العربية الميثاق** (مجلة)، العدد الثالث، المجلد الأول، آب 2002 ص 32-33.

- د. خليل أحمد خليل: **نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية**، م. س.

كمستشارين يفترض أن يكونوا مع القائد-الزعيم أو رجل الدولة أو المسؤول السياسي بالتصوّر المتعارف عليه حديثاً، لجهة الاختصاص، وإن تقاطعوا أو تماثلوا لجهة الدور الاستشاري الذي يقومون به.

إن هؤلاء الأشخاص غير اختصاصيين في شؤون محددة ومجالات معينة - اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو تقنية أو مهنية... ولم ينخرطوا في الجامعات أو المعاهد العلمية ولايتقاضون أجراً - رواتب - لقاء عملهم، بل اكتسبوا معارفهم من «مدرسة الحياة» التي عمّقت خبرتهم ونوّعت تجاربهم ووسّعت آفاقهم. فمعايشة الوقائع وتقلباتها ومتابعة الأحداث ومجرياتها صقلتا أفكارهم وقوّتا عزيمتهم فعدوا مقصداً في بيئتهم وملجأً في محيطهم ومرجعاً في وسطهم، خصوصاً أنهم، في الغالب، وجهاء في عائلاتهم وقراهم ومحيطهم، إضافة إلى أن هويتهم السياسية واضحة، وولاءهم للغرضية الجنبلاطية لا تشوبه شائبة، فقد امتحنَتْ الأيام هذا الولاء وبلورَتْه، فغدا راسخاً ثابتاً رغم تقلّب الظروف وتبدّل الأحوال. بل هو أشبه ما يكون بـ«الهوية»، إذا جاز التعبير. من هنا، تأتي آراؤهم ونصائحهم من موقع الانتماء والحرص والمحبة والغيرة وليس طمعاً في منصب شخصي أو طلباً لمردود مادي، مما يجعلهم موضع ثقة وسنداً مهماً.

ويعدّد فوزي زين الدين بعضاً من هؤلاء المقربين، منهم على سبيل المثال لا الحصر: فؤاد حسن أبو شقرا (مختار عماطور سابقاً) وأمين بك طليع من الجديدة، وأمين حسن من بتلون، والشيخ نجيب أبو حمزة (يذكره إيغور تيموفييف) من الخريبة، وسعيد شاهين زين الدين وتوفيق شاهين زين الدين من بطمة. إضافة إلى أسماء، مثل الشيخ نمر تلحوق (عضو مجلس إدارة منتخب) والشيخ أبو محمود سلمان شميط من عاليه، وعدد من الذين يعتبرون من المفاتيح الانتخابية والمتنفذين. ويعدّد ايغور تيموفييف مَن يسميهم بالمخلصين الذين لم يغادروا ردهة مستشفى «سان شارل»، ومنهم سعيد شاهين حمود وأمين سليم حسن



وزيد الفطايري[62]، إلى جانب الشيخ بشير أبو حمزة وكيل القصر.

غير أن زين الدين يوضح من موقع الاستدراك، أن الأسماء المذكورة كانت الأكثر تردداً على قصر المختارة والأكثر حضوراً، من دون أن يعني ذلك حصر المقربين أو الذين تستشيرهم الست نظيرة وتلجأ إليهم لأخذ الرأي والنصيحة منهم دون غيرهم. فمن المعروف مثلاً مدى التقارب بين الست وكرسي البطريركية في بيت الدين من خلال المطران أوغسطين البستاني الذي اعتمدت عليه كثيراً وأخذت رأيه في العديد من القضايا والمسائل المهمة، بدءاً من دوره في إقناع كمال جنبلاط بالتوجه نحو العلوم السياسية والمحاماة، مروراً بالعمل على ترتيب الأوضاع في المنطقة وحلّ ما يطرأ من مشاكل ومعالجتها للتخفيف من وطأتها وثقلها وصولاً إلى التنسيق معاً مع سلطات الانتداب الفرنسي.

لقد كان المقربون يلتقون باستمرار في دار المختارة، من حيث المبدأ، أما في الحالات الطارئة، فإن الست نظيرة تقوم باستدعائهم، فيتكلف الناطور جميل بالتوجّه إلى بيوتهم لإعلامهم بأن الست تريدهم في القصر، فيحضرون على وجه السرعة ويتشاورون معها في الموضوع الطارئ ويحاولون معالجته من خلال ما يقدمونه من آراء واقتراحات ومساهمات مباشرة وشخصية. ويعطي زين الدين نموذجاً محدداً فيشير إلى أنه عندما بدأ الدروز، في مرحلة الحرب العالمية الثانية، المطالبة بوزير في الدولة، اشتدّت حركة الاعتراض الشعبية وتعمّمت التظاهرات الداعية إلى إنصاف الدروز، وكانت تظاهرات بلدة كفرحيم الأقوى والأكثر زخماً، إلى حد بعيد، إذ عمد الأهالي إلى قطع الطريق الرئيس، كما عمد علي يوسف أبوضرغم إلى اعتراض سيارة الجنرال الفرنسي وضربها بسيفه. فوصل الخبر إلى الست نظيرة بأن سلطة الانتداب وجّهت حملة عسكرية من بيروت لقمع التظاهرة

62. **مقابلات شخصية** مع فوزي زين الدين، رامز أبي صعب، إضافة إلى كتاب إيغور تيموفييف: م. س، ص 182-183.

وفتح الطريق واعتقال «مسبّبي الشغب». فدعت المقرّبين للتشاور حول الحادثة المستجدة وسبل معالجة ذيولها. وبعد التشاور تمّ الاتفاق على أن يذهب كمال جنبلاط (كان في إجازة) مع ثلاثة أشخاص من المقرّبين إلى بلدة كفرحيم مباشرة لتهدئة خواطر الناس ومحاصرة مضاعفات الحادث مع القوات الفرنسية. وهكذا كان، ونجح الوفد في حل الإشكال ومعالجة ذيوله[63].

إن فكرة المقربين تجسّدت بشكل أو بآخر في الأداء السياسي لسيدة المختارة، وتمظهرت بأكثر من شكل ووجه، الأمر الذي جعلها تقبل في أوقات كثيرة النصيحة والرأي المقدم، وتعمل، من حيث المبدأ، بمضمونه[64]. وخصوصاً أن مراعاتها لآراء المقرّبين أو الأخذ بها هو بحد ذاته مراعاة لموقعهم الاجتماعي

63. تشير بعض المقابلات إلى هذا الموضوع مثل فوزي زين الدين. كما يوضح رامز أبي صعب أن من نتائج هذه التظاهرات تغريم السلطة الفرنسية بلدة عيناب 32 بارودة وبيصور 7 بواريد وقد تدخلت الست نظيرة لحل الإشكالات التي رافقت هذه التظاهرات. كما يتذكر بعض الهتافات منها:

ما منقبل إلا بوزير درزي منّع راسو كبير
ما منقبل إلا بوزير ويما منشهر الموازير

ويشير حسن أمين البعيني (م. س) ص (310–311) إلى أن الدروز اعتبروا استثناءهم وعدم تمثيلهم في الحكومة التي شكلها أحمد الداعوق بتاريخ 10 نيسان 1941 إساءة لهم وإجحافاً بحقهم. فقابل حكمت جنبلاط والمير مجيد أرسلان الجنرال الفرنسي دانتز. ولم يقتنعوا بتبرير السلطة فطيروا البرقيات وأضربت مناطقهم استنكاراً. وفي تظاهرة كفرحيم تحرك موظفو الاستخبارات الفرنسية فاشتبك الاهالي مع فرقة الجند الفرنسية، الأمر الذي دفع بالسلطات إلى اعتبار عملهم ظاهرة ثورية وقررت الانتقام. وتابع مجيد أرسلان وحكمت جنبلاط ونظيرة جنبلاط معالجة الوضع مع الفرنسيين وتوصلوا إلى حل يحفظ هيبة السلطة ولا ينتقص من كرامة الدروز.

64. يشير ابراهيم عبدالله: م. س إلى أنه في إنتخابات 1943 قصد وفداً من الحزبية الجنبلاطية من آل العبدالله في شحيم الست نظيرة طالباً ترشيح الدكتور عبد الرضى الخطيب بعد أن وصل إلى مسامعهم أنها قررت ترشيح الشيخ أحمد. وقد كان لهم ما أرادوه. كما يوضح عدنان الشهال: م. س ص 43 إلى أن والده، مثلاً، لفت نظرها إلى بعض المسائل فأخذت بها وعملت بمضمون ما أشار إليها.



من جهة، وتقدير لموقعهم في الغرضية الجنبلاطية من جهة أخرى. لذلك فهي توازن، في الغالب، بين هذين الموقفين ليبقى رأيها هو السائد والموجّه.

### 4. مرونة سياسية

اعتمدت الست نظيرة في أدائها السياسي على ما يمكن أن نسميه «المرونة السياسية» في علاقاتها مع الآخرين. فقد كانت، من حيث المبدأ، مسالمة ولم تعمد إلى العنف والقسوة لمعالجة القضايا والمشاكل التي اعترضتها في حياتها السياسية، وسعت إلى تخطّي الصعاب التي واجهتها باللين والصبر، ولم تلجأ إلى البطش والقوة. وكرّست هذا المبدأ في عملها السياسي وعلى مختلف الصعد، سواء الشخصية منها أو العائلية أو الطائفية – العلاقة مع الغرضية الأخرى – أو المتعلّقة بالمستوى الوطني العام، من دون أن يعني هذا التوصيف عدم انخراطها في صراعات حادة ومعارك سياسية طاحنة لتثبيت مواقعها وتعزيز نفوذها وتوسيع سلطتها.

على المستوى الشخصي، يلاحَظ، أنه، منذ البدايات الأولى لتصدّرها الزعامة الجنبلاطية بعد مقتل زوجها فؤاد بك، رفضت الانسياق إلى فكرة الأخذ بالثأر لمعاقبة المتهمين. كما اعترضت بشدّة على الإجراءات التي اتخذتها السلطة الفرنسية بحق الأهالي والقرى المحيطة بمكان وقوع حادثة الاغتيال لجهة إجبارهم على دفع غرامات مالية كنوع من الجزية للتعويض على أهل المغدور.

إن وطأة الفاجعة التي حلت بالبيت الجنبلاطي وإصابته في الصميم، لم تُفقد الست نظيرة التفكير الهادئ والتوازن في التصرّف، ولم تحرّك فيها الأحقاد والغرائز وردّات الفعل المتهوّرة، فتصرّفت بذهنية منفتحة وعقلية سياسية مميزة، خاصة في مثل موقعها وفي ظل الإمكانات المادية والمعنوية التي كانت بحوزتها، وفي ظل النفوذ الذي تمتّعت به والعلاقات التي نسجتها على أكثر من صعيد. فالسلطات الفرنسية حاولت الاستفادة من مقتل فؤاد بك لزيادة الفرقة في المتحد الدرزي، وسعت إلى التحريض والتعبئة لدفعها بالاتجاه العنفي، والتصرّف في نطاق العادات الثأرية المتبعة في مثل هذه الحالات. غير ان سيدة المختارة غلّبت التسامح على الحقد، والعقل على التهوّر، والمنطق على الانفعال. وبقيت على

هذا المسار رغم التهديدات التي تعرّضت لها، لاسيما التهديد بقتل وحيدها، فواجهت الأمر بمزيد من الحراسة واليقظة عليه كشخص وعلى القصر كمركز، من دون اللجوء إلى ردّات الفعل السلبية والانفعالات المتهوّرة.

أما على مستوى العائلة الجنبلاطية، فقد اعتمدت الست نظيرة التوجّه المرن ذاته والمنطق المتسامح نفسه لرأب الصدع الحاصل بين أركان العائلة. فعملت على طي الخلافات، وسعَتْ إلى التخفيف من حدّة الصراعات بين أقطاب العائلة بداية، ثم قامت بإتمام عملية المصالحة بين رموزها. فبعد شدّة التوترات وطول فترة القطيعة وانقطاع التواصل وقوة التنافس على الزعامة بين المختارة والبرامية وبيروت، نجحت سيدة القصر في تجاوز هذه الوضعية الانقسامية، وأعادت اللحمة للعائلة وأزالت الحواجز القائمة بين أقطابها ومرجعياتها ومراكزها من خلال زواج ابنتها ليندا من حكمت علي جنبلاط (ابن شقيق زوجها) في العام 1937.

ويذكر أن الشيخ ملحم حمدان قاضي المذهب الدرزي أراد الآنسة ليندا زوجة لابنه عادل. غير ان بعض المقرّبين أشار على الست بضرورة توحيد العائلة الجنبلاطية وجمع أجنحتها السياسية. لذلك أعدّ لها وكيل القصر الشيخ بشير أبو حمزة في أواخر العام 1936 لقاءً في دير القمر مع علي جنبلاط بعد قطيعة بينهما استمرت حوال ثلاث عشرة سنة، وانتهى اللقاء الطويل إلى تحقيق الصلح بينهما والاتفاق على زواج ولديهما حكمت وليندا كإعلان عن المصالحة وترسيخاً لها. ويبدو أن هذه الخطوة[65] عزّزت موقع سيدة المختارة وزعامتها، من جهة، وافسحت، من جهة ثانية، مجالات رحبة لتوسيع مشاركتها في شؤون البلد.

65. يذكر مالك بك جنبلاط: م. س، إلى أن سعيها للمصالحة بدأ مبكراً لكن مسعاها لم ينجح. ففي العام 1923 عندما استقال علي بك جنبلاط من منصبه في القائمقامية بعثت بمرسال إلى شقيقها كامل بك (والد مالك بك) ليكون المرشح للمنصب. غير أن حدة الخلافات السياسية بينهما حالت دون أن يلبي الوالد دعوتها، الأمر الذي جعلها تقبل بتعيين فايز بن حسين العماد قائمقاماً.



أما على مستوى الطائفة والعلاقة مع الغرضية الإرسلانية، فقد اتبعت سيدة القصر، وإلى حدّ بعيد، مبدأ التوافق؛ فمن المعروف أن المسار التاريخي بين الغرضيتين كان مستنداً إلى منطق التنافس السياسي والصراع على النفوذ. غير أن الست نظيرة حرصت على إبقاء «شعرة معاوية» ممدودة بين الغرضيتين؛ فرغم حدّة الصراعات بينهما وتسابقهما على تصدّر الزعامة داخل الطائفة أو على المستوى الوطني العام، فإن قواسم مشتركة قنّنت هذه العلاقة وضبطت مسارها. وقد تمثّلت هذه الضوابط، من حيث المبدأ، بأمرين عكسا طبيعة البنية المجتمعية وحددا آفاقها ورسما، إلى حدّ بعيد، مستقبلها. تمثّل الأمر الأول في حرصهما على المطالبة بحقوق الطائفة الدرزية والدفاع عن مصالحها. وتمثّل الأمر الثاني في المحافظة على زعامتيْهما وعدم التعرّض لأسس هاتين الزعامتين أو تهديد مواقعهما التقليدية. وإذا بدا الأمر الأول من ثوابت سياستهما ومستلزمات عملهما كونهما يتربعان على زعامة الطائفة أباً عن جد، فإن الأمر الآخر أصبح أيضاً من بديهيات عملهما، وغدا سقفاً لا يجوز تجاوزه أو اختراقه مهما تعقّدت الأوضاع أو اشتدت وطأة الأحداث أو تبدّلت الأحوال.

لقد كرّست نظيرة جنبلاط في أدائها السياسي هذا المبدأ وسارت عليه وجسّدته في سلوكها نهجاً ثابتاً ومعلماً مميزاً ساهم في الحفاظ على التوازن بين الغرضية الجنبلاطية والغرضية الإرسلانية وحماية مواقعهما ودورهما داخل المتحد الدرزي أو على المستوى السياسي العام. بل يمكن القول إنها أضفت من خلال مرونتها السياسية نكهة خاصة، إذا جاز التعبير، زادت في ترسخ هذا المنحى ليغدو نموذجاً للعلاقة بينهما.

وقد تمظهرت هذه المرونة في الحنكة السياسية للست نظيرة في أكثر من موقع، وتجسّدت في أكثر من أسلوب وشكل. فعندما توفي النائب الأمير توفيق أرسلان مثلاً، اتجه آل الخوري بالتعاون مع الشيخ محمد الجسر وبموافقة الفرنسيين ورضاهم، للعمل من أجل انتخاب نجله الأمير مجيد

أرسلان للمنصب رغم أنه لم يكن راشداً. لذلك عمدوا إلى تكبير عمره خمس سنوات ليصبح قادراً في الشكل القانوني على أن يكون نائباً. وأمام هذه الحادثة، فإن الست نظيرة لم تعبر عن تذمرها، سواء من تعاون بشارة الخوري مع آل أرسلان لدعم هذا التوجّه، أو من الإجراء الذي اعتمدوه لتنفيذه. بل أبدت على الملأ رعاية لمجيد أرسلان تكاد «تضاهي حنان الأمومة» واحتضنته كـ«ولد محبوب» وساعدته من دون أن تُظهر أي امتعاض علني، وأبدت الارتياح وتصرفت بهدوء لافت ورصانة واضحة. ولم تدع مجالاً لأحد لينسب إليها أو لقصر المختارة «الحسد والغضب من الغرضية الأخرى»[66]. وإذا كانت هذه المرونة «محسوبة» نتيجة للرضى الفرنسي، إلا إنها محسوبة أيضاً للست نظيرة نتيجة لمرونتها ومقدرتها وحنكتها في امتصاص الصدمات وعدم الانجرار بالمقابل إلى ردود غير محسوبة النتائج[67].

---

66. لمزيد من التفاصيل، يراجع:
- إسكندر الرياشي: م. س، ص 90-91 و94-96.
- إيغور تيموفييف: م. س، ص 78-79.

67. يشير عدنان الشهال: م. س، ص 16، ويعيد تأكيده وتوضيحه في **مقابلة شخصية** بتاريخ 4 آب 2003، بيروت، شارع فينيسيا، إلى كيفية ترتيب هذه المسألة مع الست نظيرة فيقول:
عندما توفي النائب الأمير فؤاد أرسلان تولى الشيخ محمد الجسر (رئيس مجلس النواب في حينه) تمهيد الطريق لوصول نجله المير مجيد أرسلان إلى الندوة البرلمانية. فاتصل الجسر بالقاضي جميل الشهال طالباً منه إبلاغ المطران البستاني رغبته في تناول الغداء على مائدته. وبعد الغداء غادر الجسر إلى المختارة وتبعه الوالد، حيث اجتمع والست نظيرة لمدة نصف ساعة. وطلب من الوالد المجيء في اليوم التالي لأخذ جواب الست.
في اليوم التالي كانت الست نظيرة متوترة واخبرت الوالد أن الأمير مجيد يتعرض لها، الأمر الذي دفع الجسر الى ترطيب الاجواء وحل الإشكالات بحنكته المعهودة ولباقته المعروفة. وبالفعل تم انتخاب المير مجيد بالتزكية العام 1932.
ويوضح الشيخ حسن الدبيسي: م. س ان علاقة الست مع آل أرسلان كانت دائماً متوازنة. ويذكر بأن أمين غنام من كفرحيم كان ينقل ما يريده الطرفان، أي ما يشبه الرسول بين المختارة وخلدة.



في السياق ذاته، يوضح اسكندر الرياشي أن البعض لامها بعد أن ماشت الفرنسيين وصار لها تلك الكلمة المسموعة والمكانة الكبرى عندهم، لأنها لم تعمل معهم لتخصيص المختارة بميزات لا يكون للإرسلانيين مثلها، ولأنها تُظهر «الارتياح» بطرقها اللبقة ومرونتها السياسية، وتداري أي إحراج أو انزعاج يمكن أن يتولّد من رعاية الفرنسيين في بعض المناسبات للأمراء الأرسلانيين «خصوم المختارة الدائمين». ولأنها تسعى عند اصدقائها الفرنسيين، كما سمع الرياشي مباشرة منها، أنها بصدد إعطاء الأمراء الأرسلانيين حصتهم كحصة الجنبلاطيين في السراي والمجلس من أجل أن تحفظ وتحافظ على التوازن بين الغرضيتين[68]، اعتقاداً منها بأن مثل هذا التوازن بين آل جنبلاط وآل أرسلان على المسرح السياسي هو أفضل وسيلة لتفادي المنافسة والتوتر بينهما، خاصة، وفي المتحد الدرزي، عامة.

إن المرونة السياسية عند نظيرة جنبلاط جعلتها تخدم مَن يقصدها من الغرضية الأخرى. وقد أثار هذا المنحى عتب بعض مناصريها من الغرضية الجنبلاطية[69] وزعلهم ضمن إطار الخلافات العائلية الضيقة في القرى، حيث يبدو الانقسام

---

68. اسكندر الرياشي: م. س، ص94 و96.

69. يذكر الحاج ابراهيم عبدالله (م. س)، ما يدعم هذا الرأي فيقول: إن آل العبدالله في شحيم، البعيني في المزرعة، الاحمدية في شارون، من عيال الدار في المختارة. والعلاقة بينهم قوية جداً، كونهم متطرفين في غرضيتهم الجنبلاطية. ويبدو أن وفداً من آل ذبيان كان قد قصد الست نظيرة وخدمتهم، الأمر الذي أثار حفيظة آل البعيني وحرك غرضيتهم كون آل ذبيان من الغرضية الأخرى، مما دفعهم للاعتكاف عن زيارة دار المختارة. وفي مناسبة عيد الاضحى قام وفد من آل العبدالله، كالعادة، بزيارة الست للتهنئة. فقالت لهم إن اخوانكم آل البعيني زعلانين على الدار. وإذا كانت الدار تتسع للجميع فإن مكانهم محفوظ ولا يمكن أن يحل محلهم (مكانهم) في دار المختارة أحد. عندها عرّج «جماعتنا» على المزرعة واستضافوا عند آل البعيني وفي اليوم الثاني ذهبوا سوية لتهنئة الست. فنظيرة جنبلاط كانت تحفظ كرامة الرجال ولم تقصر مع حزبيتها في شيء.

الجنبلاطي-اليزبكي حاداً ومظاهر الصراع بينهما أكثر تبلوراً، كما سمحت لها هذه الحنكة السياسية بأن تطلب في بعض الأوقات من الأخصام السياسيين المؤازرة في موضوع أو المساندة في قضية تعود بالفائدة على مؤيديها[70].

ضمن هذا المناخ، يمكن اعتبار موافقتها، إذا لم نقل رعايتها، لزواج ابنها الوحيد، سليل الغرضية الجنبلاطية ووريثها، من مي شكيب أرسلان[71] الزعيم الوطني المناوئ لنظيرة جنبلاط وسياستها، والمعارض لتوجهاتها على أكثر من صعيد، دليلاً دافعاً على مدى المرونة التي اتصفت بها، والدهاء السياسي الذي حرّك عملها وحكم علاقاتها داخل الطائفة ومع الغرضية الأخرى.

أما على المستوى الوطني العام، فإن من مظاهر مرونتها السياسية، مراعاتها لمكانة الأخصام السياسيين وعدم التطاول عليهم. فقد حافظت نظيرة جنبلاط على «اللياقات الاجتماعية» في خضم المعارك السياسية مع المعارضين لها، فكانت تخاطبهم بصفتهم الرسمية (بك، امير، فخامة...) وتحترم مواقعهم ولا تتطاول على مقاماتهم وكراماتهم، وبالتالي لم تنجرّ إلى المهاترات الكلامية رغم تعرضها الدائم لوابل من التهم وللكثير من التجريح. وقد بيّنت في رسالة إلى القاضي جميل الشهال بتاريخ 16 كانون الثاني 1934 ان ألسنة الخصوم والمنافسين

70. يشير فوزي زين الدين (م. س) إلى حادثة في هذا المجال حين صدم أبناء عم له عسكرياً، فقصد عمه الست. فقامت بالاتصال بالمير مجيد إرسلان، رغم الخصومة السياسية بينهما، وعرضت له المشكلة طالبة اهتمامه ومتابعته. وهكذا تمت تسوية المسألة.

71. تشير مي إرسلان في **الرسالة** (مجلة)، م. س إلى أن زواجها واجه معارضة من العائلة الإرسلانية على قاعدة الخلاف السياسي التقليدي بين العائلتين. في حين أن معارضة الوالد شكيب إرسلان انطلقت من ترتيب الأولويات، بمعنى كان يرغب في أن تتابع دراستها، لأنه يعرف أن المرأة التي ستعيش في قصر المختارة عليها أن تسير على خط سياسي، وعليها أن تكون مثقفة ومؤهلة للعب الدور الذي يليق بابنة العائلة اللبنانية العريقة. كما بيّن إيغور، ص 127-129، دور الست نظيرة في الاستعانة بأمين نخلة (ابن الشاعر رشيد نخلة) لترتيب هذا الزواج. ومدى الغضب الذي أبداه عادل إرسلان تجاه هذه المصاهرة إلى درجة هدد بقتل ابنة أخيه.



اصبحت «أشرّ» مما كانت عليه. غير أنها، في المقابل، اكدت أن هذا الأسلوب في التعامل هو السلاح الذي تعودوا استخدامه ضدها، وأشارت إلى أنها لا تردّ على منطقهم ولا تجيبهم بأسلوبهم ولا تسمح لأحد بأن «يتلفظ اسمها لا مدحاً ولا مذمة»[72].

كما انعكس هذا التوجه على العلاقة مع المسيحيين، عموماً، والموارنة في جبل لبنان، خصوصاً. فقد أدركت، من جهة أولى، اهمية الجبل اللبناني في التركيبة اللبنانية، وعرفت من جهة أخرى، أن اي خلل يصيب العلاقات المسيحية-الدرزية ستمتد آثاره السلبية على مدى الساحة الوطنية، الأمر الذي جعلها، ومنذ بدايات عملها السياسي، تسعى للتخفيف من حدة الاحتقان بين الطائفتين[73]، وايجاد مناخ من التفاهم والمحبة والتآخي بين الفئات الاجتماعية والسياسية. ويعتبر غسان تويني أن صفة المسالمة غلبت على سياسة الست، موضحاً أن هذه الصفة هي من صميم سياسة

72. يوضح عدنان الشهال: م. س، ص 16 و31 و45 إلى أن بعض «الأوفياء» نقلوا إليها أن المير مجيد إرسلان والنائب كميل شمعون وأمين بك نخلة هاجموها في بيت الدين. وكادت هذه الخبرية أن تعيد توتير الأجواء وتعدل عن دعم ترشيح المير لولا تدخل الشيخ محمد الجسر. كما يبين ص 83 إلى أنها كانت تمقت ما كان يجري في الوسط السياسي وتعتبر أن الفوضى ضربت الاخلاق وسببت تغيير المبادئ و«تحويل السياسة العامة من منحوس إلى أنحس».

73. بتاريخ حزيران 1923 دعت الست نظيرة إلى اجتماع في قصر المختارة برئاستها ورئاسة شيخ العقل حسين طليع لإعادة الصفاء والتعايش إلى ربوع الشوف. وبارك المطران البستاني الدعوة مؤكداً في رسالة لها أن المسيحيين هم من «أشد الناس طاعة لأوامرك».
لمزيد من المعطيات يراجع:
- الخوري غريغوريوس أبو سمرا في **الخدر** (مجلة): الجزء الأول والثاني، تاريخ تموز وآب 1923، م. س.
- حسين أمين البعيني: م. س، ص105.
- **النهار**، تاريخ 20 أيار 1996.
ويشير فؤاد ميلاد رزق الله إلى أن العلاقة السياسية مع المطران البستاني أمنت التوازن السياسي في الجبل ورسختها، لا سيما وان البستاني مرجعية دينية وابن عائلة عريقة في المنطقة.

البيت الجنبلاطي الرامي دوماً إلى ايجاد الإلفة بين مختلف الطوائف والحزبيات[74]. وهذا ما ساهم بشكل أو بآخر في تكوين ما يسميه الأب يواكيم مبارك «الفكرة اللبنانية»[75] وتثبيت التوازن الداخلي في البلد عامة وجبل لبنان خاصة.

وإذا كان النمط السياسي الذي اعتمدته نظيرة جنبلاط هدف علناً إلى وأد التوترات المستحكمة ومعالجة المشاكل الحاصلة بالمرونة والعقل لإبقاء آليات التواصل ومجالات التفاعل قائمة بين الجماعات اللبنانية على اختلاف أنواعها، وإزالة ما علق بين الدروز والموارنة في جبل لبنان من شوائب وانقسامات وصراعات. غير أن انسحابه كنمط للعمل السياسي على علاقات الست السياسية مع سلطات الانتداب وسياسته في لبنان والمنطقة، بقي قضية ملتبسة و مثيرة للنقاش والاختلاف حول مدى ضرورته ومدى فائدته والى أي مدى خدم الانتداب ووجوده. وما هي نتائجه على مستوى الزعامة الجنبلاطية كما على المستوى الوطني العام؟

## 5. الحشد الجماهيري

يُضاف إلى طريقة أدائها السياسي اتقانها ما يمكن أن نسميه فن «الحشد الجماهيري» من أجل إظهار القوة الشعبية وإبراز هيبة الزعامة واتساع نفوذها، سواء أمام السلطات الفرنسية، أو في مواجهة السلطة اللبنانية، بحيث تعمد من خلال حشد مناصريها ومؤيديها إلى خدمة غرضين متداخلين: الأول معنوي والثاني مادي. يتمثل الغرض الأول في تأكيد مدى قوتها بين الناس، ويتمثل الثاني في استخدام هذا الاحتشاد لفرض إرادتها السياسية وتحقيق مكاسب محددة.

أما في الأمر الأول، فان اللجوء إلى القاعدة الشعبية أعطى الست ثقلاً سياسياً وعمقاً تمثيلياً، كونه يظهر مدى امتداد هذه القاعدة، من جهة، ومدى

74. النهار: الأربعاء 28 آذار 1951.
75. يراجع: كمال جنبلاط: **هذه وصيتي**، م. س.
– وخليل احمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص44.



انصياع هذه القاعدة لرغبتها وامتثالها لإرادتها، من جهة ثانية.

إن قصر المختارة في عهد نظيرة جنبلاط أصبح ملتقى كبار رجال السياسة المحليين والأجانب وفي مقدّمهم الصحافيون الأميركيّون والانكليز والفرنسيون، الذين أخذوا يفدون إلى هذه البلاد بكثرة، كما يشير الرياشي، ويجدون أن الذي يزور لبنان ولا يزور بكركي والمختارة يكون مثل الذي يذهب إلى روما ولا يزور البابا[76]. وعليه، فإن زيارة المفوض السامي إلى المختارة كانت، من حيث المبدأ، امراً طبيعياً. فبعد زيارته لرئيس الجمهورية، يزور قصر المختارة. وتُعلق الست أهمية خاصة على مثل هذه الزيارات إلى درجة أنها تغتاظ في حال تجاهلها، وتتكدر عند نسيانها، وتعتبرها استهانة بمكانتها وإهانة لموقعها[77]. لذلك كانت تعمد عند زيارة المسؤولين القصر إلى توفير الأجواء الشعبية المناسبة لاستقبالهم، وذلك من خلال تعميم موعد الزيارة بواسطة «الناطور» الذي يقوم بنشر الخبر بالمناداة أو «بطرح الصوت» لإعلام الناس ودعوتهم. وفي الوقت المحدد، تتوافد «الجماهير» إلى القصر وتكتظ ساحاته وممراته بالجموع الغفيرة[78].

76. اسكندر الرياشي: م. س، ص99.
77. يعرض كمال أبو مصلح: م. س، ص132 لمثل هذه الحادثة ومدى توتر الست نظيرة وانقباضها.
78. تصف مود فرج الله: م. س، نمطاً من هذا الحشد الجماهيري عندما لبت مع الوفد الإنكليزي دعوة الست نظيرة إلى الغداء في قصر المختارة عام 1942 فتقول: انتقلنا إلى المختارة بالسيارات. كنت أنا إلى جانب الجنرال هولمز Holmes في السيارة الأولى، وفي الثانية ضباط الأركان، وفي السيارة الثالثة كان ثلاثة أعضاء من مجموعة سبيرس. وعلى بعد 500 متر من القصر استقبلنا حوالى مئة من الخيالة وفتحوا لنا الطريق وهم يحدون، وفي ساحة القصر وُجد من 700 إلى 900 شخص في الاستقبال. وكان حكمت جنبلاط ينتظرنا في أسفل الدَرج والست نظيرة واقفة على مدخل القصر لاستقبال الجنرال هولمز. وكان الاستقبال حاراً والقصر يعج بأبناء الشوف الذين يحيون الجنرال بهتافات يعيش الجنرال، يعيش الجنرال، الأمر الذي ترك انطباعات ممتازة وعلامات من الرضى عند الوفد الإنكليزي. يراجع: **مود فرج الله تتحدث** (بالفرنسية)، ص 115-117.

هذا السلوك له دلالاته السياسية والشعبية الواضحة على المستوى السياسي. فهي توجّه، من خلال الحشد الشعبي، رسالة مباشرة الى الفرنسيين، كما لغيرهم، تبين فيها مدى قوتها وماذا تعني نظيرة جنبلاط؟! وماذا يعني التحالف معها ودعم زعامتها في المنطقة؟! أما على المستوى الشعبي فانها تبين لجماعتها ومناصريها مدى أهميتها وعلو مكانتها عند السلطات الفرنسية والرسمية، الأمر الذي يفرض عليهم كمسؤولين القيام بزيارتها والاستئناس برأيها.

اما في الأمر الثاني، فإن الحشد الجماهيري يكون في أحد جوانبه وسيلة ضغط يصب في مسار الهدف الذي تسعى الست لتحقيقه أو الحصول عليه من السلطات الرسمية. ويشير نجيب بك شمس إلى أن موضوع تعيين سماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية محمد أبو شقرا أخذ في حينه سجالاً على المستوى الرسمي اللبناني، بعدما سعت بعض الجهات اللبنانية المتنفّذة للاعتراض على تعيينه وإعاقته من موقع التنافس والصراع القائم بين الغرضيتين الجنبلاطية والإرسلانية.

لذلك اتصلت نظيرة جنبلاط تلفونياً بفخامة رئيس الجمهورية من أجل تفادي المشاكل التي يمكن أن تنجم عن تأخير البت بموضوع التعيين، والمضاعفات السلبية التي يمكن أن يسببها موقف الحكومة داخل الطائفة الدرزية، خصوصاً وأن فريقاً كبيراً من الدروز مؤيد لسماحته. غير أن مرافق الرئيس اعتذر من الست لعدم مقدرة فخامته على التحدث معها لأن «صوته مبحوح». وقد كانت هذه حجة للتهرب من حسم الموضوع بالاتجاه المطلوب. عندها، عمدت إلى «طرح الصوت»، فتدفّقت الناس والوفود الدرزية إلى دمشق حيث كان يقيم سماحته وجاء الشيخ ابو شقرا بإجماع شعبي كبير شيخاً للعقل، الأمر الذي أقلق رئيس الجمهورية وأحرجه. فاتصل بالست نظيرة معاتباً. وقال لها: يا ست متى اصبح الشيخ بطلاً شعبياً؟ فردّت بأن «بحة صوتك» تجعل من



الناس ابطالاً. وهكذا تحدد التعيين بالمنحى الذي أرادته[79].

إن اعتماد هذا النمط في العمل السياسي لم يزل من المقومات المتبعة عند العديد من القوى والهيئات السياسية والطائفية والاجتماعية، غير أن سيدة القصر وعت مبكراً أهميته وكيفية استخدامه. وجيّرته لخدمة أغراضها وتعزيز مكانتها.

### 6. توزيع الأدوار

اعتمدت سيدة المختارة في عملها السياسي على حكمت جنبلاط (1905–1942) اعتماداً كبيراً. فالمصالحة بين أقطاب العائلة الجنبلاطية فتح أمامها مجالات جديدة ووسّع نشاطاتها ورسّخ موقعها.

لقد توثقت العلاقة مع حكمت جنبلاط اجتماعياً بعد أن أصبح صهرها من خلال زواجه من ابنتها ليندا، وتدعمت سياسياً من خلال التنسيق المشترك والسير في الاتجاه السياسي الواحد المتوافق مع الكتلة الوطنية وشخص اميل اده المؤيد الأول لفرنسا وسياستها في لبنان الكبير. لذلك كانا (نظيرة وحكمت) متكاتفين متساندين في العمل وعلى مختلف الصعد الاجتماعية والسياسية. ويبدو أنه كان للست دور اساسي في تعزيز موقع حكمت وتدعيمه. فإضافة إلى مؤهلاته وثقافته وعلمه وخبرته السياسية[80] التي اكتسبها قبل المصالحة مع المختارة، فإن التأييد الشعبي الذي حظي به والدعم الذي وفرته سلطات الانتداب والدولة اللبنانية، والمواقع السياسية التي شغلها نيابياً (1937–1939) أو وزارياً (1937)، كانت في جزئها الأكبر بفضل الست نظيرة.

ويشير حسن أمين البعيني إلى أن سيدة المختارة أسهمت اسهاماً كبيراً في توفير كل الدعم وتقديم كل مستلزمات التأييد لصهرها، لذلك دار في فلك السياسة التي انتهجتها، أي في ركب السياسة الفرنسية، باعتبار ان هذه السياسة

---

79. نجيب بك شمس: م. س.
80. يراجع: د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص64.
- محمد خليل الباشا: م. س، ص 350–352.

وصاحبتها (الست نظيرة) من مصادر نفوذه[81].

ويؤكد ايغور تيموفييف وغيره، هذا الرأي إذ أشار إلى أن نشاطات حكمت على صعيد الدولة كانت تسير في المجرى الذي توجهه إليه الست نظيرة من وراء الكواليس، وفقاً لنهجها في تعزيز مواقع المختارة مستفيدة من سلطات الانتداب والرهبان الموارنة[82]. لذلك لم تكن تخفي ارتياحها لحكمت بك، وعبرت في أكثر من مناسبة على أنها «مبسوطة جداً من تصرفاته» وتشتهي لكل صديق أن يكون لديه أولاد بتربيته العالية وأخلاقه السامية. وتؤكد أنها لا تتذكر أثناء وجوده في القصر أنها «تكدرت منه بشيء»، وتبين مدى تطور سلوكه السياسي مع الناس. فقد أصبح «أستاذاً في السياسة» والجميع يمدحونه «لدرجة أن أخصامه لا يقدرون ألا أن يمدحوه»[83].

في إطار هذا التناغم مع حكمت بك، عمقت أداءها السياسي من خلال دورها في الانتخابات النيابية، فغدت أحد اللاعبين الأساسيين في تشكيل اللوائح النيابية وإقامة التحالفات، وفي وضع التصورات السياسية العامة والمساهمة في تنفيذها. وقد اشتكى بشارة الخوري، مثلاً، من أن الفرنسيين تصوّروه خصماً لهم ولسياسة فرنسا، فحاصروه وجرّدوه من الاكثرية النيابية من خلال ما أسماه «الخطة الشيطانية» حين تراجع بعض نواب الجنوب (نجيب عسيران وبهيج الفضل) عن تأييده والانقلاب عليه بعد أن ذهبا إلى المختارة جاهرين بالدعاية لإميل اده. وبذهابهما إلى المختارة، بدأت السبحة تكر بعدما قلب له

81. حسن أمين البعيني: م. س، ص 256 و348.
82. يراجع: ايغور تيموفييف: م. س، ص 78.
- اسكندر الرياشي: م. س، ص 97.
- **مجمل المقابلات الشخصية.**
83. عدنان الشهال: م. س، ص 80-81، وتذكر مود فرج الله: م.س، أهمية حكمت جنبلاط خلال تلبيتها مع الوفد الإنكليزي دعوة الست نظيرة إلى قصر المختارة.



حكمت جنبلاط «ظهر المجن»[84].

هذه الوضعية جعلت أداء الست أكثر فاعلية، لا بل يبدو أنها عمدت إلى توزيع الأدوار بينها وبين صهرها في مختلف القضايا والمسائل، سواء على المستوى الوطني العام، أو على المستوى الطائفي الخاص، أو على مستوى الخدمات الحياتية والمعيشية التي تقدم للناس. فكان صهرها مساعداً مهماً في متابعة القضايا وتلبية مطالب المناصرين والقاصدين وتسهيل مصالحهم لدى السلطات والادارات الرسمية على اختلافها، وتأمين حاجاتهم وحل مشاكلهم ومساعدتهم على تأمين الوظائف وسبل العيش، لذلك فقدت بوفاته (1942) ركناً من اركان سياستها ما أثّر بشكل أو بآخر في أدائها السياسي، خصوصاً ان وفاته كانت اعلاناً عن مرحلة جديدة[85] في تجربة نظيرة جنبلاط.

## غاية محدّدة

إن مجمل ما اتّصفت به الست نظيرة من مواصفات شخصية وقدرات ذاتية، أو ما اعتمدته في عملها السياسي، أو كرسته في أدائها أو جسدته في إدارة الزعامة الجنبلاطية، وسّع، بلا شك، نفوذها وعزّز موقعها في محيطها الضيق أو على المستوى الوطني العام، رغم أنها لم تكن نائبة ولا وزيرة. وفوق هذا كله وقبله، ضمن لها المحافظة على موقع العائلة الجنبلاطية وزعامتها في مفصل مهم من تاريخ لبنان الحديث.

لذلك يقول إيغور تيموفييف إن رسالة الجد الأكبر الشيخ بشير جنبلاط،

84. **بشارة الخوري**: الجزء الأول، م. س، ص195.
85. توفي حكمت جنبلاط في آذار 1942 (يؤكد حسن الدبيسي ان الوفاة حصلت بتاريخ 5 حزيران 1943) إثر إصابته بداء عضال في مستشفى عطية في بيروت. ويشير د. خليل أحمد خليل، في «الأمير الحديث» م. س، ص64، إلى أنه أثناء تشييعه إلى مثواه الأخير في المختارة، صاح الشيخ شاهين المصري من بلدة صليما في المتن «مات الملك، عاش الملك» وبذلك ابتدأ التتويج السياسي لكمال جنبلاط.

ذلك «العماد» الذي سعى إلى استعادة سطوة الدروز على جبل لبنان ودفع حياته ثمناً لسعيه هذا، تُهيب بآل جنبلاط أن يواصلوا المهمة. لكن إنجاز هذه المهمة هو من شأن الرجال، أي من شأن ابنها، كما تعتقد الست نظيرة، عندما يكبر. من هنا، جيّرت كل ما تمتعت به من مواصفات وخصائص وقدرات ومميزات وكل ما اكتسبته من خبرات لخدمة هذا الغرض الاساسي الذي حرّك عملها ووجّه تجربتها. فأمرت الجميع، ومنذ البدايات الأولى لتصدّرها الزعامة، أن يخاطبوا ابنها وهو لم يزل يخطو خطواته الأولى، بكل مقتضيات الاحترام الذي يليق بمنزلة العائلة. وأضافت إلى ذلك لقباً جديداً له وهو «ابن العماد»[86]. لذلك عملت بجهد حتى المرحلة التي اصبح فيها ابنها البكر قادراً على تحمل المسؤولية.

يؤكد هذه المسألة كمال جنبلاط فيقول: إنّ «الوالدة الست نظيرة فهمت أن عليها أن تقوم بواجبها قبل أن تطالب بحقوقها». وهذه «العظة الرئيسة للحياة» ورأت أن ترعى عائلتها و«رفضت الزواج كي تربّينا». وبالتالي «تحافظ لنا على الإرث الذي تطاولت عليه أكثر من يد في العائلة» معتبراً أن «المرأة لها نزعة طبيعية للتضحية... وذلك امتياز لها على الرجل» لأنها «تشعر» أكثر منه[87].

هذا الغرض الذي جيّشت له كل مواصفاتها الشخصية وقدراتها الذاتية وكان المحرك لأدائها السياسي وطريقة عملها، استندت للوصول اليه وتوفيره على أمرين:

– الأمر الأول: التقرّب من الحكّام، أو السلطة القائمة، باعتبار أن الشيء الذي لا تأخذه باللطف وحسن الكلام لا تستطيع أخذه بالزجر والقوة. ويبدو أن هذه «السياسة الجميلة»، برأي الرياشي، تتفق مع ما ازدان به الدروز من ادب

86. إيغور تيموفييف: م. س، ص31–32.
87. **قضايا المرأة (مجلة)**: 8 آذار 1977، م. س.



خاص ومجاملات ولياقات ورثتها الست ومشت عليها حتى آخر ايامها[88].

لذلك يلاحظ ضمن هذا الاتجاه أن سيدة المختارة لم تتوانَ مثلاً عن التقرب من الشيخ بشارة الخوري، في مرحلة رئاسته، بعدما كانت في المرحلة السابقة متحالفة مع سلطات الانتداب وممثلها في لبنان. ولم يقف في وجه «السياسة الجديدة»، أو التوجّه الجديد، العداء المستحكم والخصومة العميقة بينها وبين الرئيس الخوري، سواء في الموقف الوطني العام، كونهما على طرفي نقيض، أو في الموقف الدرزي الخاص، حيث اتخذ آل الخوري موقفاً مسانداً لآل إرسلان وانحازوا الى الغرضية الإرسلانية بوجه آل جنبلاط وغرضيّتهم[89]، أو في الموقع السياسي المباشر واليومي، حيث كانت الست في تحالف تاريخي مع إميل اده والكتلة الوطنية، الخصم اللدود للخوري والمنافس الأول له ولكتلته الدستورية.

ويبدو ان سيدة القصر مهدت الطرق لتأمين لقاء بين الزعيم الناشئ، كمال جنبلاط والرئيس المخضرم بشارة الخوري. وكادت الامور ان تسير في الاتجاه الذي رسمته الست، إذ تحدد في 6 ايلول من العام 1946 موعداً للزيارة المرتقبة. وشجعت الست ابنها على انجاز هذه الخطوة، ووجهت له بتاريخ 13 آب 1946 رسالة بهذا الخصوص ضمنتها الكثير من التفاصيل[90]. لكن اللقاء المرتقب لم يتم، رغم تحديد الرئيس موعداً لاستقبال كمال جنبلاط. والسبب يعود إلى أنّ

88. اسكندر الرياشي: م. س، ص95 يذكر أن المختارة كانت على هذه السياسة منذ نشأتها. غير أن هذا الرأي، على أهميته، تدحضه، من حيث المبدأ، الكثير من الوقائع التاريخية.
89. تعود الصداقة بين آل الخوري وآل إرسلان إلى مرحلة متقدمة رسّخها الموقف الذي اتخذه الأمير شكيب إرسلان بوجه جمال باشا وحال دون نفي الشيخ خليل الخوري وبالتالي قتله، ما جعل أنجاله يحفظون هذا المعروف لآل إرسلان جيلاً بعد جيل. للمزيد يراجع: اسكندر الرياشي: م. س، ص96 وإيغور تيموفييف: م. س، ص78.
90. يراجع نص الرسالة في د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط...** م. س، ص77–78 ويشير الشيخ الدبيسي: مقابلة شخصية، الجمعة 1 آب 2003، إلى أن الست لم تقطع مع الحكام. وبعد الاستقلال لم تقطع مع الرئيس بشارة الخوري وقد زارته مرتين عند مجيئه إلى بيت الدين.

الأخير أدلى في اليوم المحدد للزيارة بتصريح معارض، الأمر الذي دفع بالرئيس إلى إلغاء الموعد[91]. وقد كان لمثل هذا الاجتماع ان يغير في موازين القوى ويعيد رسم تحالفات جديدة وينسف تحالفات تقليدية وعريقة. وللتدليل على اهمية ما كانت تقوم به الست نظيرة، أعلنت بعض الصحف «أنّ حزباً جديداً سيظهر على مسرح السياسة المحلية بعد هذا الاتفاق»[92].

إن الهدف الرئيس الذي سعت اليه زعيمة الغرضية الجنبلاطية كان بدون ريب، تقريب وريث الزعامة من السلطة وتحويل ابنها زعيماً سياسياً حاكماً، بعد ان ساهمت في تحويله سياسياً وربّته كوريث للعائلة وغرضيتها، لما يمكن ان يوفره هذا التقارب، برأيها، من ضمانة للمستقبل وقوة للزعامة.

– الامر الثاني عدم الثقة بالسياسيين باعتبار أنهم لا يؤتمن لهم، وهم يظهرون غير ما يضمرون ويعملون على عكس ما يقولون ما يسم سلوكهم بالتقلب ومواقفهم بالتغير، الامر الذي جعلها في شك دائم في نواياهم وحذر شديد من تصرفاتهم. وقد يعود هذا الشعور الى مراجعة خاصة وتقويم دقيق لتجارب الزعامة الجنبلاطية التاريخية وما آلت إليه اوضاع العديد من رموزها، او الى الخبرة الواسعة التي اكتسبتها بعد تصدّرها لكرسي الزعامة والمعرفة الدقيقة بخبايا الامور وبواطنها.

ولم تُخفِ نظيرة جنبلاط هذه المسألة. فقد اعربت في اكثر من مرة عن استيائها

91. لمزيد من المعطيات حول هذه المسألة، يراجع على سبيل المثال لا الحصر:
– د. فارس اشتي: **الحزب التقدمي الاشتراكي**، المجلد الأول، م. س، ص127.
– د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**، م. س، ص65 و77.
ومن الجدير ذكره أن اللقاء تم لاحقاً بين الرئيس الخوري وبشكل مفاجئ حضره إلى جانب كمال جنبلاط، الأمير حسن الأطرش (صهره) وحبيب أبي شهلا وهنري فرعون والشيخ بيار الجميّل. لمزيد من التفاصيل يراجع:
– **بشارة الخوري: حقائق لبنانية**، الجزء الثاني، م. س، ص247.
– د. فارس اشتي، م. س، ص137.
92. **الدنيا** (جريدة): 6 أيلول 1946.



من النمط السياسي السائد في مرحلتها، وما يتسم به من خداع ورياء وغدر[93]. كما اشارت مي جنبلاط الى هذه المسألة مؤكدة أنّ «حماتها» لم تكن «لترتاح الى احد في السياسة».

وبالتالي فإنها تعتمد على كتمان ما يدور في ذهنها وعدم البوح بما يختلج في صدرها، أي عملاً بالقول الشائع: «واستعينوا لقضاء حوائجكم بالكتمان». لذلك كانت تنصح مي قائلة «لا تأتمني احداً على اسرارك الهامة»[94]. وهذا ما اضاف الى قوتها قوة جديدة جعلت الآخرين يحسبون لها حساباً، فقد جيّرت هذا السلاح وطوّعته لخدمة الغرض الذي رمت إليه.

بناء على ما تقدم، يمكن القول إنّ رغم خاصية الهدف الذي وضعته نصب عينيها وأهميته، فإن أداءها السياسي استند الى قاعدتين: القاعدة الاولى الاعتماد على نمط سلطوي أساسه التقاليد الإقطاعية. فالسياسة التي سارت عليها والنهج الذي سلكته كانا تقليديّين بامتياز[95]. فقد عملت بقوة وثبات وحنكة

93. تراجع رسائلها إلى القاضي جميل الشهال في عدنان الشهال: م. س.
94. **النساء** (مجلة): م. س.
95. أدارت الست نظيرة سلطتها الإقطاعية بحنكة مميزة وضمنتها طموحات واضحة. ويمكن الإشارة إلى أسلوب المصاهرة الذي اعتمدته لتبيان جزء من هذا الرأي. كمثل زواج ليندا من حكمت جنبلاط وزواج كمال من مي إرسلان ثم زواج ليندا (بعد موت زوجها حكمت) من الأمير حسن الأطرش. في الزواج الأول وفقت بين أطراف الأسرة الجنبلاطية وضمنت لها المركز الأول. وفي الثاني خففت التوتر بين الغرضيتين وضمنت حضورها القوي وحصنته. وفي الثالث لعلها رغبت في توسيع نفوذها لتكون زعيمة الجبلين؛ جبل لبنان وجبل العرب في سوريا. ويشير فوزي زين الدين في **مقابلة شخصية** أنه سمع من الوالد بأنه عارض هذا الزواج (الثاني) وواجه الست أمام الآخرين منبهاً إياها من خطورة هذه المصاهرة السياسية، إلى درجة طلب المير حسن مقابلة الوالد، وقد اجتمعا في دار المختارة وبحضوره. فسأل المير: لماذا يا أبو فوزي أنت الوحيد المعارض لي في هذه الدار؟! فرد الوالد بسبب ماضيك – كان المير مزواجاً – فرد المير: الانسان بيعقل. فأجابه الوالد: إلاّ أنت. ويوضح أن الست ندمت لاحقاً على هذا الزواج واعترفت أنه كان خطأ.

لأن تُبقي على السلطة الإقطاعية شكلاً ومضموناً ومن دون أي تجديد، وتمنع المسّ بركائزها او التعرض لمنطلقاتها وأسسها. وسعت للمحافظة على قيم هذه السلطة وعاداتها وذهنيتها وعلاقاتها وسلوكياتها، الأمر الذي كرسها نموذجاً «أنثوياً» لا يختلف في الجوهر عما كان سائداً، من جهة، وجعلها، من جهة أخرى، «ابنة» مرحلتها التاريخية. وهذا ما سيبرز لاحقاً كأحد مظاهر التوتر بينها وبين كمال جنبلاط.

أما القاعدة الثانية فكانت الاعتماد على العلاقة مع الفرنسيين. إذ تظللت الست بسياستهم المعتمدة في لبنان والمشرق العربي. لذلك، بدا هذا النهج الأكثر التباساً في تجربتها السياسية. فكيف يمكن ملاحظته؟ وما هي أبرز مظاهره؟ وهل يمكن تحديد مبرراته؟

## الفصل الخامس

■

# المظلّة الفرنسية

اندرج النقاش حول الأداء السياسي لنظيرة جنبلاط، في إطارين متداخلين، إلى حد بعيد. تركز الإطار الأول حول التجربة في حد ذاتها، وآثارها على المتحد الدرزي. وتركز الثاني حول التجربة في آفاقها الوطنية العامة.

في الإطار الأول، بقي النقاش في «حدوده الطبيعية»، وبقيت التساؤلات فيه وحوله محصورة، مبدئياً، في إطار ثنائية التحديث والتقليد. بمعنى آخر إلى أي طرف من أطراف هذه الثنائية انحازت تجربة الست نظيرة؟ أو في أي خانة يمكن موضعتها أو توصيفها؟ غير أن الإجابة عن مثل هذا التساؤل العام لم تُثر خلافات واضحة، لأن طبيعة التجربة وجوهر الأداء السياسي حددا الاجابة ورَسَما معالمها. فالطريقة السياسية التي اعتمدتها سيدة القصر كانت منسجمة مع نفسها في إطار المتحد الدرزي، سواء لجهة المضمون وقاعدته التقليدية، أو لجهة السلطة وطبيعتها الإقطاعية، أو لجهة آليات العمل ونمط العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي فرضها الاجتماع السياسي وذهنية البيئة المجتمعية وموروثها الثقافي في حينه، أو لجهة الشكل الذي تمظهرت فيه كل هذا المسائل وعبّرت فيه عن نفسها.

من هنا، فإن سيدة المختارة التي غدت زعيمة الغرضية الجنبلاطية بلا

منازع، سعت من خلال موقعها الاجتماعي والسياسي إلى المحافظة على التقاليد والعادات والأعراف والقيم السائدة، وعملت على تكريسها وتجسيدها من دون تجديد يُذكر أو تطوير ملحوظ. وهي لم تدعِ في الأساس ما يتعارض مع هذا الغرض أو يخالفه. لذلك، فإن النقد انصبّ على أن التجربة والطريقة السياسية ساهمتا، كما في غيرها من البيوتات التقليدية والعريقة في لبنان، في إعادة إنتاج السائد، وتأمين ديمومته بما يضمن استمرارية الزعامة ويعززها في وسطها الاجتماعي، وبما هي عليه ذهنيةً وأسلوباً وعلاقات ونمطاً ثقافياً.

أما في الإطار الثاني، فإن النقاش حول طبيعة التجربة وآفاقها الوطنية العامة، لم يكن بالقدر ذاته من الوضوح والانسجام. من هنا تفلت النقاش من «حدوده الطبيعية»، وتخطت التساؤلات فيه وحوله دور الزعامة التقليدي في بيئتها الخاصة ومحيطها الاجتماعي المباشر ليطاول الأبعاد السياسية والعوامل الرئيسة التي حركت التجربة وحدّدت لها هذا المسار، وصولاً إلى التساؤل حول الهدف الأساس أو الأهداف الأساسية التي خدمتها هذه التجربة، لا سيما وأن البُعد السياسي للتجربة لم يكن، من حيث المبدأ، منسجماً مع الهوى السياسي العام على مستوى طائفة الموحدين الدروز، أو متوافقاً مع الميل السياسي السائد على مستوى البلد والمحيط العربي. لذلك تنوعت الآراء وتعاكست عند مناقشة تجربة نظيرة جنبلاط من هذه الزاوية المحددة، وبرزت بنتيجة هذا النقاش اتجاهات متناقضة جداً، الأمر الذي جعل النقد يكون أكثر وضوحاً وقساوة ويتجه إلى مضمون الخيار السياسي الذي اعتمدته، وإلى الانعكاسات التي فرضها هذا الخيار على القضايا الوطنية الكبرى.

من هنا، فإن جوهر النقد، في هذا الإطار، يتمثل في ثقل الحضور الفرنسي في التجربة السياسية وشدة وطأته في توجيه العمل السياسي وتحديد آفاقه، بحيث غدت السياسة الفرنسية هي القاعدة الأساس التي تقوم عليها التجربة والخلفية



الموجهة لمسارها والمحددة لخياراتها والمعتمدة لإقامة تحالفاتها وتعيين مواقفها.

لقد اتخذ النقاش في هذه الوضعية خاصية معينة على المستوى الوطني العام، لأن المظلة الفرنسية للست نظيرة جاءت في لحظة تاريخية دقيقة وفترة سياسية مفصلية في تاريخ البلد الناشئ وتركيبته، وفي خضم التوتر الدائر في تلك المرحلة حول الانتداب الفرنسي وسياساته. لذلك، بدا موقف سيدة المختارة وكأنه متعارض مع المناخ السياسي المناوئ لسلطة الانتداب ومعاكس للهوى الوطني والعربي الرافض لسياسة فرنسا وخططها، سواء على مستوى المنطقة أو على مستوى لبنان الكبير أو على مستوى المتحد الدرزي. ففي ظل الصراع الاستعماري عليها، شهدت المنطقة موجة من حركات الاحتجاجات الوطنية ومظاهر متعددة من العصيان المدني والتمردات العسكرية ضد فرنسا وأشكال الهيمنة الأجنبية ومشاريع التجزئة والتفتيت.

كما كان للنقاش حول تجربة نظيرة جنبلاط في الخيار السياسي العام حدّته المميزة على صعيد طائفة الموحدين الدروز، لأن المتحد الدرزي في لبنان الكبير ورث، نتيجةً لمسلسل الصراعات الطائفية والمذهبية التي عاشها جبل لبنان وعلى فترات متعاقبة من تاريخه، موقفاً معارضاً لفرنسا وسياساتها ومشاريعها، بل اختزنت الطائفة موروثاً ثقافياً مهماً في عمق العداء الخاص تجاه فرنسا.

من هناك كان الموقف الإيجابي لسيدة المختارة من الانتداب الفرنسي والتسليم بالسياسة الفرنسية أمراً غير مألوف، مما أخضع هذا الموقف وذاك النهج للتأويل وأثار الكثير من الشكوك والالتباسات، وبالتالي بقيت التجربة وصاحبتها في هذا الجانب موضوعاً مثيراً للجدل ومسألة خلافية بامتياز.

إن تعدّد التوصيفات التي أُغدقت على علاقة سيدة القصر بالسلطات الفرنسية وتنوّع التعابير التي أُعطيت لها (مسايرة أو ضرورة، أو توازن، أو تأييد أو تحالف أو صداقة، او خيانة... إلخ) يجعلان البحث في طبيعتها أمراً هاماً في مسار التجربة وقراءة مظاهرها السياسية. لذلك، يتركز التساؤل في هذه النقطة

حول المبررات التي دفعت بنظيرة جنبلاط إلى اعتماد هذا الخط السياسي. وما هي حقيقة هذه العلاقة وطبيعتها وحدودها؟ وما هي انعكاساتها على صعيد الزعامة الجنبلاطية من جهة، وعلى الصعيد الوطني من جهة اخرى؟

## الطبيعة والمسبّبات

عبّر الموقف الشعبي أمام البعثة الأميركية – لجنة هنري كينغ وتشارلز كراين 1919، وبرنامج المؤتمر السوري (2 تموز 1919) عن مدى التعلّق بفكرة الوحدة السورية والدعوة إلى الاستقلال التام والنفور من فرنسا ووجودها العسكري والسياسي في المنطقة[1]. فقد كانت مناطق بلاد الشام ملتزمة الهوية العربية كإطار جامع لأبنائها، ومتأثّرة، إلى حدّ بعيد، بالنفوذ البريطاني من موقع العداء لفرنسا؛ ولم يخرج دروز جبل لبنان، من حيث المبدأ، عن هذا الاتجاه.

فالطوائف اللبنانية التي تقاسمتها الدول الأجنبية، تحوّلت كل منها محميّةً لقنصلية دولة معينة تقوم برعايتها وتتعهدها بالحماية وتكون مرجعها السياسي ومرشداً لها في قضايا البلد وشؤونه (الموارنة لفرنسا، الأرثوذكس لروسيا، الدروز لبريطانيا...). لذلك استظلّ الدروز، كطائفة، المظلة البريطانية التي وفّرت لهم ما يلزم من «حماية» وقدّمت لهم العون والمساعدة في مسلسل الحروب الداخلية[2]، في مقابل المظلة الفرنسية – الأم الحنون – للموارنة! الأمر الذي

1. للمزيد، يراجع:
– وجيه كوثراني: م. س، ص 291–298 و363–382.
– ساطع المصري: **ميسلون**، بيروت، ص 243، 248، 621، 262.
– يوسف الحكيم: **سورية في العهد العثماني**، بيروت، 1996، ص 158.
2. غالى بعض الأفراد في الميل نحو بريطانيا والتعلق بها. فاعتبر سعيد تقي الدين مثلاً أنه درزي بريطاني. يراجع: سعيد تقي الدين: **المجموعة الكاملة** (المقالات السياسية)، الجزء الرابع، بيروت، دار النهار، ص (153–156)، مما يدلّ على قوة الهوى «البريطاني» عند الدروز في تلك المرحلة.



أظهر هذه الدول بمظهر الحريص على هذه الطوائف والمدافع عنها.

غير أن التحوّل في «الموقف الوطني» العام، ومن ضمنه طائفة الموحدين الدروز، تجاه فرنسا، بدأ يأخذ مساره نحو الإيجابية رويداً رويداً بعد هزيمة الحكومة العربية في دمشق، ومعركة ميسلون – 24 تموز 1916 – وإعطاء الوجود الفرنسي في المنطقة بُعداً دولياً مستنداً إلى صيغة الانتداب التي أقرته «عصبة الأمم»، بحيث غدت فرنسا كسلطة انتدابية أمراً واقعاً، بعد أن كانت كقوة احتلال تثبت أقدامها في البلاد منذ العام 1918 وتقيم المؤسسات وتفرض حضورها على مختلف القطاعات السياسية والمجتمعية والاقتصادية والتعليمية، مستفيدة من تجربتها التاريخية في المنطقة منذ مرحلة السلطنة العثمانية. لذلك فُهم الانتداب، وفي بداياته الأولى، إرشاداً ومساعدة وليس احتلالاً وتحقيقاً لمصالح الدول المنتصرة في الحرب الكونية الأولى. وقد ساعد في هذا التحوّل نحو فرنسا، سياسة الترهيب والترغيب التي اعتمدتها سلطات الانتداب في كل من سوريا ولبنان، الأمر الذي ساهم في تخفيف حدّة الاحتقان السلبي ضدها، وخفّف من الموروث السياسي المعادي لوجودها وسياساتها.

تأثّر دروز جبل لبنان بالمناخ العام الذي بدأ يسود في المنطقة، عموماً، ودولة لبنان الكبير، خصوصاً، فهبّت في وسطهم رياح هذا التحوّل وقويت الآراء الداعية إلى مزيد من التقارب مع فرنسا. واشتد حضور الرأي المؤيد لوجودها بعدما كان أقلية سياسية «متهمة» وضعيفة وغير مؤثّرة إلى حدّ بعيد. غير أن استقرار الوضع للانتداب جعل المعارضين والمعترضين يعيدون التفكير جدياً في مصالحهم ومستقبلهم السياسي. لا سيما وان معتمد بريطانيا – الدولة التي تدعي حمايتهم – كان نصح زعماء الدروز الذين اجتمعوا به على مائدة نسيب بك الداوود في قرية حلوة، قضاء راشيا الوادي، في وادي التيم، بقبول الانتداب، لأن

سوريا ولبنان سيكونان من نصيبه[3]. لذلك بعد أن تخلّت بريطانيا عن حمايتها للدروز، من خلال قبولها مختارة أو مكرهة، الانتداب الفرنسي، فإنهم «كانوا ولا شك يلومون أنفسهم ويزدرون نباهتهم إذا تركوا للموارنة وحدهم استثمار وجود الفرنسيين في لبنان منتدبين وحكاماً»[4]. وهذا تجسيد للقاعدة السياسية اللبنانية التي تضرب جذورها عميقاً في تاريخ الجبل اللبناني.

إن هذا التحوّل لم يلغ الاتجاه العروبي-الوحدوي ومواقفه السياسية. غير أنه، بلا شك، أربكه واخترق حصونه بشكل أو بآخر، وفرض عليه التعايش مع «الاتجاه الكياني» القابل بالانتداب والوجود الفرنسي. لذلك، فإن حركات العصيان والتمرّد ضد الاحتلال الفرنسي بدأت تتحاصر سياسياً من خلال هذا الفضاء «البراغماتي» من جهة، ومن خلال سياسية البطش والتنكيل التي اعتمدتها القوات الفرنسية مع الثوار ورجال العصابات من جهة اخرى، ومن خلال سياسة الاحتواء والتطويع التي سار عليها الفرنسيون مع أبناء البيوتات الإقطاعية والتقليدية الدرزية من جهة ثالثة، إذ تم إغراؤهم بالوظائف وجذبهم عبر تقوية نفوذهم وتوسيعه والمحافظة على مواقعهم ومكانتهم الموروثة منذ أيام الدولة العثمانية.

لقد فهم الفرنسيون طبيعة البنية المجتمعية للمنطقة وتركيبتها الديموغرافية والإثنية والدينية ولعبوا على أوتارها بإتقان ودقّة. فعندما وجدوا في بداية الأمر صعوبات كثيرة تحول دون إعلان كبار المسلمين تأييدهم لوضع يد فرنسا على البلاد داروا، كما يشير الرياشي، نحو الدروز الذين كانوا طيلة «الدهور جيشاً قوياً عنيفاً يخدم جميع الذين يقدّرونه حق قدره ويرفعون شأنه ويساعدونه على تقوية كيانه كأهلية طائفية بين الأكثريتين المسلمة والمارونية»[5]. ويؤكد هذا

3. حسن أمين البعيني: م. س، ص 83.
4. إسكندر الرياشي: م. س، ص 101.
5. م.ن، ص 34-35.



القول الاتجاه الاستعماري الذي عمل على إحياء النعرات الطائفية والمذهبية التي لم تنتج غير المذابح والمزيد من الانقسامات المجتمعية، الأمر الذي جعل المنتدبين يقربون هذه الطائفة ويبعدون تلك، ويربكون هذه ويفتكون بتلك، أو يضعون الطوائف والمذاهب بعضها في وجه بعض. ليدوم وجودهم ويستمر. لهذا نجحت فرنسا، مثلاً، في إثارة المخاوف بين أبناء المجتمع الواحد. وجعلت الدروز وغيرهم يطالبون بضرورة وجود حاكم اجنبي أو بقاء الحاكم فرنسياً، أو من غير أبناء البلد، لأنه إذا وقع على أبناء الطوائف ظلم يلجأ إلى «عدل الحاكم» الاجنبي، لكن إلى مَن يلجأ هؤلاء إذا كان الحاكم «وطنياً»؟ خصوصاً أنّ الحذر من الماضي والحاضر «ما هو غني عن البيان»[6] عند مختلف الطوائف والمذاهب.

ضمن هذا الفضاء السياسي، يمكن قراءة التحوّل السياسي في الزعامة الجنبلاطية ومتابعة أهم مجرياته ورصد آلياته ومعرفة أهم مبرراته، الخاصة منها أو العامة، التي جذبت نظيرة جنبلاط لاعتماد السياسة الفرنسية والانخراط في خانتها المباشرة. فالخيار السياسي لسيدة المختارة بدا وكأنه ليس وليد ساعته، بل هو نتيجة لمسار فرضته تحوّلات مجتمعية وسياسية، ورسّخته تراكمات من الممارسات والسياسات التي شهدتها المنطقة وطاولت برذاذها الجبل اللبناني وفئاته المتنوعة.

وعليه، يمكن القول من موقع «التفسير» وليس «التبرير» إن الست نظيرة ورثت، إلى حد بعيد، هذا الاتجاه. غير أن الواقع يدل بالمقابل على أنها ساهمت لاحقاً في ترسيخه وتثبيته. فإذا كانت البدايات الأولى للتجربة قد «فرضت» عليها العلاقة مع فرنسا، فإن مسارها يبيّن أنها غذّت هذه العلاقة ونمّتها، إلى درجة غدت من المؤيدين الثابتين للانتداب والملتزمين بسياسته والمعتمدين على

6. **الصفاء**، 9 شباط 1923.

نهجه. فقد بلغت هذه العلاقة في مرحلة الانتداب «شأواً كبيراً وأوجاً عالياً»؛ إذ إنّ المنتدبين كانوا قد وجدوا في المختارة «معاوناً صادقاً فأخذوا يرفعون شأنها ويزيدون نفوذها»[7].

ولعل عملية اغتيال فؤاد بك كانت من العوامل المباشرة التي دفعت نظيرة جنبلاط إلى الإبقاء على الخط الذي كان زوجها قد بدأه، لا سيما وأن الفرنسيين استفادوا، عملياً، من حادثة الاغتيال إلى حدودها القصوى، فأحاطوا العائلة المفجوعة بقتل زعيمها بمزيد من الاهتمام، ورعوا حفل التأبين وشاركوا في التشييع وعمدوا إلى اتخاذ تدابير حازمة وإجراءات تعسفية ضد أبناء القرى المحيطة بمكان الحادث[8]؛ الأمر الذي جعل سيدة القصر تحتاج في لحظة تاريخية، إلى قوة سياسية تستند إليها وتحميها، إذا جاز التعبير، وتثبّت موقعها في الزعامة وتعطيه التغطية السياسية اللازمة في مواجهة الآخرين، سواء داخل العائلة أو على مستوى الطائفة أو على المستوى الوطني العام. لذلك تقاطعت المصالح بين الانتداب وسيدة المختارة، فتعمّقت العلاقة وقويت، بل إن الفرنسيين بشخص المفوض السامي الكونت دي جوفنيل، كانوا اكتشفوا قبل اللبنانيين أنفسهم «عبقرية» الست السياسية وجرأتها الغريبة كامرأة لجهة إقدامها على تصدّر كرسي الزعامة الجنبلاطية[9]، مما عزّز الاندفاعة الفرنسية باتجاه قصر المختارة وتعزيز موقعه.

انطلاقاً من هذه القاعدة وعلى اساسها، تتنوّع التبريرات التي تعلل سلوكها السياسي، بدءاً من الخلفية السياسية ومن مدى قرب صاحب الرأي أو بُعده عن الغرضية الجنبلاطية. ولعل من أهم هذه التبريرات يبرز الآتي:

7. اسكندر الرياشي: م. س، ص 97-98.
8. يراجع الفصل الثاني.
9. إسكندر الرياشي: م. س، ص 102.



### 1. تصرّف براغماتي

يمكن القول إنّ سيدة القصر تصرفت تصرفاً «براغماتياً»، خصوصاً أنها غير قادرة على تجاوز الانتداب واقعاً وسلطة ومؤسسات، فتصوّرت الفرنسيين كالعثمانيين سابقاً «شراً لا بد منه»[10]، يُفترض التعامل معه بالليونة السياسية اللازمة، والإبقاء على «شعرة معاوية» معه، الأمر الذي تندرج فيه العلاقة السياسية مع الفرنسيين في خانة الضرورة والأمر الواقع، وبالتالي فإنها لا تستند بالضرورة إلى «الاقتناع أو المحبة»[11].

### 2. خدمة الغرضية

يشير البعض إلى أن مصلحة «جماعتها» كانت عاملاً مهماً دفع مزيداً من الرياح لتؤازر أشرعة السياسة الجنبلاطية بالاتجاه الفرنسي. فعند قيام رياض الصلح - أول رئيس وزراء لدولة لبنان المستقل - بواجب التعزية بالست نظيرة، شدّ على يد كمال جنبلاط قائلاً له: نحن لم نكن مرتاحين إليها، لأنها كانت صديقة للفرنسيين. و«لكن صداقتها لفرنسا كانت بسبب الحفاظ على جماعتها»[12]. لذلك لا يشك أبناء الغرضية الجنبلاطية في وطنيتها. ففرنسا هي الحاكمة والآمرة وصاحبة الكلمة الفصل في البلد، الأمر الذي جعل المحافظة على الغرضية وخدمتها أمراً لا يمكن أن يكون إلا عبر السلطات الفرنسية[13]. وهنا تتداخل المصالح الذاتية بالمصلحة العامة أو تتقاطع لتعطي هذه العلاقة المزيد من التبريرات للنهج السياسي الذي اعتمدته سيدة المختارة في أدائها السياسي على المستوى الوطني العام.

10. إيغور تيموفييف: م. س، ص 31.
11. نجيب بك شمس: م. س.
12. إيغور تيموفييف: م. س، ص 184.
13. **تجمع المقابلات الشخصية** على هذا الرأي بأشكال مختلفة، وتعابير متنوعة، غير أن الجوهر يبدو واحداً.

### 3. الانقسام المجتمعي

ضمن المنحى التبريري لسياسة نظيرة جنبلاط، تبرز أيضاً مقولة الانقسام المجتمعي في الشوف – كما على امتداد مساحة الوطن الناشئ – وإشكالية العلاقات الدرزية-المارونية خصوصاً، والإسلامية-المسيحية عموماً، الأمر الذي يجعل مصلحة الشوف وأبنائه – كما مصلحة الوطن برمته – هي الدافع إلى استمرار العلاقة السياسية بسلطات الانتداب. فقد «درأت» الست عن الشوف «سطوة المستعمر بحنكة وذكاء وحسن تصرّف»[14]. وهذه المسايرة، برأي إدمون رباط، كانت «لرغبة عندها في أبعاد الفتن الطائفية بين المسيحيين والدروز»[15].

### 4. حاجة فرنسية

يبالغ البعض في توصيف هذه العلاقة وتعليل أسبابها من خلال تضخيم الموقع الشخصي لنظيرة جنبلاط وتعظيمه وإبرازه محرّكاً «يفرض» على الفرنسيين التعامل معه. غير أن هذا الرأي لا يستطيع الفصل أو التمييز بين آداب السلوك الفرنسي الذي يقدر المرأة ويحترمها ويتصرف حضارياً تجاهها، من جهة، وبين مضامين العلاقة السياسية وأبعادها، من جهة أخرى، والتي تهدف إلى المحافظة على المصالح الفرنسية وتنفيذ سياسة الدولة بعيداً عن شكلية السلوك الحضاري ومظاهره. لذلك يعتبر حافظ أبو مصلح مثلاً أن نزع المفوض السامي قبعته وانحناءه احتراماً للست وإجلالاً للزي الذي ترتديه ليسا إلا تصرّفيْن يدلّان دلالة ساطعة ويعطيان برهاناً قاطعاً على عظمة مركزها وقوة شخصيتها وإثبات وجودها، وبالتالي تدعيماً لحكمها وتركيزاً لموقعها[16]. وكأنه في هذا التوصيف يوحي، بطريقة أو بأخرى، أن العلاقة في أساسها انجذاب فرنسي إلى الموقع

14. ناديا الجردي نويهض: م. س، ص 75.
15. د. فارس اشتي: **الحزب التقدمي...** ص1، م. س، ص 160.
16. حافظ أبو مصلح: م. س، ص 227.



الزعامي والزي التقليدي، بعيداً عن السياسة والمشاريع الاستعمارية للدولة المنتدبة، وهذه القراءة غير دقيقة. لكن يمكن القول إن الصداقة الفرنسية لقصر المختارة تلطف أو تخفّف سلبية قسم من الدروز تجاهها، مما يجعل العلاقة في هذه النقطة الجد محدودة والآنية، حاجةً فرنسية.

### 5. قراءة مميزة

إن مبرّرات التوجّه الجنبلاطي بزعامة سيدة المختارة بالاتجاه الفرنسي، إذاً، كانت لا تخرج عن لعبة المصالح وعلاقة الحاكم بالمحكوم ومراعاة موازين القوى، غير أنها في الوقت عينه احد المظاهر المعبّرة عن فرادة الأداء السياسي للست نظيرة وحكمتها في تزعم الغرضية الجنبلاطية أولاً والدرزية ثانياً في تلك الظروف الدقيقة. فإذا كان الفرنسيون قد قرروا، عن سابق تصور وتصميم، أن تكون نظيرة جنبلاط محاورة لهم، لما وجدوا في شخصها من قوة ونباهة وذكاء وجرأة، فإن الصورة الأهم تمكن في مقدرتها، كامرأة في «إقناع الدروز» بأن تكون المحاور السياسي لفرنسا وأن تسير في هذا الخضمّ، رغم خاصية المجتمع الدرزي وطبيعته[17]. لذلك، فإن المبرّر هنا يكمن في فن الأداء السياسي، ما يجعل التبريرات الأخرى تأتي في سياق متناغم وتنطلق من قراءة الواقع بكل حيثياته ومعطياته لتصل إلى إدارة هذا الواقع والسيطرة على أحداثه وضبط إيقاع حركته بما يحقق التوازن والمصالح المشتركة.

إنّ مجمل هذه الآراء وغيرها، لتبيان طبيعة العلاقة مع الفرنسيين ومسبباتها، تحاول على أهميتها، أن تقدم مسوغات «نظرية» للخيار السياسي الذي انحازت اليه نظيرة جنبلاط. غير أن هذا المنحى لم يكن حالة ظرفية أو موقفاً طارئاً، بل كان نهجاً ثابتاً وَسَمَ أداءها وأسلوب عملها ومَيَّزَ تجربتها السياسية، ما يجعل قراءة هذا النهج ومقاربته أقرب إلى أن يكون سعياً لتثبيت موقع الزعامة واستمراريتها

17. فؤاد ميلاد رزق الله: م. س.

أكثر مما هو اتجاه من موقع المسايرة أو «الباطنية السياسية»، لأن المحافظة على هذا الخيار السياسي والالتزام بتفاصيله على مستوى الغرضية الجنبلاطية كما على مستوى تحالفاتها في الوطن الناشئ، يؤكدان هذه المقاربة ويعمقانها. فالست نظيرة انحازت على الصعيد الوطني إلى جانب القوى والهيئات والأفراد الذين يسيرون في ركب السياسة الفرنسية مباشرة. من هنا، غدا تحالفها مع أميل إده «زعيم الانعزاليين رقم واحد»، كما يسمّيه اسكندر الرياشي[18]، وكتلته الوطنية من معالم تجربة سيدة المختارة وقاعدة من قواعدها الراسخة.

غير أنه من المفيد عند توصيف علاقة المختارة بالفرنسيين وقراءتها الإشارة إلى أمرين: الأول هامش الحركة السياسية للست نظيرة، والثاني البعد السياسي المباشر للعلاقة مع الفرنسيين.

– في الأمر الأول: يبدو أن سيدة القصر كانت، وبدون أدنى شك. موضع ثقة الفرنسيين، وخارج نطاق الشك في نواياها السياسية، الأمر الذي وفّر لها حيزاً من الحركة غير متوافر لغيرها من السياسيين. فهي ترفض، مثلاً، عرضاً للتحول نحو بريطانيا (حليفة الدروز التاريخية) من جهة، وتعمد، من جهة أخرى، إلى «مسايرتهم» ومصالحتهم على مرأى من الفرنسيين ومسمعهم.

فقد أشار حسن أمين البعيني إلى أن المير مجيد ارسلان، المتعاطف مع الكتلة الدستورية، والدولة البريطانية، أرسل في أوائل الأربعينات الوجيهين الدرزيين عارف يونس وأمين غنام إلى شاهين الغصيني للمشاركة في إقناع الست نظيرة بالتحول نحو البريطانيين، لكنها أبت ذلك ورفضته[19]، رغم أن هذا العرض يتقاطع مع الميل التقليدي إلى طائفة الموحدين الدروز تجاه الدولة البريطانية ويدغدغ الحنين التاريخي عندهم ويوفّر لسيدة المختارة مزيداً من الالتفاف

18. إسكندر الرياشي: م. س، ص 161.
19. حسن أمين البعيني: م. س، ص 330.



حولها. من هنا القول بمستوى الثقة الفرنسية بها. أي اطمئنانهم إلى صدقيتها ورفضها فكرة التآمر والعمل في الخفاء ضدهم.

في المقابل، فإن الست نظيرة كلّفت صهرها الوزير حكمت جنبلاط في العام 1942 الاتصال بالسيدة مود فرج الله للتوسط بينها وبين البريطانيين، والطلب منها دعوة الجنرال البريطاني هولمز (Holmes) لتناول طعام الغداء إلى مائدتها في المختارة، بحيث أبلغ حكمت جنبلاط بالحرف «يسعد الست نظيرة، اذا كان بالإمكان، تغيير رأي الانكليز فيها». وهذا الطلب مثير للدهشة، كون سيدة المختارة، كما تقول مود، من «أنصار فرنسا إلى اقصى الحدود» والانكليز «يتجنبون مخالطتها». غير أن السيدة فرج الله استطاعت إقناع الانكليز بضرورة اغتنام هذه الفرصة وتلبية الدعوة، لأهميتها ولأهمية صاحبة الدعوة. وقد تمت الدعوة واستقبلهم أنصار الست ومناصروها بالمئات، الأمر الذي ترك آثاره الايجابية على الانكليز الذين تفاجأوا بما شاهدوه وسمعوه من إطراء وثناء، سواء من الست نظيرة التي ألقت خطاباً باللغة العربية، أم بمستوى الاحتشاد الجماهيري والتكريم الخاص والترحاب المميز الذي لقيه الوفد الزائر[20]. من هنا القول بهامش معين لحركتها السياسية، لأن دعوة الغداء لم تكن عملاً سرياً أو في الخفاء عن الفرنسيين.

– في الأمر الثاني، فإن البعد السياسي للعلاقة مع الفرنسيين يصبّ مباشرة في خانة المصالح والارتهان إلى حد بعيد. فالدعوة إلى التحوّل عن الانكليز أو دعوتهم إلى الغداء في المختارة لا يلغي هذا البعد أو يخفّفه. بل هو مؤشر إلى مدى تأثير «الخارج» في دعم قوى «الداخل»، من جهة، وعلى دور قوى هذا الداخل في إعطاء «الخارج» مسوغات القوة للتدخل في الداخل اللبناني، من

20. **مود فرج الله تتحدث** (بالفرنسية): م. س، وتشير إلى أن أهمية هذه الخطوة مع مقام درزي بحجم الست نظيرة. وعلى ان انطباعات البريطانيين كانت ممتازة باستثناء شخص واحد من الوفد لم يكن مرتاحاً لأنه لم يكن بريطانياً.

جهة ثانية. وهذه الظاهرة (علاقة الداخل بالخارج وتأثير الخارج على الداخل)، وَسَمَت الحياة السياسية اللبنانية ولم تزل احد تعابير الارتباك السياسي في البلد، وإن اتخذت منذ عهد الإمارة وحتى اليوم أشكالاً متعددة أو تبلورت في صيغ مختلفة، كونها نسجت خيوط الانقسام المجتمعي ولعبت على أوتاره.

من هنا، يمكن القول إن طبيعة العلاقة مع الفرنسيين ومبرراتها على المستوى الوطني اللبناني بقيت ضمن هذين الأمرين. غير أن انعكاساتها على مستوى المنطقة أثار الكثير من الالتباسات والارتباكات والاتهامات السياسية. ويبدو أن الموقف من الثورة السورية الكبرى كان الأبرز وضوحاً والأكثر حضوراً والأشد خلافاً نتيجة لما تمثله الثورة من جهة، وقائدها سلطان باشا الاطرش في المخيلة الوطنية عموماً والدرزية خصوصاً من هيبة وتقدير، ولما مثلته الثورة من جهة أخرى من نمط سياسي مغاير لنمط الست نظيرة في العلاقة مع سلطات الانتداب الفرنسي. فكيف يمكن متابعة التجربة السياسية لسيدة المختارة وزعيمة الغرضية الجنبلاطية في هذه المسألة الحساسة والمهمة؟

## الثورة الممنوعة

مثلت الثورة السورية الكبرى (1925–1927) ذروة الاحتقان الشعبي ضد الانتداب الفرنسي وسياسته التقسيمية واجراءاته التعسفية. فكانت تعبيراً عن حالة شعبية–سياسية رافضة للاحتلال وطامحة بالاستقلال والوحدة. كما إنّ الثورة كانت امتداداً لحركات العصيان وحالات التمرد التي شهدتها المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى وانهزام الدولة العثمانية، الأمر الذي جعلها معلماً مميزاً في تاريخ المنطقة، ومعياراً لتقويم الأشخاص والحركات والهيئات والتجمعات السياسية والاجتماعية.

لم يقتصر المدى المكاني للثورة على جبل الدروز في حوران، إذ سرعان ما امتدت شراراتها الأولى (18 تموز 1925) بقيادة سلطان باشا الأطرش على



مساحة الأراضي السورية، فغدت ثورة الوطن بوجه المستعمر. وقد طاول رذاذها الكيان اللبناني الناشئ بشكل عام، والأقضية الأربعة التي ضُمّت إلى دولة لبنان الكبير (البقاع، حاصبيا، الجنوب، طرابلس) بشكل خاص، حيث وجدت الأرض الخصبة للنمو والانتشار نتيجة التعاطف الشعبي الواسع مع طروحاتها ومقولاتها. وتجسد هذا للتعاطف من خلال التنسيق مع قيادة الثورة في سوريا. وكان زيد الأطراش، الأخ الأصغر لسلطان باشا، قائد الثوار في الأراضي اللبنانية، يساعده فؤاد سليم[21]، كما تجسّد هذا التعاطف من خلال تعاظم حركات العصيان المسلح والعمليات المسلحة ضد القوات الفرنسية في هذه المناطق وتنسيق مراكز وجودها بين هذه الأقضية والعمق السوري[22].

لقد جسّد موقف جبل لبنان، بشكل خاص، من الثورة وامتداداتها إلى دولة لبنان الكبير إشكالية الكيان الناشئ وحدّة انقساماته المجتمعية وشدة تعارض جماعاته السياسية وقوة تناقض خياراتهم ومواقفهم حول هوية الكيان وعلاقاته بمحيطه، وبالتالي الموقف من سلطة الانتداب وسياساتها.

لذلك، فإن تعاطف دروز «لبنان الصغير» مع الثورة وتضامنهم مع إخوانهم في جبل الدروز في سوريا، أشعل التوتر الكامن بين الجماعات الطائفية التي تشكل نسيجه الاجتماعي، خصوصاً أن القوات الفرنسية كانت قد غذّت هذه الوضعية وأبقتها متقدة باستمرار وملتهبة دوماً لتطويق اية حركة احتجاجية ضد

---

21. لمزيد من المعطيات حول فؤاد سليم (1893–1925) الذي استشهد بقذيفة أثناء القتال وقال عنه سلطان باشا «مات فؤاد وماتت روح الثورة»، يراجع إيغور تيموفييف، ص 41 وهامش ص 518.
22. للمزيد يراجع:
- يوسف الحكيم: **سورية والانتداب الفرنسي**، بيروت، 1983، دار النهار، ص 125–126 و132–135.
- هدى رزق: **لبنان بين الوحدة والإنفصال**، ص 84–87 و89–90.
- **البشير**، 2 أيلول 1925، 7 تشرين الثاني 1925 و7 كانون الثاني 1926.

وجودها.

إن الارتباكات التي ولّدتها الثورة في الجبل اللبناني عامة وفي المتحد الدرزي فيه خاصة، لم تمنع مساهمة العديد من أبناء الشوف في الالتحاق بالثوار والإسهام المباشر في الثورة من خلال القتال على الجبهات المشتعلة بوجه الفرنسيين، أو من خلال مواجهة الجنود الفرنسيين والاغارة على مواقعهم العسكرية والأمنية أو من خلال مجابهة الجنود الفرنسيين الذين كانوا يتعقبون الثوار العائدين من جبهات القتال[23].

يشير إيغور تيموفييف في هذا المجال إلى أن دروز الشوف أبدوا تضامنهم التام مع الثوار وأعرب الكثير منهم عن الاستعداد للقتال فوراً في صف الثوار. وبناء على ذلك ترك مئات الرجال، ومن مختلف الأعمار، مساكنهم سراً وانضموا إلى مفارز حمزة درويش وفؤاد سليم وشكيب وهّاب وعادل النكدي ورشيد طليع وحمد صعب، وغيرهم من زعماء الانتفاضة الذين غدت اسماؤهم آنذاك رمزاً للكرامة الوطنية والعزة القومية[24].

غير أن مدى المشاركة المباشرة في صفوف الثورة السورية الكبرى في جبل لبنان بقي محصوراً وضيقاً إلى حد بعيد، وكان موضوعاً خلافياً بين الدروز أنفسهم. ففي حين رأى البعض منهم أن تكون المساهمة عبر الالتحاق بالثورة على شرط القتال خارج نطاق «لبنان الصغير» وحدوده، فإن البعض الآخر كان ميّالاً إلى نقل الثورة إلى داخله. من هنا، يشير حسن أمين البعيني إلى أن موقف الدروز في جبل لبنان مال في اتجاهات ثلاثة:

الأول العمل على إنهاء الثورة عبر التوسط بين الثوار وسلطة الانتداب، والثاني العمل على منع امتداد الثورة وعملياتها العسكرية إلى ربوع الجبل،

23. حسن أمين البعيني: م. س، ص 178.
24. إيغور تيموفييف: م. س، ص 42.



والثالث المساهمة المباشرة في صفوفها[25].

ضمن هذا الفضاء السياسي المُحتَقِن يمكن تحديد موقف نظيرة جنبلاط بأنه كان أقرب إلى أن يندرج مباشرة في الاتجاهين الأولين، أي التوسط ومنع الامتداد.

في الاتجاه الأول، باركت سيدة المختارة وَرَعت مساعيَ قام بها بعض زعماء الدروز في الشوف للتوسط بين الثوار من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى، لاسيّما وأن المفوض السامي دي جوفنيل الذي كان يثق بها كثيراً «انتقاها من بين جميع «كبار الرجال» الذين كانوا يعرضون أنفسهم للخدمة، لتكون وسيطة بينه وبين الثوار» ليكف شرهم عن الفرنسيين[26]. في المقابل، يبدو أن البعض من الدروز، رغب في لعب دور الوسيط من خلال لفت نظر المفوض السامي سراي إلى ضرورة أن تأخذ السلطات الفرنسية جانب الحكمة والتعقل في معالجة تداعيات الثورة. والطلب منه أن يبادر إلى ارسال وفد إلى دروز حوران من أجل العمل لإعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية. لذلك تكلف عبدالله النجار القيام بهذه المهمة الخطيرة[27].

وفي السياق نفسه، عمد رئيس «استخبارات الشرق» دانتز إلى تكليف وفد آخر، قوامه فريد جنبلاط وفريد العماد ورشيد أمين الدين ووهبي طليع وقاسم أبو شقرا ومحمد عبد الصمد للقيام بالمهمة التي كان قد بدأها النجار. وقد تشكّل الوفد بموافقة نظيرة جنبلاط ورضاها. وهي التي قامت بتغطية نفقات سفره لمقابلة الثوار والتباحث مع قيادتهم في سورية. غير أن هذه المساعي «الوفاقية» لم تنجح عملياً، ولم تحقق أي انجاز مهم[28]، لأن الفرنسيين كانوا يبتغون من

25. حسن أمين البعيني: م. س، ص 173-178.
26. اسكندر الرياشي: م. س، ص 102.
27. **الصفاء**، 30 تموز 1925.
28. للمزيد، يراجع:

=

هذه «الحركة الاستعراضية» كسب الوقت ليس أكثر. وقد لجأوا إلى الست نظيرة ووافقوا على ارسال وفود للتفاوض مع الثوار بعد الضربة القاسية التي تعرضت لها قواتهم في موقعة نبع المزرعة في سوريا بتاريخ 2 آب 1925. لذلك لم يكن أمام زعيمة المختارة إلا الموافقة على التوجه الفرنسي، دون أن تكون بالضرورة على معرفة بنيّاتهم وخبايا سياستهم، وقيامها بالوساطة كان رغبة منها في نشر السلام وحقن الدماء[29]. ويعتبر غسان التويني أن هذا المسعى للصلح الذي اعتمدته زعيمة المختارة بين الجبل الدرزي والسلطات الفرنسية في العام 1925، كان من أوّل الأعمال التي ابرزت حكمتها[30] وفطنتها السياسية وبُعد نظرها في معالجة القضايا الشائكة، خصوصاً أن الثورة رافقت البدايات الأولى لتسلّم سيدة القصر زعامة الغرضية الجنبلاطية، ولم تكن بعد على دراية بالأوضاع المحيطة.

في الاتجاه الثاني، سعت نظيرة جنبلاط بكل طاقاتها وإمكاناتها وعلاقاتها لمنع امتداد الثورة إلى جبل لبنان، ورفضت تحويله جبهة مفتوحة ضد الفرنسيين. وفي هذا الجانب المحدد، يشير اسكندر الرياشي إلى أن المفوضية السامية التي تقدر فيه كشخص «بعض المزايا السياسية»، دعته عند اندلاع الثورة السورية على الفرنسيين في العام 1925 للذهاب إلى المختارة ليكون «بينها وبين الفرنسيين صلة وصل»، وذلك لشدة الهياج الدرزي في تلك الفترة. لذلك يؤكد أن الست كانت تلعب دور السلام بين القرى المهتاجة في جبل لبنان، والتي كانت تستعد لمشاركة «السوريين» في ثورتهم، من جهة، وبين المفوضية السامية، وتعمل على تهدئة الخواطر وإقناع الفرنسيين بقبول الشيء الكثير من مطالب الثوار العامة. وقد عمدت إلى التخفيف من الدعوة للثورة في القرى

---

= – حسن أمين البعيني: م. س، ص 174–175.
– هاني أبي راشد: **حوران الدامية**، م. س، ص 412–417.
29. **النهار**، 28 نيسان 1987.
30. **النهار**، 28 آذار 1951.



الدرزية اللبنانية، وأصرّت على طلبها الكفّ عن حرب العصابات التي كانت مظاهرها وأشكالها قد بدأت تنمو هنا وهناك ضد الدولة الناشئة بمشاركة شباب الشوف[31].

ويبدو أن السلطات الفرنسية، من جهتها، كانت قد اتخذت كل الوسائل الممكنة للحيلولة دون انتشار الثورة بين دروز الشوف، ولجأت في سبيل ذلك إلى سلسلة من الاجراءات التعسفية، بدءاً من التنكيل بالمتعاطفين مع الثوار، إلى حملات الدهم والتأديب بحق القرى، إلى فرض الغرامات المالية على السكان، وصولاً إلى إشعال الفتن الطائفية بين الموارنة والدروز، أو مساعدة المتعاطفين مع فرنسا من المسيحيين ومساندتهم ودعمهم لتشكيل ما سمّي «الكتائب المسيحية للدفاع الذاتي»[32]، الأمر الذي جعل الانقسام المجتمعي قابلاً للانفجار على نطاق واسع في الشوف كما في بقية الأراضي اللبنانية.

إن حادثة بعذران ( 2 تموز 1926) كانت احد تجسيدات هذا الاتجاه الذي لجأت اليه سيدة المختارة. فقد تصدى الأهالي لجنود الانتداب الفرنسي عندما قبضوا على ثلاثة مجاهدين من آل القنطار كانوا عائدين من جبهات القتال. فعمد حاكم الشوف العسكري الكولونيل كليمانسون إلى تجريد حملة عسكرية كبيرة لمواجهة حوالى مئة وخمسين ثائراً مجتمعين في بعذران، ما دفع بوجهاء الدروز لمعالجة ذيول الحادثة، والحد من تطوراتها الميدانية ومضاعفاتها المجتمعية.

من هنا، بادرت زعيمة الغرضية الجنبلاطية إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع تقدم الحملة الفرنسية، من جهة، واخراج الثوار من الجبل، من جهة أخرى، لا سيما وأن الجنود الفرنسيين كانوا عمدوا في طريقهم لمواجهة الثوار إلى إحراق العديد من المنازل في المزرعة. وكان للست نظيرة الفضل الأول في وقف الزحف

---

31. اسكندر الرياشي: م. س، ص 100.
32. بشارة الخوري: م. س، ص 73 حيث يشير إلى دور السلطات الفرنسية في تشكيل عصابات مسيحية مسلّحة لمحاربة الثوار.

الفرنسي ضد الثوار في بعذران[33]. و«منع الفرنسيين من قصف الشوف»، كما يقول كمال جنبلاط[34]. ولمعالجة هذا الإشكال، قامت سيدة القصر بمقابلة الضابط الفرنسي المسؤول عن الحملة العسكرية وأقنعته بعدم جدوى إراقة الدماء وعدته، بالمقابل، ببذل جهدها لتخفيف التوتر وإحلال النظام بطرقها الخاصة[35]. وقد استطاعت إقناع الثوار بالانسحاب من مركز تجمّعهم. وعندما تباطأ الثوار بالانسحاب من سفوح جبلَيْ نيحا والباروك، دعت إلى اجتماع درزي عاجل تقرر فيه إرسال شيخَي العقل حسين حماده وحسين طليع لمفاوضتهم[36]. وأسفرت المفاوضات عن استسلام البعض من الثوار للسلطة الفرنسية، ومغادرة البعض الآخر خارج جبل لبنان والالتحاق بالثوار في جبل الدروز في سوريا، وخَلَدَ البعض الثالث منهم إلى الهدوء والسكينة[37] في قراهم وأماكن وجودهم.

يلاحظ، في هذا السياق، تعاون مختلف الأطراف في المتحد الدرزي، من سياسية وروحية واجتماعية، لتطويق أية محاولة لانتشار عمل الثوار وتوسعه في جبل لبنان. ولهذا دلالته المهمة جداً، سواء بين الدروز أنفسهم أو بين الدروز وسلطات الانتداب الفرنسي، بل يبدو أن «التضامن» الدرزي في الموقف «الموحد» من الثوار، رغم تنوع أطيافهم وتعدد مرجعياتهم، ورغم الاختلاف المتأصل في ما بينهم حول أكثر من قضية ومسألة كان في جوهره رسالة واضحة جداً بعناوينها العريضة ومضامينها الدقيقة لأكثر من طرف في الداخل والخارج.

33. للمزيد، يراجع:
- **البشير**، 8 تموز 1926.
- ناديا نويهض الجردي: م. س، ص 75-76.

34. **قضايا المرأة**، 8 آذار 1977.

35. يراجع إيغور تيموفييف: م. س، ص 43.
- عفيفة صعب: م. س، ص 136.

36. **البشير**، 10 و13 تموز 1926.

37. حسن أمين البعيني: م. س، ص 177.



لذلك يمكن القول إنّ هذا الموقف هو بداية الاعلان الدرزي الصريح عن الانخراط في تركيبة البلد الناشئ والقبول به، وبالتالي التراجع عن الدعوات الرافضة لوجوده والساعية لتقويضه، بكل ما يعنيه هذا القبول من التزامات وتعهدات وتبعات لاحقاً.

ويمكن تفسير هذا الاتجاه في الوسط الدرزي بأنه تعزّز بعد محاصرة الثورة وبداية تراجعها، الأمر الذي دفع بالعديد من الوجهاء والزعماء، وبموافقة الست نظيرة إلى تجديد الولاء للسلطة المنتدبة في مطلع كانون الثاني من العام 1926، بعد اجتماع مشايخ العرقوب والغرب والشوف الدينيين في مجدل بعنا بتاريخ 28 آذار 1926، حيث ارتفعت الأصوات المنادية بضرورة التوقف عن الالتحاق بالثورة أو مساعدة الثوار أو التساهل في استقبال ما سمّي بـ «الأشقياء» المخالفين لآراء الحكومة، أو القبول بالدعوة إلى التمرد وعدم إطاعة السلطة. يعلن هذا التوجه عن خيار سياسي واضح جداً جوهره السعي الحثيث لتوفير السكينة في الجبل والتوقف، عملياً، عن الإسهام في الثورة السورية الكبرى[38]. بل وصل الأمر بشيخ العقل حسن طليع إلى أن يعلن الحَرم على كل درزي يساعد «الأشقياء»[39]، ما حاصر الثورة أكثر سواء من الداخل الدرزي أو الخارج الفرنسي من جهة، وجعل الخناق على الثوار في الشوف يشتد شيئاً فشيئاً من جهة أخرى.

## التبرير والنتائج

إن قراءة الموقف السياسي الذي اتخذته نظيرة جنبلاط من الثورة السورية،

38. يراجع حسن أمين البعيني: م. ن، ص 176-177، والملحق، ص 398، الذي يبين رسالة الأجاويد.
- **لسان الحال**، 2 أيلول 1926، حيث إعلان الشيخ حسين طليع الحرم على كل درزي يساعد «الأشقياء».

39. **لسان الحال**، 2 أيلول 1926.

ومحاولة تقويمه، لم يخرجا عن الموقف التبريري، الذي وَسَمَ علاقتها السياسية بالفرنسيين، وبالتالي فإن ما قُدِّم لم يكن خارج السعي لإيجاد المسوغات وتقديم الحجج التي تحاول أن تبين مدى التعارض بين حقيقة ميولها من جهة، وضرورات كبت هذه الميول من جهة أخرى.

انطلاقاً من هذا التوصيف، فإن تعليل موقفها اندرج ضمن سياق الحرص على وحدة الجبل أولاً، ومنع الصدامات الطائفية والمذهبية ثانياً، ورفض الصدامات المسلحة وغير المسلحة مع الفرنسيين ثالثاً، وبالتالي فإن همّ زعيمة المختارة انحصر في إبقاء الشوف خارج نطاق الثورة من خلال إبقاء الثوار والثورة خارج نطاق الجبل وحدوده، الأمر الذي يجعل الجبل منطقة جغرافية «محايدة» من جهة، ويجعل من جهة أخرى أبناء المتحد الدرزي فيه خارج هويتهم ومواطنهم وميولهم، إذا جاز التعبير. وهذا ما يساعد على تطمين الفرنسيين ويخفف الذرائع التي يمكن أن تكون مبرراً لسلطات الانتداب لإشعال نار الفتنة وتأجيج النعرات وتعميق الانقسامات المجتمعية في ربوعه.

استناداً إلى هذه الخلفية، يقدم إيغور تيموفييف تفسيراً لموقفها من الثورة، فيؤكد أن زعيمة الشوف كانت تعارض محاولات إشعال فتيل الانتفاضة في الجبل اللبناني، بحيث تصورت، و«هي على حق» في ما تصورته، كما يقول، أن الفرنسيين سيعمدون، رأساً وللحال هذه، إلى تحويل النضال من أجل المطامح والأماني الوطنية إلى فتنة واقتتال بين الاخوة. وبالتالي سيلجأون إلى إشعال حرب طائفية عديمة الجدوى. لذلك تمكنت سيدة المختارة عبر الاتصالات الدائمة مع الأعيان والشيوخ المحليين، أو عبر المحادثات مع ممثلي العائلات الدرزية الثائرة، إلى تفادي وقوع أحداث كبيرة يمكنها أن تؤدي إلى صدمات سافرة مع الفرنسيين[40]. فقد عزمت زعيمة البيت الجنبلاطي على حقن الدم

40. إيغور تيموفييف: م. س، 43.



اللبناني والدم الجبلي والدم الفرنسي، وتمكنت من تهدئة الخواطر[41] الجياشة والملتهبة بين مختلف الاتجاهات والفئات والجماعات اللبنانية.

يعود هذا الموقف في جزء أساسي منه إلى وضعية «لبنان الصغير» وارتباكاته البنيوية، من جهة، وإلى رجحان الكفّة لمصلحة الفرنسيين، من جهة أخرى، وإلى بداية تراجع الثورة في بعض المناطق اللبنانية عامة وقِصر مدتها في جبل عامل، من جهة ثالثة، ما يجعل الفوائد التي يمكن أن تنجم عن امتداد الثورة إلى الجبل اللبناني لا تعادل النكبات التي سيُبتلى بها[42]. لذلك كانت زعيمة الغرضية الجنبلاطية تصر على الثوار والعصابات الدرزية اللبنانية المشاركة في الثورة على جبهات القتال البعيدة عن الشوف بدلاً من مقاتلة الفرنسيين في داخله[43] وإثارة خصومته. فهي لم تردع العصابات عن مهاجمة الفرنسيين خوفاً من اتهامها بالتعاون مع فرنسا ضد أبناء طائفتها، لكنها كانت تطلب من أفراد تلك العصابات الذهاب إلى جبل الدروز وغوطة دمشق بدلاً من تعريض لبنان لمجزرة طائفية جديدة تعيد فتق الجراح القديمة بين الدروز والنصارى. وهذا الموقف، بحد ذاته، كان له تقدير كبير عند الفرنسيين[44]. فسيّدة المختارة، برأي عفيفة صعب، أرادت ألا يُذلّ الشوف، وألاّ يتحكم الفرنسيون فيه كما يشاؤون؛ فهو مركز زعامتها وزعامة أسلافها من قبلها وزعامة ورثتها من بعدها[45].

41. النهار، 28 آذار 1959.
42. حسن أمين البعيني: م. س، ص 176.
43. يراجع إسكندر الرياشي: م. س، ص 100.
 - حسن أمين البعيني: م. ف، ص 175.
44. اسكندر الرياشي: م. ن، ص 100. ويذكر الشيخ نواف يوسف أبو علي: م. س، ان الفرنسيين اعتقلوا «مكارية» فسألهم الضابط من أين؟ فقالوا من الشوف قرب المختارة. فأطلق سراحهم «كرمال عيون الست نظيرة».
45. عفيفة صعب: م. س، ص 134-138.

من هنا، يأتي التأكيد على أنها، عملياً، لم تكن ضد الثورة[46]، أو ضد الانتفاضة التي قادها سلطان باشا الأطرش بوجه الفرنسيين. ولعلها كانت تتعاطف في دخيلة نفسها مع الثوار، ولم تكن في عاطفتها هذه أقل من غيرها من أبناء الشوف، خصوصاً أنها لم تعمد إلى إقناع خصومها الراديكاليين بالكف عن المشاركة في صفوفها[47]؛ الأمر الذي دفع البعض إلى القول إنّ نظيرة جنبلاط كانت متضامنة مع الثورة في أعماقها وتساعد بحسب قدراتها الممكنة في مثل موقعها السياسي، لكن من دون معرفة الفرنسيين.

ويقدم فوزي زين الدين نموذجاً لهذا التصوّر كان قد سمعه من والده مباشرة، مُلخّصه أن والده، الذي كان مهاجراً في أميركا، قام مع بعض المغتربين بجمع التبرعات لدعم الثورة وقائدها. وتكلف بإيصال ما تم جمعه إلى سلطان باشا شخصياً. وبعد أيام عدة من وصوله إلى بلدته في بطمة – الشوف، استدعته الست نظيرة على وجه السرعة. وعندما قابلته في قصر المختارة، أخبرته بأن الفرنسيين يريدونه بعد أن وصلت اليهم معلومات عن سبب عودته من المهجر. لذلك طلبت منه مغادرة الشوف فوراً وكلفت من رجالها مَن قام بمرافقته وإيصاله إلى مناطق آمنة خارج جبل لبنان، كما أعلمته أن قائد الثورة موجود في الأزرق في الأردن – وهكذا كان، فقد وصل، بعد جهد جهيد، إلى مركز قيادة سلطان باشا وسلّمه الأمانة مباشرة[48].

46. **تجمع المقابلات** على أن الست نظيرة جنبلاط لم تكن ضد الثورة، وموقفها كان ينسجم في حينه مع الظروف السياسية السائدة.
47. إيغور تيموفييف: م. س، ص 43.
48. فوزي زين الدين: م. س، ويشير إلى بعض التفاصيل حول هذه الحادثة فيقول: كان من بين الموجودين في خيمة سلطان باشا حين التقاه والده، عددٌ من الزعماء يتذكر منهم: رياض الصلح، شكري القوتلي، عبد الرحمن الشهبندر، المير عادل ارسلان... وقد سأل رياض الصلح عن سعيد زين الدين الذي كان متعاوناً مع الفرنسيين وعيّنوه مدعياً =



ويؤكد نجيب بك شمس، من جهته، أن زعيمة الشوف كانت تكنّ لسلطان باشا احتراماً كبيراً وتقديراً عظيماً مقارنة بغيره من زعماء الطائفة الدرزية الآخرين. فقد سألها مرة أيها أهم، سلطان باشا أم شكيب إرسلان؟ فأجابت مباشرة ودون تردد: يا بنيّ، مَن يُقدم دماءه ويضحي بحياته غير الذي يخاطر بقلمه[49].

إن مختلف التبريرات التي قُدمت، وغيرها الكثير، لتبيان طبيعة علاقة زعيمة المختارة السياسية بالفرنسيين وموقفها من الثورة السورية الكبرى يلقي ضوءاً هاماً على جانب من التجربة، لكنه يبقى ضوءاً محدوداً لتوضيح كامل الصورة وتحديد حقيقة المسائل. فقد اختارت نظيرة جنبلاط خياراً سياسياً متعاطفاً مع الفرنسيين وملتزماً سياستهم في لبنان والمنطقة. وغدت بذلك إحدى أهم الركائز الأساسية التي يعتمد عليها الانتداب في بلادنا عامة، ويطمئن إلى مواقفها وسياستها في جبل لبنان، خاصة، وضمن المتحد الدرزي بشكل أخص. وهذا ما ترك آثاره السلبية على التجربة وأبقى الصورة المشوّشة تجاه سياستها وعرّضها لسيل من الاتهامات والعديد من التهديدات.

في موضوع الاتهامات، يشير إيغور تيموفييف إلى أن الخيار السياسي الذي اعتمدته جعل «موقفها محرجاً». فقد غَدَتْ، من دون قصد، وسيطة بين الثوار والسلطات الفرنسية. ويعيد سبب هذه «الوسيطية» إلى سلسلة المحاولات التي بذلتها سيدة المختارة لإقناع أكثر الدروز بمخاطر امتداد الثورة إلى الجبل والآثار السلبية لتوسعها في الأراضي اللبنانية عامة و«لبنان الصغير» خاصة، لأن

= للاستئناف في بيروت. فرد الوالد أنه ليس قريبنا من الأساس. ويذكر أنه بعد مضي سنوات عديدة على هذه الحادثة حصل لبنان على الاستقلال فرافق والده لزيارة دولة الرئيس رياض الصلح فاستقبلهم في بيته وتذكر اللقاء الذي جمعه مع الوالد إبان الثورة السورية الكبرى.

49. نجيب بك شمس: م. س.

«المناورات الاضطرارية» التي أقدمت عليها ولّدت عند الآخرين الارتياب بها. بل وصل هذا الارتياب فيها وفي سياستها إلى حد العداء لها من بعض العائلات الدرزية، خصوصاً تلك التي تميل، برأيه، تاريخياً إلى معسكر خصوم آل جنبلاط السياسي. لذلك اتهمها البعض منهم «بخيانة مصالح الدروز»[50].

ويبدو أن ما أقدم عليه المندوب السامي هنري دي جوفنيل الذي وصل في مطلع كانون الأول من العام 1925 إلى لبنان، والجهود الكبيرة التي بذلها لإيجاد هالة حول «الصديقة المخلصة» لفرنسا في لبنان، وتردده الدائم على المختارة، والثقة الكبيرة التي أولاها إياها، ساهمت بالتأكيد في إثارة المزيد من الشكوك حولها، وولّد انطباعاً عاماً وكأن ثمة تنسيقاً تاماً بين زعيمة الدروز، من جهة، وسلطات الانتداب، من جهة أخرى، أو كأن دار المختارة هي «المطبخ» السياسي لسلطة الانتداب في لبنان والمنطقة.

يرفض عدنان الشهال، كما غيره من الذين قابلتهم، منطق الاشاعات بحق نظيرة جنبلاط، من جهة، ومنطق اتهامها بالعمالة لفرنسا، من جهة أخرى، وبشكل مطلق. ويعتبره إجحافاً بحقها وإساءة لا تستحقّها وتنكراً لخدماتها على أكثر من صعيد، ودعوة لا تنم إلاّ عن سطحية في التفكير السياسي والعمل السياسي. لذلك يشبه علاقتها السياسية بفرنسا بعلاقة الشيخ محمد الجسر مع الدولة المنتدبة على لبنان. فالشيخ محمد ابن العلامة المشهود له حسين الجسر، كان وطنياً بامتياز ونقياً بعمق وقاضياً نزيهاً ومتجرداً، لكنّ أخصامه السياسيين اتّهموه بالعمالة لفرنسا، لأن هؤلاء الأخصام لم يعرفوه على حقيقته ولم يقدروا قدراته السياسية أو ينتبهوا إلى ذكائه في إدارة اللعبة السياسية. ويذكر أنه عند دخول الفرنسيين إلى لبنان اقترح

50. إيغور تيموفييف: م. س، ص 44-45 ويشير مالك بك جنبلاط إلى أن الست رفضت دخول زيد الأطرش إلى الجبل كما رفضه شكيب ارسلان. فإذا كان هناك شكوك في موقفها فهل يمكن أن يكون الشك في شكيب ارسلان؟ والسبب للرفض برأيه يعود إلى الخوف من الحرب الطائفية.



الشيخ الجسر على عبد الحميد كرامي أن لا تكون طرابلس كلها موالاة أو كلها معارضة، وسأل كرامي أي اتجاه يرغب في أن يسلكه. فرد كرامي بعد ثلاثة أيام أنه في صف المعارضة. عندها مال الجسر إلى الموالاة، وأمّن من موقعه النيابي وعلاقاته مع الفرنسيين خدمات جلّى لطرابلس وأبنائها، الموالين منهم والمعارضين على حد سواء. ولو كان عميلاً لما مات فقيراً ولأصبح رئيساً لجمهورية لبنان[51].

أما في موضوع التهديدات، فإن موقف زعيمة المختارة وعلاقاتها السياسية مع سلطات الانتداب جعلتها عرضة لبعض التهديد بين فترة وأخرى من المناوئين لسياستها أو المتعاطفين مع الثورة أو الملتزمين صفوفها، الأمر الذي عزّز الحراسة على القصر وأبنائه. ويذهب الرياشي إلى القول إنّ التقدير الفرنسي العالي للست نظيرة جعلها «صديقة فرنسا الكبرى»، فانشأوا لها في قصر المختارة مخفراً يكون في خدمتها، وبعثوا لها ضابطاً كبيراً يحكم الشوف عسكرياً ويمشي بآرائها وبحسب مشورتها[52]. لهذا كان الحراس من الدرك موجودين في قصر المختارة لتأمين الحماية اللازمة لزعيمة القصر وعائلتها. وتَبرز في هذا المجال الحادثة التي جرت لكمال جنبلاط عندما كان طفلاً في الثامنة من العمر كنموذج معبر عن طبيعة هذه التهديدات.

يُروى أن كمال جنبلاط استيقظ فجر أحد الأيام في العام 1925 على ضجيج غير معتاد في القصر. فمضى على أطراف أصابعه ليفاجأ بوجود مجموعة من المسلحين في رواق غرفة نومه. فهدّأ العسكر روعه قائلين له: «نحن حراسُك لا تخف. فالوالدة تؤيد الفرنسيين وهي تخشى عليك». غير أن الطفل لم يغمض له جفن في تلك الليلة. وفي الصباح الباكر، بادر كمال الشيخ بشير أبو حمزة: «لماذا تساير والدتي فرنسا والفرنسيين؟»[53]. لكنه لم يجد جواباً، ولم يكن الشيخ أبو حمزة

51. عدنان الشهال: مقابلة شخصية، م. س.
52. اسكندر الرياشي: م. س، ص 102.
53. د. فارس شتي: م. س، ص 160.

بقادر على أن يوضح للطفل أنّ سيدة المختارة كانت قد تلقت قبل حين رسالة من مجهول يهددها بالبطش والتنكيل إذا هي استمرت في التعاون مع الفرنسيين. الأمر الذي أخاف سيدة القصر، فقامت بتشديد الحراسة على طفليها كمال وليندا، ليلاً ونهاراً، إضافة إلى ما كان قد أمّنه حاكم الشوف من نقطة للخفارة عند بوابة القصر الرئيسة[54]. قد تكون هذه الحادثة من الحوادث التي تركت آثارها في نفسية الطفل الصغير وأثرت لاحقاً في سياسته وتحديد خياراته.

إن المضاعفات السلبية التي رافقت تلك المرحلة، وتداعياتها على نظيرة جنبلاط، سواء لجهة الإشاعات، أو لجهة التهديدات، لم يمنعها من الاستمرار في العمل، من موقعها كزعيمة للغرضية الجنبلاطية، ومن السعي للتخفيف من الإجراءات التعسفية التي كانت تلجأ إليها السلطة الفرنسية ضد الثوار أو القرى والبلدات، حيث تقوم السلطة بفرض الغرامات المالية والعينية عند وقوع أي حادث عسكري ضد القوات الفرنسية في منطقتها أو في حدود هذه القرى والبلدات، كالحادث الذي جرى في بداية الانتفاضة عندما أُطلقت النار على ضابط شرطة في خلدة. ففرض الفرنسيون غرامة مالية عينية على منطقة الشويفات بلغت ألف ليرة ذهباً وخمسين بارودة حربية. قام وفد من شيوخ الشويفات وأعيانها بزيارة المختارة للطلب من سيدتها المساعدة، فتوسطت الست نظيرة لدى الحاكم العسكري، وزوّدت الوفد التماساً خطياً للحاكم في الشوف رجَتْه فيه تخفيف العقوبة. وافق الفرنسيون على وساطتها وخفضوا العقوبة إلى النصف[55].

---

54. إيغور تيموفييف: م. س، ص 40.
55. م. ن، ص 43. كما يذكر سلمان يوسف عزام في سيرته أن القوات الفرنسية شاءت إبان الثورة نسف بيته في المعاصر، لكن تدخّل الست نظيرة حال دون ذلك. يراجع الجبل، 5 تموز 1946.



## المناخ الدرزي

وعليه يمكن القول إن موقف زعيمة المختارة من الثورة السورية الكبرى لخّص، من حيث المبدأ، مسار التجربة التي خاضتها، وأظهر جوهر خياراتها السياسية. وبالتالي، جاء منسجماً مع الاتجاه العام الذي كان بدأه بعض زعماء الطائفة، على اختلاف مشاربهم، في التحول نحو المظلة الفرنسية بعد انهزام الأتراك وبداية الهيمنة الفرنسية على المنطقة ومبادرتهم إلى تقسيمها إلى دويلات طائفية.

لقد تعزز هذا الاتجاه السياسي، بداية، في المتحد الدرزي من خلال رغبة العديد من الأعيان والوجهاء في العائلات التقليدية والإقطاعية المحافظة على مصالحهم وحماية مواقفهم، من جهة، وعَزَف الفرنسيون، من جهة أخرى، على أوتار المصالح الشخصية، فوفّروا الاغراءات لجذب هؤلاء وتقريبهم من سلطات الانتداب، فأمنوا لهم الوظائف الإدارية والسياسية التي تحفظ نفوذهم وتحمي وجودهم السياسي وتُثَبت مكانتهم الاجتماعية الموروثة، الأمر الذي ساهم في احتوائهم بطريقة أو بأخرى.

ولم تكن الزعامة الجنبلاطية خارج هذا السياق. والتقطت السلطات الفرنسية هذه الفرصة فحرصت على استمالة زعماء آل جنبلاط قبل تصدُّر الست نظيرة الزعامة، بدءاً من تعيين فؤاد جنبلاط قائمقاماً للشوف، مروراً بما أوصى به المفوض السامي جورج بيكو بتسمية محمود جنبلاط عضواً في الوفد اللبناني الأول (1918) إلى مؤتمر الصلح في باريس وتعيينه نائباً للرئيس بدافع الإغراء، من جهة، وبحجة مراعاة المعادلة السياسية القائمة في جبل لبنان بين الدروز والموارنة، من جهة أخرى. واعتقد بيكو أن مثل هذا الإجراء، الوظيفي- السياسي، يمكنه أن يُقرّب الدروز، عموماً، والفريق الجنبلاطي، خصوصاً، من الانتداب الفرنسي. فمحمود جنبلاط هو سليل العائلة الدرزية التي يحمل اسمها

والتي تخلّت بشخصه وبشكل واضح عن تحفظها التقليدي بإزاء فرنسا[56].

ورغم أن هذه السياسة لم تنجح مع محمود جنبلاط الذي لم تغره عضوية المجلس أو نيابته للرئاسة[57]، غير أنها، كسياسة، وجدت في أروقة القصر مَن التقط رموز هذه الرسالة وعمل بمضمونها، إلى درجة تحوُّل قصر المختارة الذي كان في عهد الأتراك، وقبل الانتداب الفرنسي، «حصن النفوذ الإنكليزي» في لبنان و«بيت انكلترا في الشرق»، كما يقول الصحافي هارولد كابلين، إلى أن يصبح «بيت فرنسا». ونال الدروز بفضل هذه السياسة «حصة الأسد» من المغانم، من جهة، وأمنت فرنسا جانبهم، من جهة أخرى، وجعلتهم «حصنها الحصين» في انتدابها للبنان، من جهة ثالثة[58]. وهذا ما دفع اسكندر الرياشي الى الاستنتاج بأن سياسة الست نظيرة، يعاونها في ذلك بعض الأمراء الإرسلانيين والحكماء من الدروز، أثبتت «أن شأن الأقلية في لبنان يمكن أن يصبح لها عند الفرنسيين شأن الأكثرية وأكثر»[59].

رغم هذه المبالغة التي يقدمها الرياشي، سواء في مستوى العلاقة الدرزية – الفرنسية أو في نتائجها على صعيد المتحد الدرزي، غير أنها تنقل صورة دقيقة عن المناخ السياسي الذي كان مُهيمناً في تلك المرحلة على توجه زعماء غالبية البيوتات التقليدية للطائفة، عامة، وزعماء الغرضية الجنبلاطية–الإرسلانية، خاصة. من هنا

56. جورج كرم: **قضية لبنان**، بيروت، 1985، ص 32–33.
57. م. ن، ص 333.
58. اسكندر الرياشي: م. س، ص 101–102 ويشير الشيخ حسن الدبيسي: **مقابلة شخصية**، إلى أن الست نظيرة حضرت لقاءً تضامنياً مع فرنسا في العام 1942، في بيت الشيخ حسين طليع. وقد جاء وفد فرنسي ليشكرها لاحقاً على موقفها ومشاركتها فأنشد سليمان ابو زيد ما يلي:

    أما دار المختارة من فرنسا إنعدت حارة
    مع إسلام ونصارى بيعدوها لِرب التاني
    وفرنسا زهرة بحوضها بيسقيها البستاني
59. م. ن، ص 102.



لم يعد «مستغرباً»، من حيث المبدأ، اندراج تجربة سيدة المختارة بالخانة الفرنسية. غير أن هذا الاتجاه السياسي ورغم ما وفّره من مكاسب للعائلة الجنبلاطية، إلا أنه اصطدم بممانعة جدية من الزعيم الشاب كمال جنبلاط، ما ترك آثاره المباشرة على العلاقة بين الست نظيرة والوريث الشرعي للزعامة الجنبلاطية، من جهة، وساهم، من جهة أخرى، في تغيير مسار هذا الاتجاه ووجهته جذرياً[60]. فكيف يمكن متابعة المرحلة الأخيرة من تجربة سيدة القصر؟

60. في المرحلة الأولى لم يكن لكمال جنبلاط الشاب أي اتجاه سياسي متعارض مع سياسة سيدة القصر. لذلك فإنه عبّر في العام 1927، وله من العمر حوالى عشر سنوات، عن رغبته في الاستمرار في خدمة فرنسا وخدمة الوطن. فقد أوردت صحيفة المعرض بتاريخ 8–7–1927 إنه في حفل تقليد السيدة نظيرة جنبلاط وسام جوقة الشرف في قصر المختارة، خطب الفتى كمال بك، نجل المرحوم فؤاد بك جنبلاط، خطاباً جميلاً جاء فيه:

    «لقد قضى والدي ضحية في سبيل الواجب وتركني أمانة في يد الحكومة التي أخلص لها، وفي يد والدتي. فشملتني الدولة بعطفها وأرضعتني والدتي لبان الإخلاص لفرنسة ولوطني، وعلمتني بما قامت به من الخدمات تجاه الوطن والدولة المنتدبة وكيف يجب أن يكون الإخلاص الصحيح، فشببت على هذا المبدأ وسأبقى محافظاً عليه ما زلت حياً. إن إهداء وسام جوقة الشرف لوالدتي تقديراً لخدماتها ينعشني ويزيدني ارتباطاً بحبل الإخلاص لفرنسة العظيمة الوفية، وبصفتي وريث هذا البيت الذي تديره والدتي، أقدّم للدولة الفرنسية شكري الوافر على أفعالها وأسأل الله أن يمدنا بقوته للاستمرار على خدمتها وخدمة وطننا».

    غير أن هذا الموقف تحوّل لاحقاً بعد أن غدا الفتى أكثر دراية بالسياسة وأعمق معرفة بقضايا الوطن والمحيط العربي.

# الفصل السادس

# الاتّجاه المعاكس

شهدت مرحلة الأربعينات تحوّلات هامة في مرتكزات الزعامة الجنبلاطية ومسارها، بحيث يمكن اعتبار سنة 1943، التي أصبح فيها كمال جنبلاط نائباً في الندوة البرلمانية، بعد أن بويعَ مباشرة إثر وفاة صهره حكمت جنبلاط (5 حزيران 1943)، معلماً ملحوظاً في تاريخ العائلة الجنبلاطية بشكل عام، ومفصلاً أساسياً في زعامة الست نظيرة بشكل خاص.

لذلك لا يجوز اعتبار وصول كمال جنبلاط إلى الندوة البرلمانية، وتصدّره كرسي الزعامة، امراً عادياً أو حدثاً شكلياً، كما لم تأت مشاركته الوالدة في زعامة الغرضية الجنبلاطية إجراءً تقليدياً، أو عملاً روتينياً. لأن دخول البرلمان كان إعلاناً عن اتساع النفوذ و«شرعنة» الزعامة على المستوى الوطني العام، والمشاركة إلى جانب الوالدة كانت إيذاناً بأفول زعامتها وبداية التحول في طبيعة الزعامة الجنبلاطية بحد ذاتها.

وإذا قارنّا تجربة حكمت جنبلاط ومشاركته زعامة الست نظيرة وتجربة كمال جنبلاط ومشاركته، فسنجد فروقات تصل إلى العمق واختلافات تطال الجوهر. قد يعود هذا الوضع إلى اختلاف الشخصين بالدرجة الأولى وتباين تطلعاتهما والتمايز بين خلفيتيهما الفكرية والسياسية، ليس بالضرورة لأن كمال ابن البيت وحكمت صهره، لأن الأخير لم يكن يتصرف، أو يتم التصرف معه، على اساس

أنه «بعيد» عن البيت، بل على اعتباره زعيماً إلى جانب نظيرة جنبلاط أو متمماً لزعامتها. لهذا قلما عرفت مشاركته (حكمت) اختلافات مهمة أو توترات ما مع سيدة القصر، بل بقيت العلاقة بينهما قوية[1] جداً والتنسيق على أفضل ما يكون والتناغم على أرقى مستوى، بدءاً من المسائل الشكلية وصولاً إلى صميم القضايا السياسية وتعقيداتها، فيما لم تكن الأمور على هذه الوضعية عند تصدر كمال جنبلاط. لم تصل العلاقة بينه وبين والدته إلى ما بلغته مع حكمت بك، لا في الشكل ولا في المضمون، الأمر الذي جعل التمايز سمة العلاقة، لا بل كان الاختلاف حتى التناقض في أساسها.

من هنا، يمكن القول إنّ العلاقة بين كمال جنبلاط وزعيمة المختارة تُلخّص، إلى حد بعيد، مأزق التجربة التي خاضتها الزعيمة وأزمتها البنيوية، سواء في شقّها السياسي أو جانبها الاجتماعي. لذلك، فإن متابعة مسائل التمايز ومواضيع الخلاف بين السلف والخلف هو في جزء منه تقويم لتجربة الست نظيرة بحد ذاتها.

إن إطلالة أولية على العلاقة بين الاثنين تبين أنها ظاهرة فريدة، سواء في مسارها، أو في خياراتها، أو في النتائج التي وصلت اليها. فإذا كانت سيدة القصر مميزة في زمانها وبيئتها، فإن ما بدأه كمال جنبلاط قبيل استلامه زمام الزعامة، أو ما فرضه بعد تصدّره كرسي الغرضية الجنبلاطية كان هو ايضاً مميزاً جداً وخاصاً بامتياز، الأمر الذي جعل التجربتين تبدوان متعارضتين في العديد من المظاهر. فقد كان من المتوقع، أو من طبيعة العادات السائدة، أن يسير الخلف على خطى السلف، كما هو متعارف عليه في العائلات الإقطاعية التقليدية في لبنان. لكن إلى أي حد التزم وريث الزعامة الجنبلاطية ما تم اعداده له؟ وكيف تعامل الزعيم الجديد مع الموروث السياسي والاجتماعي الذي جاهدت الوالدة

1. حسن أمين البعيني: م.س، هامش ص 413.



للمحافظة عليه؟ وكيف واجه «الأمير الحديث»، بحسب تعبير د. خليل أحمد خليل، العلاقات السياسية التي نسجتها الست نظيرة وسَعَتْ لإدماجه فيها؟ والى أي حد التزم الزعيم الجديد التحالفات السياسية التقليدية التي حددتها الوالدة؟ هل اتبع نهجها السياسي؟ هل التزم خياراتها السياسية؟... إن محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، وغيرها الكثير، تكشف جانباً أساسياً وهاماً من تجربة نظيرة جنبلاط.

## اختلاف في الشخصية

كانت نظيرة جنبلاط تكنّ لولديها كمال وليندا كل المحبة، وتحيطهما بكل الحنان، وتغمرهما بكل العاطفة. غدت، بالنسبة اليهما، بعد مقتل والدهما، الأب والأم في الوقت عينه، فسهرت على تربيتهما وتعليمهما والاهتمام بهما.

وهي اهتمت بولدها كمال اهتماماً خاصاً، وجيّرت إمكاناتها وطاقاتها لتوفير الظروف المناسبة التي تضمن له الراحة والأمان والحياة الرغيدة... وإذا كانت هذه الوضعية أمراً طبيعياً، كونها مرتبطة بعاطفة الأمومة ودورها، فإن جوهر المسألة هنا كان ابعد من ذلك، ويضاف إليه كون الابن الوحيد هو الوريث الوحيد المؤهّل لاستلام زمام الأمور بعدها، وتأمين ديمومة الزعامة الجنبلاطية واستمراريتها. بل يمكن القول إنّ حرصها على مستقبل ولدها وتأهيله لمركز الزعامة كانا من جملة العوامل الأساسية التي فرضت عليها منافسة الآخرين في العائلة والتقدم لتصدّر كرسي الزعامة الجنبلاطية. لذلك، فإنها عبّدت له الطريق بعد ان أزالت من أمامه كل العقبات التي يمكن أن تعترض زعامته، من جهة، وعملت، من جهة أخرى، كل ما في وسعها، وما اعتقدته صحيحاً وسليماً، لتوفّر له انتقالاً سهلاً وسلساً للسلطة.

لم تكن الست نظيرة ترى في ابنها «الطفل الصغير» بل «الرجل الكبير» الحاضن لتاريخ العائلة والقادر على تأمين تواصل الزعامة والحافظ لأمجادها الغابرة.

وهذا النمط التربوي التقليدي سائد في مجتمعنا وفي مختلف الفئات والمستويات الاجتماعية، بحيث يكون للطفل الذكر موقف مميّز في البيت، قياساً للأنثى وعلى حسابها في الأغلب، فيتم التركيز في تربيته على إعلاء شأنه باعتباره وريث العائلة وحافظ اسمها والمؤتمن على تواصل اجيالها وبقائها حاضراً ومستقبلاً. لذلك، تُحرَق، في هذا النمط التربوي، مراحل الطفولة وتُهمَل لخصائصها العمرية أو لا تُراعى. فالنظرة إلى الطفل على اعتباره «رجلاً صغيراً» وليس «صغير الرجل» يستتبعها اسقاطات ذكورية في التعامل معه وفي السلوك المتوقع منه، الأمر الذي يجعل العملية التربوية في العديد من الحالات تأتي على حساب الطفل لأنها تحمّله فوق طاقاته وإمكاناته[2].

يبدو أن سيدة القصر لم تخرج عن هذا النمط التربوي. وحرصت منذ نعومة أظفار ابنها على أن تعامله معاملة الرجال وتخاطبه بالألقاب التقليدية التي تبيّن علو مكانته وتحفظ موقعه بين أقرانه ومحيطه[3]. فقد فرضت على كل مَن حولها

2. يراجع، على سبيل المثال لا الحصر:
– د. علي اسعد وطفة: **بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي**، بيروت، 1999، مركز دراسات الوحدة العربية.
– هشام شرابي: **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**، الطبعة الرابعة، بيروت، 1991، دار الطليعة.
– محمد عماد الدين اسماعيل وآخرون: **كيف نربي اطفالنا، التنشئة الاجتماعية للطفل في الأسرة العربية**، القاهرة، 1974، دار النهضة العربية.
– الجمعية الكونية لتقدم الطفولة العربية: **الطفل والمجتمع**، دراسات في التنشئة الاجتماعية للأطفال، تحرير محمد جواد رضا، الكويت، 1993.

3. تشدد الست نظيرة على مناداة ابنها بلقبه التقليدي: البك، والزعيم، ابن العماد، وتعتبره ابن عامود السما... (نسبة إلى الشيخ بشير جنبلاط).
وترفض ذكر اسمه بدون اللقب. غير أن مود فرج الله: م.س، تشير إلى أن الست نظيرة عرّفته إلى الوفد الانكليزي بالقول: هذا ابني، دون إضافة أية كلمة أخرى. وتبين أن كمال جنبلاط خلال مأدبة الغداء كان وكأنه «تلميذ مدرسة» في الجلسة ولم ينطق بكلمة واحدة.



التعامل معه بالطريقة التي تعامله هي فيها. فبعد تشييع فؤاد جنبلاط (1921) أصدرت سلطة الانتداب قراراً بمنحه وسام فرنسا، وقد أحضر حاكم الشوف الوسام شخصياً إلى قصر المختارة وعلّقه على قميص الطفل-البك الصغير، وكان له من العمر حوالى الأربع سنوات، وسط تصفيق الحضور ومباركتهم مردّدين مع الشاعر أحمد تقي الدين: «هذا الشبل من ذاك الأسد»[4].

كما حرصت على أن توفر له في تلك المرحلة العمرية «خادماً» يقوم بمتابعته (وأخته ليندا) حيثما يذهبان. ووفرت له تعليماً أولياً على يد المعلم خليل سمعان لإتقان المبادئ العامة للحساب والقراءة. ثم بدأت مرحلة التدريس شبه النظامي عندما استحضرت المربية السورية ماري سلوم التي كانت لها خبرة في مجال التعليم في مدرسة اللعازريين في حلب، لتدرّسه وأخته مبادئ الفرنسية والحساب بشكل يومي وعلى مدى سنين عدة.

بعدها، عمدت إلى توفير المكان الأنسب ليتلقى فيه التعليم النظامي في المرحلة ما قبل الجامعية، فأقنعها المطران اوغسطينوس البستاني بإدخاله إلى مدرسة الآباء اللعازريين في عينطورة بعدما كانت ترغب هي في إدخاله إلى إحدى المدارس اليسوعية في بيروت. فراسلت مدير المدرسة الأب أرنست سارلوت، صديق العائلة الجنبلاطية، في بداية العام الدراسي لاستقبال وحيدها بين تلاميذ المدرسة. وحرصت على أن يرافقه إلى المدرسة مرافقه الدائم عيسى الخوري الذي كان ملازماً لكمال جنبلاط وهو لم يزل طفلاً صغيراً.

يبدو أن شخصية كمال جنبلاط الجادة، الهادئة، الحالمة والمستقلة، طبعت

4. ايغور تيموفييف: م، س. ص 37. ويذكر د. خليل احمد خليل في كتابه: **كمال جنبلاط...** م، س. ص 52 ابيات الشاعر احمد تقي الدين على النحو التالي:

وبيتٍ رفيـع قـد وقفنا بظلّهِ ... ومن حوله جَمْعُ يقـومُ ويَـقْـعُدُ
بـه شَبـل وفّيـه لبـوءة لهـا ... كلُّ أهل الفَضْل بالفضل يشهدُ
ولاحَ وسامُ الطفلِ بالصدر فرقدا ... كما أن هذا البيتَ بالشوفَ فَرقدُ
فـما أبـلغَ المـلاَّطَ في صَدرِ بيتهِ ... على مفرقِ الشوفينِ بيت مُوطدُ

علاقته بأمه وطريقة تعبيره عن حبه لها. فمنذ أيام الطفولة، كان غير مفرط في إظهار هواجسه والتعبير عن أحاسيسه، إلى درجة يبدو في عواطفه بارداً، عازفاً عن الآخرين. فميله لـ«الصمت والانطوائية والمغالاة في ضبط النفس» جعل أشكال تعبيره عن حبه خاصة، وخاليةً من مظاهر المغالاة والتطرف، وكان ميالاً للسكينة والهدوء كما في حياته وسلوكه.

غير أن نظيرة جنبلاط لم تكن على هذه الصورة تجاهه. فقد حرصت، مثلاً، على أن تكون رسائلها اليه في عينطورة، منتظمة، ترسلها مع مراسل خاص من المختارة مرفقة بكل ما لذّ وطاب من مؤونة البيت. وتُضمن رسائلها، كأي ام، عاطفة جياشة، وتنقل عبر أسطرها مدى اشتياقها إليه، إلى جانب الإرشادات والتعليمات والنصائح التي تدلّ على شدة قلقها عليه وخوفها على صحته وحرصها على سلامته. في المقابل، كانت رسائله عادية جداً، وغير انفعالية، بل إنه طلب منها أن تخاطبه باسمه مباشرة ودون الألقاب أو إضافات أخرى. كما كانت الوالدة تتعمد أيضاً زيارته في المدرسة برفقة أحد المشايخ أو تقوم بإرسال السائق أيام السبت لإحضاره إلى المختارة لتمضية نهاية الأسبوع إلى جانبها.

إن مظاهر التمايز المبكرة بين الشخصيتين دفعتها إلى أن تشعر بالغيرة من أختها شفيقة، التي كان كمال جنبلاط الصغير، يبدي تعلقاً غريباً بها، ويميل إليها أكثر من ميله إلى أمه[5]. كما بدأت أهم أشكال التمايز بينهما تتضح أكثر مع تقدم الابن في العمر، الأمر الذي زاد قلقها على مستقبله السياسي.

وتجدر الاشارة إلى أن ابرز مظاهر الاختلاف بدأت تتبلور بينهما، قُبيل انتهائه من مرحلة التعليم ما قبل الجامعي، والبحث في تحديد نوعية الاختصاص الذي يُفترض ان يتابعه، وبالتالي تعيين مساره المستقبلي. وقد عكس الابن في رغبته

5. إيغور تيموفييف: م. س، ص 37، 39، 45، 53، 54 وتشير بعض المقالات (مجموعة نساء، الشيخ نواف ابو علي، الشيخة نايفة شمس العيد...) إلى أن اختها كانت الأكثر اهتماماً بقضايا القصر وشؤونه اليومية والحياتية.



العلمية الكثير من شخصيته وذاتيته وتطلعاته الفكرية والإنسانية والاجتماعية. وكان ميله العلمي يحمل في مضمونه اتجاهه لنوعية الحياة التي يرغب فيها، من جهة، وإعلاناً، من جهة أخرى، لما عُرف عنه من «عزوف» عن السياسة وابتعاد عنها. ورغم أن هذه الظاهرة – التعارض بين رغبة الأهل وميول الابن أو الأبناء – كانت ولم تزل إحدى الاشارات المهمة المعبّرة عن طبيعة النمط التربوي السائد في مجتمعنا والعلاقة التي تحكم الأهل بأبنائهم، غير أنها في الوقت عينه وفوق هذا كله، تعبير عن طبيعة النظام التعليمي ومضامينه السياسية والاجتماعية، بحيث تُعيد التربية والتعليم إعادة إنتاج السائد[6] ويحافظان على التعاون الاجتماعي ويكرّسان الانقسامات المجتمعية، الأمر الذي يجعل نوع الاختصاص انعكاساً للموقع الاجتماعي. لذلك لم يكن من السهولة بمكان على الست نظيرة أن ترضى لابنها تحصيلاً علمياً يصب خارج الهدف الذي عملت له، فتدخلت بشكل مباشر وغير مباشر لتعيين المسار العلمي لابنها وتحديد نوعية الاختصاص الذي عليه متابعته.

لقد كانت زعيمة المختارة قلقة جداً من تجاهل كمال الشاب العمل السياسي، وابتعاده عن الاهتمامات السياسية وعدم رغبته مستقبلاً في لعب اي دور سياسي. ولعل هذا المنحى كان بالنسبة اليها انتكاساً لكل ما عملته، وتخلياً عن كل الأحلام والآمال التي رسمتها وعملت من أجل تحقيقها، وبالتالي تراجعاً عن الهدف الذي وضعته نصب عينيها عندما بدأت مسيرتها السياسية، وسَعَت

6. لمزيد من المعطيات، يراجع، على سبيل المثال:
- **الفكر العربي** (مجلة): السياسة التعليمية وتكافؤ الفرص التعليمية، العدد الرابع والعشرون، السنة الثالثة، 1981.
- بيار بورديو وجان كلود باسيرون: **معاودة الانتاج**، ترجمة نخله وهبة، البحرين، 1993، وزارة التربية والتعليم في البحرين.
- د. حمدي علي أحمد: **مقدمة في علم اجتماع التربية**، الاسكندرية، 1995، دار المعرفة الجامعية، الفصل الرابع.

إليه وصمّمت على أن يكون ابنها الوريث لزعامة العائلة وزعامة الغرضية الجنبلاطية، يستعيد من موقعه «الزعامي» دور الأجداد ويحافظ على الإرث العريق للعائلة.

أما رغبة الابن وميوله للطب والبحث العلمي، فكانت، برأيها، تنكراً لكل الآلام التي تحملتها والمصاعب التي واجهتها، وتناقضاً مع ما هدفت إليه. ففي ردها على رسائل القاضي الشهال الذي كان يطمئن عن توجّهات كمال جنبلاط العلمية، بيّنت أنها ترغب في أن يدرس الحقوق. وتشير إلى أنها، لتحقيق هذه الرغبة، تحدثت مع رئيس مدرسة عينطورة لإقناعه، وكلفت بعض الأصدقاء للقيام بالمسعى ذاته[7]. ولم تكتفِ بهذا القدر من «الضغط»، بل عمدت إلى الاستعانة، مرة اخرى، بصديق العائلة المطران البستاني لإقناع كمال بأهمية المحاماة، كونها النافذة التي تفتح أمامه ابواب السياسة وتساعده على الارتقاء في دروبها، والمحافظة على المكانة التي تليق به منذ ولادته، وتعزّز، بالتالي، موقعه الاجتماعي وتحميه.

استجاب الابن أخيراً لمجمل الضغوطات التي هدفت إلى تحويل ميوله العلمية، وسافر إلى فرنسا للالتحاق بكلية الحقوق في جامعة السوربون. ويمكن القول من موقع التفسير إن هذا «الالتزام» الذي أبداه الابن بما اختارته الوالدة وقررته، قد يكون تعبيراً عن أمرين: الأول هو إعجابه بشخصية والدته، إذ تؤكد مي جنبلاط أن زوجها كان شديد الاعجاب بشخصية والدته السياسية والاجتماعية[8]، او تعبيراً عن مدى «تعلقه» بها، ورغبته في التأكيد على احترامها وطاعة إرادتها، كما يشير إيغور تيموفييف[9]. والثاني هو التقاطه في لحظة معينة

7. عدنان الشهال: م. س، ص 115 و119 وللمزيد يراجع د. خليل أحمد خليل في **كمال جنبلاط**... م. س، ص 61-62 ود. فارس اشتي: م. س، ص 160- 161.
8. **نساء**: م. س
9. إيغور تيموفييف: م. س، ص 63.



لأبعاد التحول في التحصيل العلمي واقتناعه بأهمية تصدر الزعامة الجنبلاطية وضرورتها، خصوصاً أن تخلفه عن هذا الدور يبدو تنكّراً لتاريخه»، اذا لم نقل الغاءً لحضور الزعامة الجنبلاطية ودورها ومستقبلها، وهو كشخص ليس في هذا الوارد. فقد كان، ومنذ حداثة سنّه يُظهر في كل مناسبة خوفه على غد المختارة وزعامتها الكبيرة[10]، وهذا شعور طبيعي، سواء في موقعه أو في كونه الشخص الوحيد المؤهّل لتحمل هذه المسؤولية.

ولا بد من الإشارة إلى أن استجابة كمال جنبلاط لإرادة الوالدة والتزام ما رسمته في توجيه تخصصه العلمي بقيا التزاماً محصوراً في الشكل ولم يصلا إلى العمق أو إلى مضمون المسائل الأخرى التي تمتن العلاقة بينهما وتجعل الانصياع لإرادتها هي السمة التي تَسِمُ لاحقاً تجربته السياسية. «فالطاعة» هنا كانت حول مسألة جدّ محددة ولم تكن طاعة «عمياء»، بل إنها اقتصرت على تحديد الخط العام من دون المقدرة على التحكم بمجريات هذا الخط وإفرازاته اللاحقة، وبما ولّده في الشاب من تبدّلات وتحوّلات ذهنية وسلوكية. لهذا، فإن الاستجابة لم تصبح نهجاً يعتمده الابن في مسار حياته السياسية والاجتماعية، سواء مع الوالدة-الزعيمة أو مع غيرها خارج حدود العائلة ومساحتها السياسية.

كما من المفيد في سياق تبيان مظاهر التعارض بين الزعيمة ووريثها الإشارة إلى مقولة عزوفه عن السياسة قبيل انتخابه لأول مرة نائباً عن الشوف في العام 1943. فهناك شبه اجماع ممن عرفه في مدرسة عينطورة أو مَن رافقه في كلية الحقوق في فرنسا، على أن السياسة لم تكن تستهويه أو تشده إلى نطاقها الضيق ومجالها الخاص، وقد غدا هذا الرأي مُتفقاً عليه كمسلّمة بديهية لا تحتاج إلى نقاش أو برهان في مختلف المصادر والمراجع، إلى درجة أنه لم يكن يرغب في قبول

10. اسكندر الرياشي: م. س، ص 97.

مبايعته زعيماً بعد موت حكمت بك جنبلاط[11].

يبدو أن مرحلة ما قبل الجامعة ثم المرحلة الجامعية تدلاّن، ولو في الشكل، على أن اهتماماته ونشاطاته كانت غير سياسية. غير أن قراءة المضمون الاجتماعي لهذه النشاطات والاهتمامات لا يضعها خارج السياسة ونطاقها، سواء بالمفهوم العام للسياسة الذي يتفلت من ربط مفهوم السياسة وحصرها بالمركز الرسمي، أو بالنطاق الخاص للسياسة الذي حاول كمال جنبلاط أن يجسده لاحقاً، ويوضحه بعد تصدّره الزعامة، بشكل عام، أو في أواخر الأربعينات عند تأسيسه الحزب التقدمي الاشتراكي، بشكل أخص. فالمضمون الاجتماعي لاهتماماته ونشاطاته كانت من المصادر الأساسية المحركة - كما سيتبين لاحقاً - لخلافاته مع سيدة القصر، سواء في مرحلة الشباب أو في مرحلة تصدّر الزعامة. فتركيزه على مشاكل محيطه الاجتماعي في الشوف والسعي للتخفيف من الأزمات المعيشية التي بدأت تتفاقم قُبيل الحرب الكونية الثانية، وبحثه عن «حلول» لازدياد حدة البطالة، وعمله لمساعدة المحتاجين ومبادرته لفتح «ورشات العمل» أو ما سُمّي «معامل» - كانت أقرب إلى «الجمعيات» التعاونية الأوروبية، وحمايته لحقوق العمال، سواء على مستوى الأجر النقدي الذي حدّده في «معامله» بما بين 12 و25 غرشاً، أو على مستوى الأجر العيني بحيث يقدم مكافأة عينية بمقدار كيلوغرام من القمح وكيلوغرام من الشعير، أو على مستوى تحديده لساعات العمل بثماني ساعات، أو اعتماده «أوراقاً نقدية» خاصة به من فئة 5 و10 غروش و25 غرشاً، أو تأسيسه ما سُمّي مجازاً جمعية استهلاكية في الشوف لشراء القمح من سوريا وفلسطين في العام 1942 وبيعه بنصف الثمن للمحتاجين، او إنتاجه معملاً للقطرون لتأمين مستلزمات صناعة الصابون، أو تخصيصه ريع المطحنة السنوي ليوزَّع بالتساوي على فقراء المختارة، أو في اهتمامه بمساعدة الفقراء

11. إيغور تيموفييف: م. س، ص 63.



وأبناء الفلاحين والفئات الشعبية... الخ، وغيرها من المبادرات غير المعهودة، أو المقبولة في مقاييس تلك المرحلة، والتي جعلته في صميم العمل السياسي بشقيه الاجتماعي والشعبي، وليس في الشق السياسي المتعلق بالمناصب والمراكز السياسية، الأمر الذي يبرر التساؤل حول حقيقة هذه البديهية (اهتماماته غير السياسية) واخضاعها إلى نقاش دقيق.

من هنا يمكن القول إن تسليمه لتبديل توجهه العلمي وتغيير نوع اختصاصه لم يجعلاه مطواعاً، كما إن المضمون الاجتماعي لنشاطاته، مع غيرها من المسائل، تُبين مدى الاختلاف عن الوالدة في الشخصية والطباع والذهنية، كما وفي التوجّه والسلوك ونمط التفكير، الأمر الذي ساهم في توسيع شقّة التمايز وعمّق قضايا الخلاف مع سيدة القصر. فما هي أبرز المظاهر الدالة على الاختلاف بينهما؟ وما هي أهم عناوينه ومواضيعه؟

## مواضيع الخلاف

إن الانطباع الذي تكوّن عن كمال جنبلاط وعلاقته بالسياسة سرعان ما تغير. فتبدلت الصورة التي انطبعت عنه رأساً على عقب. وظهر، منذ اللحظات الأولى لانخراطه في العمل السياسي، بأنه ذو باع طويلة ودراية عميقة ومعرفة دقيقة بأوضاع مجتمعه الوطني العام أو بتفاصيل بيئته الضيقة ومحيطه المباشر. ما يجعل مقولة ابتعاده عن السياسة وعزوفه عنها مسألة ملتبسة. من هنا، فإن خوف الوالدة وقلقها من عدم رغبته في السياسة سرعان ما انقلبا خشية من آرائه الفكرية، وتوتراً من توجهاته السياسية، وخوفاً من تصوراته لطبيعة علاقاته الاجتماعية، واندهاشاً من إجراءاته العملانية، الأمر الذي أحدث الكثير من الارتباكات والتوترات بين سيدة القصر وزعيمه الجديد. ويمكن، لتوضيح الصورة، توصيف مجالات التمايز في التجربة ضمن عناوين أربعة، الأول: مفهوم السياسة، والثاني: الاتجاه السياسي، والثالث: أطر العمل ووسائطه، والرابع: الميدان الاجتماعي

والعلاقات الاجتماعية أو التجسيد الاجتماعي للعمل السياسي.

غير أن متابعة هذه العناوين تفترض الأخذ بعين الاعتبار الملاحظات التالية:

– أولاً: إن هذه العناوين غير منفصلة بعضها عن بعض. بل هي، في حقيقتها، متداخلة في ما بينها، وكل منها مولد للآخر أو يرفده ويؤازره كونها – كعناوين – أقرب لأن تكوّن علاقة ثنائية بين الفكر والممارسة أو بين الدعوة والسلوك المعبّر عنها. وقد أتقن كمال جنبلاط، وإلى حد بعيد، فن تحقيق هذا النوع من التوازن بين هذه الثنائيات قياساً لوالدته. فالمفهوم السياسي يولّد توجهاً معيّناً، والتوجه السياسي يُنتج أطره ووسائطه، والعلاقات الاجتماعية تبدو الحاضن الأوسع لما قبلها ومتداخلة معها، لأنها المظهر الواقعي للفكرة والتجسيد العملاني للتوجه السياسي، والمضمون الحقيقي للأطر والوسائط. لهذا، من المفيد النظر إلى هذه العناوين المحددة كرزمة متساندة من خلال المنطق الجدلي الديالكتيكي، إذا جاز التعبير.

– ثانياً: إن هذه العناوين لا تُلغي مسائل وعناوين أخرى هي على القدر ذاته من الأهمية. فمواضيع التمايز بين نظيرة وولدها ليست معزولةً عن بيئة كل منهما، وعن الظروف الاجتماعية والثقافية والتعليمية والحياتية التي عاشاها. فلكل جيل قضاياه واهتماماته وآراؤه ونظرته إلى الحياة، فأولادكم ليسوا لكم، كما يقول جبران خليل جبران، ما يجعل التطابق بمعنى التماثل مستحيلاً والتمايز أمراً طبيعياً. لذلك، فإن متابعة الموضوع–العناوين يعي هذه الناحية ويستحضرها من دون إبرازها كعنوان مستقل.

– ثالثاً: إن التركيز على هذه العناوين، دون غيرها، ينطلق من قراءة التجربة مباشرة، ومن لحظ إفرازاتها العملانية. فمرحلة الأربعينات أعطت الزعامة الجنبلاطية طابعها الخاص وجعلت التمايز حقيقة وليس تنظيراً. فالوريث تسلّم الزعامة في حضور المورّث، وهذه ظاهرة مميزة بحد ذاتها. لذلك، فإن زعامة كمال جنبلاط في الأربعينات لم تلغِ زعامة الوالدة، الأمر الذي ولّد إشكالات لم



تكن معهودة. من هنا، فإن تسليط الضوء على العناوين المحددة يساهم في مقاربة تجربة الست نظيرة ولحظ أهم محاورها بدقة أكثر. انطلاقاً من هذه الملاحظات الثلاث، يمكن توضيح أهم عناوين التمايز على النحو الآتي:

### 1. مفهوم السياسة

يتمثل العنوان الأول في تصور كل منهما لمفهوم السياسة ومضمونها. فقد كانت هذه المسألة مفصلاً مركزياً في تحديد مسائل أخرى حكمت علاقة الزعيمة بالزعيم الجديد. لذلك بدت شدة التعارض واضحة عندهما في هذه النقطة. فتوجهات كمال جنبلاط وخياراته الفكرية والسياسية والاجتماعية وضعته عملياً على «الطريق المعاكس» لما هو سائد في تلك المرحلة، سواء في الوسط السياسي اللبناني التقليدي، عموماً، أو في وسط الغرضية الجنبلاطية، خصوصاً، الأمر الذي وسّع شقة الخلاف وعمّقه.

إن السياسة التي ورثها كمال جنبلاط قائمة في الأساس على منطق الغرضية الجنبلاطية بعمقها التقليدي وأفقها المحدود والمحدد سلفاً. وهي عبارة عن سياسة إقطاعية عائلية، عشائرية، مذهبية، وإن ضمّت بين أتباعها ومحازبيها بعضاً من مسيحيّي الجبل اللبناني. غير أنه لم يبقَ أسير هذه السياسة بالكامل ولم يخضع لمنطقها بالمطلق أو ينحصر في أفقها المسدود وحدودها الضيقة. لذلك أخذ مفهومه للسياسة منحىً مغايراً لما ورثه، فأعطاها عمقاً إنسانياً، اجتماعياً وثقافياً، ووعى أهمية الترابط بين هذه المسائل. فالسياسة التقليدية هي «سياسة عملية محضة بعيدة عن المعرفة المعاصرة»، وعن الثقافة العامة أو الثقافة الشخصية ولكن هل يمكن السياسة الاستغناء عن الثقافة؟!... إن إجابته كانت المنطلق للافتراق عن مفهوم الوالدة للسياسة. من هنا، بدأ بالتحوّل من زعيم تقليدي إلى زعيم بآفاق وطنية أوسع وأعمق تمثّل «الانقلاب الجذري»، برأي خليل أحمد خليل، في تحوّل كمال جنبلاط من زعيم درزي إلى زعيم وطني علمي، علماني وديموقراطي. وأدى هذا التحوّل وهذا المفهوم إلى قطع علاقته مع أسلوب

«إقطاعية القيادة»[12].

لقد تبلورت السياسة عنده كمسلك له مضمون ثقافي وكمعرفة غير مقيدة، ما جعل السياسة، بالتالي، بعيدة عن الانتهازية، ومتناقضة مع الجهل. وهو أكد لاحقاً أن السياسة ليست شطارة ولياقة وشعوذة وانتهازية ولعباً على الحبال، بل هي مسلك شريف، لأن لها علاقة بقيادة الرجال وتوجيههم[13]. لذلك تبلور مفهومه كخيارات سياسية من خلال أفكار ثلاث: الديموقراطية، العروبة، والقضية القومية العربية، وسعيه لترجمة هذه الخيارات إلى «عمل مباشر»[14]. مثل هذا المفهوم كان جديداً، إذا لم نقل مرفوضاً في منطق الزعامة التقليدية وسياستها.

في المقابل، عبّرت الست نظيرة عن مفهومها للسياسة من خلال طريقتها في إدارة الزعامة، من جهة، ومن خلال ما كانت تريده منه كشخص، من جهة أخرى، وما ترغب في أن يجسّده في حياته ونمط عمله. فقد كان كمال يسمى «فم

12. د. خليل احمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص 67، 95، 112.
13. كمال جنبلاط: **أدب الحياة**، منشورات الحزب التقدمي الاشتراكي، فصل ادب السياسة.
14. لمزيد من المعطيات حول فكر كمال جنبلاط، يراجع على سبيل المثال لا الحصر:
- د. خليل احمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س.
- د. فارس اشتي: **الحزب التقدمي الاشتراكي**، ج1، وج2 وج3، م. س.
- كمال جنبلاط: **أدب الحياة**، م. س.
- **كمال جنبلاط في الممارسة السياسية. مقدمة ربع قرن من النضال**، الدار التقدمية، 1987.
- كمال جنبلاط: **حقيقة الثورة اللبنانية**، 1987، الدار التقدمية.
- كمال جنبلاط: **أحاديث عن الحرية**، 1987، الدار التقدمية.
- كمال جنبلاط: **نحو اشتراكية اكثر انسانية**، 1987، الدار التقدمية.
- كمال جنبلاط: **الديموقراطية الجديدة**، 1987، الدار التقدمية.
- كمال جنبلاط: **ثورة في عالم الانسان**، 1987، الدار التقدمية.
- كمال جنبلاط: **هذه وصيتي**، م. س.



الذهب»[15] وهي تريده «ابن عامود السما» ويدعوه أتباعه بـ«الراعي الصالح»[16]، وهي تريده حبيس السلوك الإقطاعي، ويتّسع حضوره على مساحة الوطن من خلال معاركه السياسية، وخصوصاً معركة المعارضة التي تبدو، برأي غسان تويني، وكأنها «أكبر من لبنان بكثير»[17]، وهي تريده محصوراً في قصره وحدوده الضيقة. وهذا ما يُستدل، مثلاً، من كلام «الأمير الحديث» مع المطران البستاني حيث يقول: «أنا لست حجراً مزخرفاً يوضع في قصر المختارة. بل حجر أساسي لبناء مجتمع فاضل في سبيل الأجيال القادمة، لا أريد شيئاً من مغانمها ولا أريد أن أتحمل مغبة سياستها»[18].

من هنا، فإن النزاع مع سيدة المختارة لم يكن حول السياسة بذاتها، كنشاط عام وحسب، فهي كانت سياسية بامتياز، بل حول مفهوم السياسة وغايتها. وهذه النقطة تعيدنا إلى تفسير اهتماماته الأولى بقضايا الفئات الشعبية و«تفكيره المثالي» لتحسين أوضاعهم وتطويرها، الأمر الذي يجعل نشاطاته «العفوية» تعبر عن مفهومه العام والمبكر جداً للسياسة.

## 2. الاتّجاه السياسي

يتمثل العنوان الثاني في اختلاف رؤية كل منهما للاتجاه السياسي لقصر المختارة والغرضية الجنبلاطية. وقد بدأت ملامح هذا التمايز منذ وقت مبكر، وإن تأخر الإعلان عنه وبلورته سلوكياً وذهنياً. فوريث الزعامة اختزن في ذهنه تجربة سيدة المختارة كونه مُرافقاً لها منذ بداياتها، وعلى إطلاع على كل ما يجري حوله، سواء في مرحلة الطفولة أو الشباب. وكان لثقافته وسعة إطلاعه الأثر

15. د. خليل أحمد خليل: م. س، ص 108.
16. م. ن، ص 117، وتشير بعض الحوارات مع حزبيين إلى أن كمال جنبلاط طلب منهم أن ينادوه بالمعلم وإلغاء الألقاب التقليدية الأخرى التي تحمل مضموناً اجتماعياً موروثاً.
17. **النهار**، تاريخ 5 أيلول 1950.
18. د. خليل أحمد خليل: م. س، ص 60.

الأبرز في تعميق هذه المعرفة وتأصيلها، الأمر الذي جعله ملتقطاً للكثير من التفاصيل والوقائع التي ستكون عوناً له في مسيرته الجديدة.

لقد أدرك كمال جنبلاط مُبكراً أن عقارب الساعة السياسية في المختارة بدأت تتأخر عن تطور الأحداث[19] وتتخلف عن متابعة المستجدات والتحولات التي تعصف بلبنان والمنطقة. فسيدة القصر اختارت الانحياز لفرنسا وسياستها، الأمر الذي جعل الفرنسيين يعتقدون أن الزعيم الجديد لن يكون خارج هذا الفضاء، أو متناقضاً مع مستلزماته ومتطلباته العملانية. وهذا ما أشار إليه الجنرال كاترو في برقية التعزية بوفاة حكمت جنبلاط، إذ اعتبر أن الفقيد من «أرومة اشتهرت بأصالتها وبسالتها وتمسكها بالصداقة الفرنسية-اللبنانية»[20]، ولمّح كاترو في تعزيته إلى أن خليفته سيتقيّد بهذا النهج ويُوثق عرى الصداقة القائمة ويعمّقها، ما يعني أن الفرنسيين اعتبروا أن «الأمير الجديد» لن يحيد عن مسار الراحل. وبالتالي فإن علاقاته السياسية وتحالفاته واتجاهاته لن تتعارض مع ما كرسته زعيمة المختارة. وكأن هذا المسار غدا أمراً طبيعياً ومُعطى بديهياً خارج النقاش والتأويل، وفي منأى عن التغيير والتبديل.

غير أن المسار بدأ يتخلخل منذ تصدّر كمال جنبلاط كرسي الزعامة، وبدأت العلاقات القائمة على أساسه تتفكك رويداً رويداً وتتحلّل بشكل تدريجي لتأخذ منحى آخر مختلفاً في الجوهر ومغايراً في الاتجاه.

بدأت مسيرة كمال جنبلاط السياسية عملياً، أو لنقل رسمياً، مباشرة بعد وفاة حكمت جنبلاط. فخلال تشييعه إلى مثواه الأخير في المختارة، صاح الشيخ شاهين المصري من بلدة صليما في المتن: «مات الملك، عاش الملك». فاختصرت هذه الكلمات السنوات الطوال التي عملت نظيرة جنبلاط من أجلها. ولخصت

19. إيغور تيموفييف: م. س، ص 92.
20. م. ن، ص 91.



بالتالي الهدف الذي سعت إليه. لذلك بدأ التفكير الجدي لأن يصبح «الأمير الجديد» نائباً. وترافق هذا التفكير مع العمل المباشر لتأمين المستلزمات الضرورية لوصوله إلى الندوة البرلمانية. فقد كان هذا الموقع السياسي-الرسمي نوعاً من الاعتراف «بشرعية» الزعامة على المستوى المحلي الضيق كما الوطني العام. ويشير خليل أحمد خليل إلى أن الطبيب يوسف حتي صديق العائلة، والذي كان موضع ثقة سيدة القصر، كان أول مَن فكر في ترشيح كمال جنبلاط للنيابة[21].

من هنا، يشير فوزي زين الدين إلى أن أول خلاف جدّي ومعبّر بين سيدة القصر والزعيم الشاب برز مبكراً جداً خلال الإعداد للانتخابات النيابية. فقد عُقدت في قصر المختارة لقاءات عدة لتشكيل اللوائح، منها اجتماع حضره، إضافة إلى الست نظيرة وكمال جنبلاط، كل من إميل أده، جورج عقل، وكسروان الخازن، وإفرام البستاني، والدكتور جميل تلحوق، إلى جانب آخرين. وبدأوا نقاشاً حامياً لبلورة الصيغ النهائية للاشتراك في انتخابات 1943.

بدا كمال خلال الاجتماع مستمعاً لا يتفوّه بأية كلمة. وعندما يسألونه رأيه يقول «إنني اتعلم»[22]، وبعد أن انتهوا من عرض الأفكار وجوجلة الأسماء المقترحة لخوض المعركة، وتوافق المجتمعون على اللائحة المعتمدة، طلب كمال الاطلاع على «الصيغة النهائية». وبعد قراءته الأسماء المدوّنة، قام بتصرّف فاجأ الحضور وأذهلهم لأنه لم يكن في الحسبان. إذ عمد الى طي «الورقة» التي تحتوي الأسماء «المقرّرة» ووضعها في جيبه، وسحب بالمقابل من جيب جاكيتته الصغيرة ورقة أخرى وقدمها للمجتمعين قائلاً: «هذه لائحة كمال جنبلاط وعلى أساسها أشارك في الانتخابات».

21. د. خليل أحمد خليل: م. س، ص 64-65.
22. تتناقض هذه الصورة مع الإطار العام الذي قدمه د. خليل أحمد خليل في كتابه كمال جنبلاط... م. س، ص 66، نقلاً عن الطبيب يوسف حتي حيث جاء في النص ان كمال جنبلاط كان يتكلم دائماً بحدة وانفعال وصراحة ما بعدها صراحة.

أغضب هذا التصرف الست نظيرة كثيراً وأحرجها. فعمدت إلى الغمز من موقع التذاكي والاستخفاف لإحراجه وإعادة ضبط الجلسة والتحكم بمجرياتها. فسألته: «لماذا لم تضع اسمك في رأس اللائحة؟». فأجابها بهدوئه المعتاد: «وضعت اسم إميل إده في رأس اللائحة لأنه رئيس جمهورية سابق» (كان اسم جنبلاط الثاني بعد إميل اده). عندها ازداد التوتر، فما كان منه الا أن غادر القاعة من دون ضجيج، الأمر الذي دفعها إلى توسيط العديد من الأصدقاء والمقربين لإجراء بعض التعديلات على ما قرره. وإذا كانت هذه الواقعة غير معروفة أو غير متداولة[23]، غير أنها تدحض كل التصورات التي نُسجت عنه وعن موقفه من السياسة. فقد كان، على ما يبدو، ملماً بما يدور حوله من أحداث من دون أن يعلن ذلك أو يفصح عنه. لأنه قد يكون من غير المنطقي لشخص في مستواه العلمي وموقعه الاجتماعي وفي ما عُرف عنه سابقاً، أن يكون معزولاً عن محيطه. في مطلق الأحوال، فإن ما جرى ترك مضاعفاته السياسية وتجسيداته العملانية على صيغة العلاقة بين الست نظيرة والزعيم الجديد. بل لعل هذه الحادثة كانت «الإعلان الرسمي»، إذا جاز التعبير، لما سوف يستَجدّ لاحقاً.

لقد اتسعت شقة التمايز بينهما من خلال تحوّل الزعيم الشاب عن الكتلة الوطنية ورئيسها إميل اده. فقد ترشح في أول معاركه الانتخابية (1943) على لائحة الكتلة الوطنية وكان عضواً فيها، وتضامن معها في انتخابات الرئيس بشارة الخوري في الشكل، حين تغيّب عن الجلسة. لكنه سرعان ما تعارض معها بعد أن عارض اده مسيرة الاستقلال، الأمر الذي دفعه إلى اتهام إده وجماعته بـ«الخيانة العظمى»[24]، وأدى إلى إلغاء تحالفه مع الكتلة والانسحاب منها،

23. يؤكد فوزي زين الدين: م.س، أن هذه الحادثة يعيها جيداً فقد كان له من العمر حوالى 14 سنة (مواليد 1929) وهي معروفة من المقرّبين من قصر المختارة بالرغم من عدم تداولها.
24. اسكندر الرياشي: م. س، ص 126. ويذكر حسن امين البعيني: م. س، ص 348، =



قاطعاً العلاقة المتينة والراسخة التي كانت سيدة القصر قد نسجتها منذ أمد بعيد، وَوَسَمت الغرضية الجنبلاطية طيلة مرحلة الانتداب.

ضمن هذا السياق، أعطى الثقة لحكومة رياض الصلح[25]، وشارك في الجلسات التي أقرّت تعديل الدستور، وألغت كل النصوص المتعلقة بالانتداب. وبذلك كان على النقيض من إده الذي انسحب من الجلسة بعد رَفْض طلبه إحالة التعديل إلى لجان مختصة لبحثها، وتضامن مع رجالات الاستقلال عندما اعتقل الفرنسيون رئيس الجمهورية والوزراء وأركان الحكم. وكان أول من أمّوا منزل صائب سلام وعُيّن في الحكومة الرديفة لحكومة الاستقلال، ورفض، في المقابل، المشاركة في الحكومة التي كان إميل اده يرغب في تشكيلها. وفضّ العلاقة مع الكتلة الوطنية ورئيسها لأنها كغيرها من الكتل تسعى وراء «المصالح الشخصية». والأهم من ذلك لأن «الأفكار المسيطرة عليها لا تتفق مع المبادئ التقدمية التطورية التي يؤمن بها»[26] (26)، الأمر الذي زاد تعارضه مع سياسة سيدة المختارة الفرنسية الهوى.

لقد وعى كمال جنبلاط التحولات العالمية التي بدأت مظاهرها تبرز في الحرب الكونية الثانية. وعرف أن مرحلة جديدة، مختلفة عن مرحلة الانتداب، تتشكل. ففي المرحلة الماضية، كانت فرنسا «سيدة المنطقة»[27]، تجول وتصول فيها بالتوافق مع بريطانيا، بينما المرحلة الجديدة مأخوذة أكثر بأفكار التحرر، والدعوة إلى الاستقلال والتحرر الوطني تعصف في البلاد كما في العالم. وفرنسا التي كانت

= قولاً لوليد جنبلاط في حديث تلفزيوني يقول فيه: «...هذا البيت تمورن على أيام الست نظيرة... لكن الخط السياسي لم يكن خطاً عربياً اسلامياً، بل كان خطاً سياسياً انعزالياً...».
25. **النهار**، تاريخ 29 تشرين الأول 1943.
26. **البشير**، تاريخ 8 ايار 1947.
27. يشير فؤاد ميلاد رزق الله ورامز أبي صعب إلى هذا التعبير مباشرة بينما يركز الآخرون على ما يتفق بالمضمون مع هذا المصطلح.

«مطمئنة» لوضعها، غدت مرتبكة وقلقة. هذا التصور لم يكن، على الأرجح، حاضراً في ذهن الوالدة، ولم يكن موقعها، لاعتبارات متعددة، يسمح لها برؤيته أو توقعه. من هنا، فإن الخلاف بينهما، برأي البعض، خلاف في الزمن، إذا جاز التعبير.

إن التحول السياسي الذي بدأه كمال جنبلاط كان سريعاً جداً، بالنسبة إلى نظيرة جنبلاط، الأمر الذي جعلها غير قادرة على مواكبة ما يجري واستيعابه. وقد يعود ذلك لكونه جاء متناقضاً مع الأسس الرئيسة التي ارتكزت عليها تجربتها عبر مسيرتها السياسية الطويلة، فبدا عمل الابن وكأنه تنكّرٌ لمنطلقاتها الأساسية[28]. والمرونة التي اكتسبتها واتسمت بها لم تكن لتصل إلى هذا المستوى. كما إن سعيها للتقرب من بشارة الخوري جاء في اللحظة التي كان فيها كمال جنبلاط من أبرز قادة المعارضة، وهدفت من ضمن ما هدفت اليه الحد من غلو المعارضة التي يتصدرها الزعيم الجديد، لأن منطق المعارضة السياسية بالأساس، والاتجاه المعارض الذي جسّده كمال جنبلاط بالتحديد، كان امراً «مزعجاً» للوالدة، لأنه يتعارض مع منطقها ويتصادم مع أدائها السياسي المعتمد على التقرب من السلطة وبناء علاقات طيبة مع رموزها وعدم استفزازها.

لقد وسّعت الست نظيرة نفوذ المختارة انطلاقاً من المبدأ القائم على التناغم مع السلطة وعدم التناقض معها، في حين وجدت ولدها وفي لحظة سياسية على حد السيف مع العهد ورئيسه. فهي تميل إلى الموالاة، وهو في صلب المعارضة، وهي تتسم «بالليونة»، وهو يتصف بالتحدي والمواجهة. وهذا ما زاد قلقها على

28. لمزيد من المعطيات يراجع:
- د. فارس اشتي: **الحزب التقدمي**، ج1، م. س، ص 161-162.
- حسن امين البعيني: م. س، ص 349.
- ايغور تيموفييف: م. س، ص 92.
- حافظ ابو مصلح: م. س، ص 228.



مصيره كزعيم وعلى موقع الزعامة ومستقبلها. لذلك يشير الرياشي إلى أنه في أشد الأزمات حين يكون «الثائر الدائم... الذي كان قد أخذ على نفسه منذ الساعة الأولى مناوأة الحكام ومعارضة الدولة»، كانت الست تزداد، في المقابل، تودّداً وتقرّباً من السلطة[29] لتخفف من النتائج التي قد ولّدتها هذه المعارضة. فقد توهمت كثيراً من عواقب العلاقة المتوترة مع السلطة وغدت فكرة المعارضة هاجساً غير مستحب، لا سيّما عندما ربط كمال جنبلاط معارضته بتحالفات وأبعاد ومضامين وتعابير غير مألوفة عندها ومن خارج قاموسها السياسي.

### 3. أطر العمل

يتمثل العنوان الثالث في رؤية كل منهما لأطر العمل السياسي ووسائطه. فاذا كان الخلاف حول «المنطلقات النظرية» حاصلاً وبقوة، فإن تعابيره الميدانية

29. اسكندر الرياشي، م. س، ص 95. ان سعي الست نظيرة لفتح خطوط مع الرئيس بشارة الخوري كان سعياً جدياً. وقد أوصت كمال جنبلاط بضرورة التفاهم مع الرئيس وحرصت على تحقيق المصالحة مع آل الخوري هادفة من وراء ذلك إلى أن تحقق للزعيم الجديد موقعاً وزارياً (تحقق حلمها في 14 كانون الأول عندما استلم وزارة الاقتصاد الوطني ووزارتي الزراعة والشؤون الاجتماعية» بعد أن نجحت في نقل الزعامة اليه وجعلته سياسياً، وأرسلت اليه رسالة بهذا الخصوص. وقد يكون من الأسباب الأخرى لإعادة ما انقطع مع بشارة الخوري خشيتها من تحالف ابنها مع كميل شمعون بحيث يشكلان «حزباً» على ضوء «حزب السلطة» - اي الرئاسة. وتكمن جذور هذا القلق في وعيها الباطني لتجربة البشيرين - الأمير بشير الشهابي، والشيخ بشير جنبلاط - وما كان له من «نتائج مدمرة» على الأسرة الجنبلاطية. ويؤكد نجيب بك شمس: م. س، أنها كانت، وبحضوره، تؤكد على ابنها بعدم التحالف مع شمعون وبخطورة هذا التحالف ونتائجه، وتبيّن له عدم ثقتها بتمتين العلاقة معه. لمزيد من التفاصيل حول التوجه السياسي للست نظيرة باتجاه الرئيس الخوري، يراجع الفصل الرابع.
- د. خليل أحمد خليل: **كمال جنبلاط**... م. س، ص 65-77-78.
- د. فارس اشتي: **الحزب التقدمي**... م. س، ص 127-137.
- بشارة الخوري: **حقائق لبنانية**، ج2، م. س، ص 267.
- **الدنيا**، تاريخ 6 ايلول 1946.

– الواقعية تأتي كتحصيل طبيعي. إن «الخلفية النظرية» التي حركت الست نظيرة وألهمتها كانت محكومة بظروفها وحدودها البيئية والاجتماعية الخاصة. لذلك فإن أطر العمل السياسي وانعكاساتها المجتمعية لم تخرج عن هذا النطاق وفضائه. من هنا لاحظنا أن مركز الثقل عندها محصور، إلى حد بعيد، في هموم الدار وموقعها... فيما جاءت تطلعات الزعيم الشاب أرحب في أفقها وأعمق في إنسانيتها وأوسع مدى في حركتها وأكثر حداثة في مضمونها.

قد تكون خلفية هذا المنحى عند كمال جنبلاط مشحونة بميول «اشتراكية» عامة بدأت مظاهرها الأولى منذ وقت مبكر، وتمثلت في نظرته الإنسانية وأفكاره الحالمة بمجتمع تتحقق فيه العدالة، وتسود المساواة بين فئاته وطبقاته، وتهيمن فيه قيم الإخاء والعدل، ما يساهم في احترام إنسانية الإنسان ويحمي حريته ووجوده. من هنا، جاء مسعاه لتأسيس «حركة اجتماعية لبنانية»[30] من عشرة أشخاص (ثمانية مسيحيين، واحد سني وآخر درزي) كبداية لاعلان القطع مع الأسلوب السياسي لوالدته. ثم كان تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي (1949)، «كالقشّة التي قصمت ظهر البعير»، ما جعل حدة التعارضات تصل إلى أقصى مدى لها.

وتُجمع المقابلات الشخصية على أن إقدام كمال جنبلاط على تأليف الحزب كان عملاً غير مقبول بالنسبة إلى زعيمة القصر. فهي مكتفية بـ«حزبيتها»، ولا تريد الابتعاد عنها أو مغادرتها أو تطويرها أو التفكير في تغييرها أو تجديدها. فقد انطلقت طوال حياتها من رؤيتها الشخصية للتاريخ، والذي يعود عندها إلى عهد الإمارة. وبالتالي، فإن المجال السياسي الرئيس لحركتها هو جبل لبنان وحده. وكما في الماضي البعيد، فالأحداث الأساسية محصورة عندها في المختارة وبيت الدين ودير القمر... وأي ذكر للأحزاب والحركات السياسية الناشئة في

30. د. خليل أحمد خليل: م. س، ص 82–83.



بيروت كان يقابَل منها بابتسامة ساخرة[31]، اذا لم نقل باستخفاف واستغراب. لذلك جاءت سلوكيات الزعيم الجديد وتطبيقاته العملانية لأفكاره «المثالية» قطعاً منهجياً مع نمط الوالدة.

لقد وقع عليها تشكيل الحزب التقدمي الاشتراكي كوقع الصاعقة، وأحدث في داخلها زلزالاً قوياً. فحالما بلغها النبأ، غادرت قصر المختارة على وجه السرعة قاصدة بيروت – وهي من النادر أن تخرج – مستهدفة، بالدرجة الأولى، الشيخ عبدالله العلايلي الذي كانت تعتقد أن له تأثيره الفتاك على ابنها. ويروي الشيخ العلايلي أن اللقاء الأول معها كان عاصفاً – وهي المرة الأولى التي كان يلتقيها مباشرة – وأن مستوى انفعالها كان حاداً جداً. وقد جاءت كما يقول المثل «يا قاتل يا مقتول». وبدأت تسأل بحدة وانفعال عن معنى «هذا التقدمي الاشتراكي». فكمال جنبلاط يتمتع بكتلة تاريخية ضخمة هي الجنبلاطية فلماذا تصفه بالتقدمية والاشتراكية وغيرهما؟ ويوضح الشيخ أن نتيجة اللقاء كانت عادية، دعته على أثر ذلك إلى زيارة المختارة حيث لبّى الدعوة وبقي في ضيافتها أسبوعاً[32]. لكن هذا الهدوء لم يكن ليخفف التوتر أو يزيل القلق الذي انتابها على الزعامة والعائلة من الحزب الجديد.

إن تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي قلب الحزبية الجنبلاطية التقليدية «رأساً على عقب». وإذا كان هذا الانقلاب لم يلغِ الحزبية الجنبلاطية شكلاً، كوعاء مجتمعي، فئوي، تقليدي، غير أنه عزّز هذا الوعاء وأعطاه وزناً وحجماً ودوراً أكبر بكثير مما يمكن أن يكون له في معادلة التركيبة الطائفية. ويتجسد هذا الانقلاب، برأي جورج حداد، في «الشحن الإلزامي» وباعطائه «محتوى حزبياً جديداً فكرياً، وسياسياً ونضالياً»، الأمر الذي يفرض على الحزبية الجنبلاطية في هذه الحالة تجاوز ذاتها بنيوياً نحو تشكيلة مجتمعية عصرية أرفع. وعند مقارنة

31. إيغور تيموفييف: م. س، ص 31.
32. م. ن، ص 165.

هذه التجربة مع تجربة الست نظيرة، يمكن القول ان الحزبية مع كمال جنبلاط أصبحت ملزمة بـ«التقدمية الاشتراكية» قبل أن تكون ملتزمة، بينما لم تكن مع الوالدة بالضرورة ملتزمة بمن كان قبلها ولا ملزِمة لمن جاء بعدها[33]. وبالرغم من المبالغة في هذه المقارنة، والتي تبدو وكأنها محكومة بخطاب «ايديولوجي»، فان جوهر هذا الرأي يدلّ بدقة على أن الست نظيرة لم يكن في مقدورها أن تلحظ الانقلاب–التحوّل الذي قام به كمال إلا بما هو متعارض بشدة مع اتجاهها السياسي وطريقة عملها.

## 4. الميدان الاجتماعي

يتمثل العنوان الرابع في الميدان الاجتماعي أو البُعد المجتمعي للتجربة. ويبدو هذا العنوان كحاضن لمختلف العناوين السابقة التي تُبرز مجالات الاختلاف والتمايز بين سيدة المختارة وزعيمها الجديد، وتتأتى أهمية هذه المسألة من كونها تجسد الأفكار والمفاهيم في أرض الواقع وتجعلها حقيقة حية واضحة للعيان يمكن رصدها ومتابعتها والحكم عليها. لذلك تبدو نوعاً من «السلوك الاجتماعي» الذي يخدم وظيفتين مترابطتين: وظيفة الموجِّه، بمعنى ضبط حركة القائد – الزعيم. ووظيفة المحك، بمعنى المقياس أو المعيار الذي يدلّ على صدقية السلوك وواقعية الفكرة. وتبدو هذه المسألة – العلاقات الاجتماعية – من أكثر القضايا الإشكالية في التجارب السياسية، التقليدية منها أو الحديثة، بحيث تأتي الممارسة، في الأغلب، متعاكسة مع الفكرة والسلوك ومتخاصمةً مع الدعوة.

وتجدر الاشارة في هذا المجال إلى أن المتابعة تبين أن مجالات الخلاف كانت في مضمون العلاقات الاجتماعية وطبيعتها، أكثر مما هي في مدى تطبيقها والتزامها. فـ«الست» نظيرة كرّست في تجربتها العلاقات التي تنسجم مع رؤيتها للزعامة وموقعها، وكمال جسّد في علاقاته نماذج قريبة من أفكاره ومتوازنة مع دعواته.

33. السفير، تاريخ 14 تموز 2003.



ولتقريب الصورة، يمكن القول إن الزعيم الشاب كسر الكثير من التقاليد السائدة واخترق القواعد المعتمدة بين الزعيم وأتباعه في أكثر من موقع، لعل من أهمها النظرة إلى الزعامة وسلطتها وعلاقاتها.

إن البذور الأولى لنمط العلاقات التي نسجها كمال جنبلاط تعود في جزئها الأساسي إلى نزعته الانسانية والاتجاهات الاشتراكية الجنينية التي كانت تكمن في أعماقه. ومما لا جدل فيه أن مرحلة دراسته في فرنسا أضفت صبغة معينة على نمط علاقاته وتفكيره، وبالتالي ميله إلى «الاشتراكية الفرنسية» التي عبّر عنها في أكثر من موقع عملي – ورشات العمل، المعامل البسيطة، التعاونيات... – ما أثار حفيظة الست وأسفها[34]. وعندما ألقى في العام 1941 أول خطاب سياسي له باسم العائلة في احتفال سياسي لاستقبال جورج كاترو في منزل الشيخ حسن طليع، بعد «تحرير لبنان» من قوات فيشي، علّق الفرنسيون، من خلال بارت (Bart)، على الخطاب همساً في أذن حكمت جنبلاط: «ابن عمك اشتراكي»[35].

وعليه، فان موقع الزعامة عنده لم يكن يُقاس، من حيث المبدأ، بقوة الأملاك العينية والمادية، ولا تتأتى هيبة الزعيم من مظهره وتسلطه وموروثه الاجتماعي فقط، بل تحتاج الزعامة والزعيم إلى اعادة صياغة إلى طبيعة العلاقات مع مريديه ومحيطه. وهذه النظرة تبدو متقدمة في حينه، ليس في التبشير بها، بل في تطبيقها على أرض الواقع. من هنا، فقد طبّق كمال جنبلاط عملياً، وعلى نفسه، قبل تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي، مضمون دعوته

34. إيغور تيموفييف م. س، ص 80. ويذكر الشيخ حسن الدبيسي: م. س، أنه في بداية الاربعينات كان بين مجموعة من الشباب في زيارة لكمال جنبلاط في «معمله» للقطرون. فقام بتحضير الشاي بواسطة عكس اشعة الشمس من خلال قطعة من الزجاج. فحضرت الست نظيرة ورأتهم حوله، فضربت على صدرها قائلة له: شو بدك بهالعمل، موقعك ليس هنا! وتوجهت بالكلام نحو الدبيسي: بدل ما تنصحوه بتتجمعوا حوله؟».

35. د. خليل أحمد خليل: م. س، ص 68.

«الاشتراكية» في تواصله مع الناس، فقام بتوزيع قسم من أملاكه على بعض سكان قضاء جزين وإقليم الخروب، عموماً[36]، وبلدة سبلين، خصوصاً. وبيّنت مسألة الأراضي نظرة كلٍّ منهما – نظيرة وكمال – إلى طبيعة الزعامة والسلطة وآفاقهما المستقبلية.

أقدم الزعيم الشاب على «توزيع الاراضي» عن سابق تصور وتصميم، لأنه اعتبر من الضروري أن «يُنجز في لبنان إصلاح عقاري، بحيث تزول الملكية الكبرى ويتمكن كل لبناني من امتلاك قطعة ارض صغيرة». لذلك وزّع بنفسه على الفلاحين في سبلين – قرب البحر قرابة المئة هكتار[37]. فقد كان مترفعاً عن هواجس الملكية وإغراءاتها المادية، ولم يعتبرها، كما يبدو، ركيزة لسلطته وزعامته، أو قوة إضافية تعزز حضوره السياسي وموقعه الاجتماعي. وهو يعترف صراحة بأنه قليلاً ما يهتم بالمال، «فبمجرد أن يحصل لديّ القليل منه حتى يتسرّب. فأنا أعلم أن هذه الأوراق تتشبث بالأصابع فأتخلص منها سريعاً»[38]. غير أن هذا المنحى في الميدان الاجتماعي لم يكن حاضراً في عمل الست نظيرة. فقد عُرف عنها اهتمامها الكبير بالغرضية الجنبلاطية وتقديمها المساعدة الممكنة لمن يقصدها، لكن ليس إلى الحد أو المستوى الذي بلغه ابنها.

لذلك، فإن قضية توزيع الأراضي غدت إحدى أهم المسائل الخلافية وأكثرها حدة بين ركنَي الزعامة الجنبلاطية. فعندما عمد كمال جنبلاط في المرحلة الأولى إلى السماح للمحتاجين من الفلاحين بالانتفاع من الأراضي مجاناً، كاد أن يكون الوضع محمولاً. لكن عندما وصلت به الأمور إلى حد إحالة الملكية رسمياً إلى الغرباء، فإن الوضع أصبح بالنسبة إلى الوالدة تصرفاً غير مسؤول ونوعاً من

36. حسن أمين البعيني: م. س، ص 349.
37. كمال جنبلاط: **هذه وصيتي**، م. س، ص 49.
38. م. ن، ص 48 مع الهامش.



«التبذير والإهدار لممتلكات الأسرة»، إذا لم نقل إنه عمل يتّصف «بالجنون». فقد طاف «كأس الصبر»[39] عندها واستدعى منها إجراءين مباشرين: الأول انتقالها إلى الجناح العائد إلى ابنتها ليندا في قصر المختارة، تعبيراً عن مدى التوتر والرفض لما أقدم عليه ولدها، والثاني المحافظة على بعض هذه الأراضي من خلال تحويل ملكيتها عن اسمه[40].

وقد انساق نمطه الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي بدأ ينسجها مع الناس على هذه القاعدة، أي على اعتبارها ثمرة لقناعاته الفكرية وتصوراته الذهنية. فتمرده على نمط السلطة التقليدية وأسلوب العمل الإقطاعي وعلاقاته جعلته أكثر قرباً من الناس ومتخطياً العديد من الشكليات الملازمة للزعيم «مظهراً وتصرفاً». فمنذ أيام الدراسة، عُرف عنه التواضع والابتعاد عن المظاهر الخادعة ورفضه التمايز عن أقرانه. وفي مرحلة الصبا والشباب، عُرفت عنه الرغبة والسعي لمساعدة المحتاجين. إضافة إلى زهده وتقشفه ونمط غذائه، وتواضعه لناحية هندامه العام وطريقة لبسه وبُعده عن الفخفخة... وكلها مسائل تبدو في حينه وفي موقعه خروجاً عن المألوف وتختزن الكثير من مظاهر التحدي، سواء لنمط المجتمع التقليدي أو لطبيعة المجتمع الاستهلاكي[41] ومظاهره الخادعة.

39. إيغور تيموفيف: م. س، ص 183.
40. حسن أمين البعيني: م. س، هامش ص 349. يرفض عزيز المتني ما أورده إيغور تيموفييف، ص 183 بأن نظيرة جنبلاط اعتبرت في توزيع الأراضي أن «... الأمور سارت نحو التبذير واهدار ممتلكات الأسرة...». وهذا التعبير أمر غير مقبول. لأن تعبير – مصطلح التبذير يرتبط بتبديد المقتنيات من مال وعقار على الملذات الشخصية والأهواء والانحرافات. أما تصرف كمال جنبلاط فهو واحد من اثنين: إما فاعل خير فيُشكر ويقدر، وإما مصلح اجتماعي آمن بمبادئ وأفكار وأراد أن يُقرن القول بالفعل. يراجع رأي المتني في **النهار**، تاريخ 7 آب 2001.
41. يراجع، على سبيل المثال:
– إيغور تيموفييف: م. س، ص 79، 149.
– عدنان الشهال، م. س، ص 14.

=

لم تكن نظيرة جنبلاط بعيدة عن الناس أو مجافية لهم أو رافضة لمساعدتهم، بل عُرف عنها تقربها منهم واهتمامها بهم ومتابعتها لقضاياهم، باعتبارها مرجعاً سياسياً واجتماعياً من جهة، وباعتبار هذه المظاهر وغيرها، من مرتكزات الزعامة ومن صحيح أدائها السياسي من جهة أخرى. غير أنها وجدت في تصرف ابنها ونمط علاقاته نوعاً من الانتقاص من مكانته الاجتماعية وتهميشاً لموقعه. فالاختلاط بالعامة يقلل، بحسب رأيها، من شأنه كابن الحسب والنسب وسليل العائلة العريقة، وبالتالي يلغي هيبته كزعيم متمايز عنهم ومختلف. فقربه أو تقربه لا يُفترض أن يزيل الحدود التي تفرضها التراتبية الاجتماعية والأعراف المعمول بها في المجتمع.

كما عمد الزعيم الشاب ضمن هذا الميدان إلى تغيير بعض العادات والتقاليد الإقطاعية المتوارثة في بيئته، والتي كانت تعطي العائلة الإقطاعية حظوة خاصة في المناسبات الاجتماعية أو من خلال التخاطب والتواصل المجتمعي. فقد كان من المتعارف عليه، مثلاً، أن يحظى ابن دار المختارة وفي حال حضوره أي مناسبة اجتماعية بموقع مميز جداً على حساب الآخرين. وهذه الظاهرة من الإشارات المعبّرة عن هيبة الزعيم أو صاحب السلطة. غير أن كمال جنبلاط اعتبر أنه إذا كان من الممكن التغاضي عن بعض هذه التقاليد في المناسبات السعيدة، فإن المناسبات الأليمة والحزينة تفترض التخلي عن هذه العادات كونها تقلّل إنسانية الإنسان وكرامته. لذلك أصر على رفض ما كان متبعاً عند حضور ابن دار المختارة للقيام بواجب التعزية مثلاً؛ وأوعز من خلال مشاركته في بعضها أن الإجراءات المتوارثة يجب أن تُلغى كلياً وإلاّ ينسحب من المناسبة أو لا يشارك فيها من الأساس.

= - د. خليل أحمد خليل: م. س، ص 72-73 و61.
- كمال جنبلاط: **هذه وصيتي**، م. س، ص 48.
- كمال ابو مصلح: **كمال جنبلاط**، ص 80 حيث يشير إلى زهد كمال جنبلاط بالمال. فقد ظهرت بوادر هذا الطبع في عهد الصبا، إذ ضجت الوالدة مما يطلبه من المال وهو تلميذ في عينطوره. ثم اكتشفت تعهُّده خمسة تلاميذ من رفاقه ينفق عليهم تعليمياً وذات اليد. ونورد هذه الحادثة دون تعليق.



ان أطر العمل السياسي غير التقليدية فرضت، في المقابل، أنماطها في العلاقات المجتمعية الأخرى. وتتردد في الشوف، مثلاً، قصة الفتى من فلاحي قرية القرية عندما دخل قصر المختارة متهلل الوجه يسأل سيدته في زهو أسقط معها كل «الكلفة» قائلاً: «الرفيق كمال هون؟» (أو الأخ كمال)، فتجيبه جاحظة العينين، مقطّبة الجبين، وبصوت أقرب إلى الصراخ: إنقبر من وجهي... من وقت ما صار خيّك ما عدت أعرف وين بيروح وكيف بيجي[42].

هذه الوضعية التي بدأت تتسرب إلى قصر المختارة وتستقر فيه جعلت نظيرة أكثر نفوراً من تصرفات ابنها وسلوكه، لأن طبيعة العلاقات الاجتماعية التي أفرزتها تصوراته الفكرية وأطر عمله السياسي ناقضت الموروث الاجتماعي الذي اعتادت عليه واتبعته. لهذا فإن ردها أخذ أكثر من مستوى أو مر بأكثر من مرحلة. في المرحلة الأولى، كانت تداري هذه التصرفات، ظناً منها أنها غمامة صيف

42. يراجع:
- كمال أبو مصلح: م. س، ص 249-250.
- ايغور تيموفييف: م. س، ص 166.
- **النهار**، تاريخ 19 شباط 2001، حيث يعتبر عزت صافي أن هذه الرواية «رواية قروية مفبركة» ودليلا على «تقدم الولدنات وتغييب المثل العليا». واذا كانت الست نظيرة غير راضية عن الاتجاه الاشتراكي لابنها، غير أنها لم تكن، بحسب رأيه، لتتلفظ بمثل تلك العبارة الممجوجة والمنسوبة إليها. كما يؤكد الشيخ حسن الدبيسي: **مقابلة شخصية**، أنها رواية غير صحيحة في الأساس.
بالرغم من الاختلاف حول مضمون هذه الحادثة ومدى صحتها، غير أنه مؤشر إلى نمط عملها السياسي وطبيعة فهمها للعلاقات الاجتماعية. وفي الحالتين دلالة على تقليدية واضحة، مقارنة مع كمال جنبلاط. ولتوضيح هذا الاستنتاج نذكر الحادثة التي جرت مع أبو كمال (فؤاد ملحم خطار) الذي التقى الست نظيرة لمرة واحدة في العام 1949، عندما أصبح مختاراً لبلدته (باتر). وقد كان الأصغر عمراً (25 سنة) بين أعضاء المجلس الاختياري. بل إن اصغرهم يكبره على الأقل بعشر سنوات. وقد قرر المجلس زيارة الست عملاً بتقليد قديم. وفي اللقاء نظرت اليه ملياً وتفحصته من رأسه حتى أخمص قدميه، ودققت في شكله... ثم سألته: مش بعد بكير يا حبيبي؟! فرد: الظروف حكمت. هذه الواقعة تدل على ما هو المقصود بالتقليدية.

وتنجلي، ثم لا بد للأمور أن تعود إلى طبيعتها. لذلك عمدت إلى صدّ كل من كان يغمز من قناته، أو أن يتعرض له مباشرة أو غير مباشرة. فمَن يُلمّح إلى أنه ينفق الكثير على مشاريعه، تردّ بحزم: «المال ماله وله الحق أن يتصرّف به كما يريد». ومَن يشير إلى اختلاطه بالعامة تردّ بثقة: «إن هيبة ابن جنبلاط محفوظة في كل الظروف والأوضاع». وتشير مي جنبلاط إلى أن موقف الست وتصرّفها نابعان من احترامها لمبدئه. وهي لم تسمح لأحد بأن يسيء إلى كرامة الدار أو أن ينتقد أمراً أقدم عليه ابنها. لذلك كانت في حوار دائم معه لأن همّها أن تسلّم الأمانة[43] بعد أن حافظت عليها.

في المرحلة اللاحقة، تفاقمت الأمور وتعقّدت، ما دفعها للبوح إلى بعض المقربين بأن «كمال عم يعذبني»، تقولها بصوت هادئ[44] وخافت، لأن جوهر الخلاف-«العذاب» بلغ الأسس والمنطلقات، بل وصل إلى البديهيات والمسلمات. والحوار - إذا وجد - بينهما كان حواراً بين شخصيتين قويتين متعارضتين في التوجه، ولكل منهما حجته ومبرراته ورؤيته للمستقبل.

في المرحلة الثالثة، لم يعد ينفع التلميح أو تمويه المسائل أو توريتها أو تقليل آثارها، كما لم يعد التسامح والسكوت بالنسبة إليها ممكنين. لذلك بدأت تطلب من الآخرين مساعدتها لردعه عن سلوكه وهدايته إلى الطريق السليم. فطلبت من كميل شمعون، مثلاً، «معاملته بصبر وجَلَد»، ومن ريمون إده أن «يتعهده ولا يتركه دون عناية». ورغم الشك في ما وصل إليه إيغور تيموفييف في العودة إلى كميل شمعون وريمون إده[45]، غير أن مستوى التوتر كان على أشده، وقد عبّرت

43. **نساء**: م. س.
44. فؤاد ميلاد رزق: م. س. ويشير مالك بك جنبلاط م. س إلى أنه عندما زار عمته (الست نظيرة) للاطمئنان عليها في إحدى اجازاته من فرنسا، وجدها في قصر ابنتها. وقد اشتكت له من تصرفات ابنها كمال بحسرة وحرقة واضحتين.
45. إيغور تيموفييف: م. س، ص184. من المفيد الإشارة إلى أن هذا الرأي كان مثار نقاش، في أكثر من موقع، حول مدى صحته ودقته. من هذه النقاشات ما ورد في التعليقات =



عن سخطها في ردها على الشيخ أبو حسين حمود الذي كان يطيّب خاطرها قائلاً: «يا ستنا بطول الروح كل شي بيروح». فتجيبه: «اي والله نِعَم الرأي؛ وبطول الروح دار المختارة تروح»[46]. ويبدو أن الزعيم أوقفها في طريقه قائلاً، كما يشير كمال أبو مصلح، «انت عملك انتهى هنا». وهذا التصرف يفترض أن لا يضيرها بشيء لأنها هي مَن كان يؤسس لابنها. وقد سَرَّها أنه اصبح أهلاً للزعامة[47]، خصوصاً أن سنّة الحياة تفترض التبدل والتغيير من جيل إلى آخر.

بقيت عناوين الخلاف قائمة مترافقة مع ازدياد وضعها الصحي تأزماً، ما دفعها في المرحلة الأخيرة إلى ترك قصر المختارة والانتقال إلى قصر ابنتها ليندا وصهرها حكمت حيث بقيت إلى أن اشتد عليها المرض قبل انتقالها إلى المستشفى الذي فارقت فيه الحياة.

= على كتاب إيغور في جريدة **النهار**. ومنها تعليق عزت صافي، تاريخ 19 شباط 2001، وعزيز المتني، تاريخ 7 آب 2001. وفي مطلق الأحوال فقد يكون من الصعوبة التسليم بما قدمه إيغور، لأن الست لم تكن على وئام مع كميل شمعون واتسمت علاقتهما بالتوتر والخصومة، ما يجعل اللجوء إلى شمعون احتمالاً صعباً، لهذا يشكك المتني فيه.
بينما يعتبره صافي منقولاً عن مصدر غير مسؤول، ويتساءل: إذا كان كمال جنبلاط ليس إنساناً سوياً فمن هو الإنسان السوي؟ وما هي مواصفاته؟ فهذا التعبير، برأيه، إساءة= لكمال جنبلاط. أما ما قالته الست نظيرة للعميد إده، فإن الصداقة التاريخية بين العائلتين تجعل المصارحة ممكنة. لكن الأزمة تبرز هنا في أن الفارق في العمر بين العميد وكمال جنبلاط ليس كبيراً. لهذا، فإن كلام الست لو كان موجهاً إلى إميل إده لكان أكثر دقة ومعقولية. كما يشير نجيب بك شمس: م. س إلى أن التوتر مع شمعون كان قائماً وقد حذرت ابنها من التحالف معه؛ وعليه يمكن الاستنتاج مرة أخرى بعدم دقة ما أورده إيغور تيموفييف.
46. يراجع:
- كمال أبو مصلح: م. س، ص252.
- كمال أبو مصلح: **كمال جنبلاط الإنسان**، المختارة، طبعة 3، آذار 1987، الدار التقدمية، ص 241–244.
- حافظ أبو مصلح: م. س، ص229.
47. كمال أبو مصلح: م. س، ص43.

## الأجل المحتوم

لم يكن الوضع الصحي للست نظيرة مستقراً، فقد رافقها مرض مزمن في الكلية منذ فترة طويلة، فتعايشت مع مرضها وتحمّلت أوجاعه، وفُرضت عليها «حمية مشددة» لتخفيف وطأة المرض وشدته. غير أنها لم تستسلم أو ترضخ للأوجاع أو تستكين أمام وضعها الصحي الذي كان يسوء يوماً بعد يوم.

ويبدو أن إصرارها الدائم على متابعة القضايا العامة والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة، وبقاءها في واجهة الزعامة، رغم مبايعة كمال جنبلاط وتصدّره كرسي الزعامة الجنبلاطية، قد ضاعفا تردّي حالتها الصحية وعرّضاها مع تقدم السنين إلى أزمات صحية مستمرة. وعبرت للقاضي جميل الشهال في أكثر من رسالة عن تراجع وضعها الصحي واستفحال المرض وتمكنه منها، وعن تشدد الاطباء وقيودهم الدائمة، سواء في نوعية الطعام أو نصائحهم بضرورة الراحة أو إصرارهم على الخلود الى السكينة لتخفيف وطأة الأوجاع ومحاصرتها.

غير أن حالة المكابرة والعناد بدأت تخبو وتضعف مع الوقت، والمرض لم يمهلها أو يرحمها، فازدادت النوبات التي كانت تتعرض لها بين فترة وأخرى. وكان آخرها في السادس من آذار من العام 1951 عندما أصرّ الدكتور يوسف حسني على نقلها فوراً إلى مستشفى «سان شارل» في بيروت، حيث بقيت تصارع المرض إلى أن وافتها المنية[48] بعد ظهر يوم الثلاثاء الموافق السابع والعشرين من آذار عن عمر

48. ينفي عزت صافي ما أورده إيغور تيموفييف، ص183 من أن كمال جنبلاط تمنع عن زيارة والدته في المستشفى بحجة يقينه من شفائها وانه كان منهمكاً في الصلاة. ويؤكد أن هذا الخبر غير صحيح معللاً رأيه بأمرين: الأول معرفة شخصية مباشرة. والثاني الصعوبات التي عاشها المعلم في تلك المرحلة. إذ فُرض عليه توزيع وقته بين المستشفى، من جهة، وسعيه، من جهة أخرى، لحل المشكلة التي فرضتها السلطة اللبنانية بمنع عقد مؤتمر للاحزاب الاشتراكية العربية. يراجع **النهار**، تاريخ 19 شباط 2001 كما ينفي مالك بك جنبلاط م. س، تمنع كمال جنبلاط عن زيارة والدته – ويؤكد أنه في زيارته لتفقدها في المستشفى الألماني، شاهد كمال عند قدميها يمسد قدميها =



يناهز الواحدة والستين. وبموتها انتهى عهد السيدة نظيرة جنبلاط، سيدة القصر وزعيمة الغرضية الجنبلاطية بعدما استمر ما يقارب الثلاثين سنة.

غالبت السيدة نظيرة الموت وظلّت، كما يقول تويني، تنتصر عليه بقلبها الكبير الذي ما أدخلها معركة إلا وخرجت فيها منتصرة. لكن القلب الذي قهر مشاكل السياسة طيلة ربع قرن انكفأ، وقد أبى أن يأتيه الأجل المحتوم إلاّ وهو معاند أجلاً مُقدراً... فكأن بهذا القلب، الذي لم يخطئه يوماً تحسّسه بالتطور، قد شاء ان لا يكون لسيره حد في الزمن. فليكن عزاه من أجل هذا القلب أن الموت الذي قهره غير قادر على محو الأثر الذي تركه في الحياة المستمرة التي لا نهاية لها، ولا أجل، في حياة الشعب الذي يعتز بأن قلباً كقلب نظيرة جنبلاط قد أحبه وضعف من أجل مجده وسعادته[49].

ويعتبر تويني أنه بموت نظيرة جنبلاط يزول «رأس الزعامة الإقطاعية» التي تجسدت فيها، لكنه لا يقفل على المستقبل وآفاقه. وهي من القلائل الذين اكتنهت قلوبهم التاريخ فأورثوا المستقبل رجالاً يريدون المستقبل وإن على حساب ماضيهم[50].

## النعي والتشييع

نعى كمال جنبلاط الفقيدة بالآتي: «بمزيد من الأسى ينعى إليكم كمال جنبلاط والدته، وآل جنبلاط كبيرتهم وعميدتهم المغفور لها الست نظيرة جنبلاط. توفاها الله في مستشفى سان شارل الألماني في بيروت بهذا اليوم الواقع فيه السابع والعشرون من آذار 1951». يشيع جثمانها في تمام الساعة التاسعة

= ويبكي؛ الأمر الذي يجعل رأي إيغور محاصراً وخاضعاً للنقاش.

49. **النهار**، تاريخ 28 آذار 1951.

50. م. ن.

من نهار غد الأربعاء إلى شارع الشيخ بشارة الخوري ومن ثم يسير الموكب إلى دارها في المختارة. ويحتفل بمأتمها بعد غد الخميس وتوارى جدث الرحمة في تمام الساعة الثانية منه. عوّضنا الله بسلامتكم».

ونُعيت الفقيدة في محطة الإذاعة اللبنانية. كما نُعيت إلى وزراء الدول العربية والأجنبية ومحطات الإذاعة العربية وإلى محافظات دمشق وجبل الدروز وحمص وحماه وحلب في سوريا[51]. في اليوم التالي، شيعت بيروت الست نظيرة «بموكب ضخم قلّ أن شاهدت له مثيلاً»، وانساب الموكب «كنهر عظيم في شوارع بيروت». والنعش محمولٌ على الأيدي المدفوعة إلى الأعلى فوق رؤوس المشيّعين وليس على الاكتاف كما هي العادة. ووقف كمال جنبلاط يتقبل التعازي محاطاً بجورج حيمري، ممثلاً رئيس الجمهورية، وناظم عكاري، ممثلاً الحكومة، والأستاذ ريمون إده[52].

في الطريق إلى المختارة، كانت كل قرية يمر بها الموكب تخرج عن بكرة أبيها لحمل النعش والسير به مسافة ما، نادبة الفقيدة، معدّدة مناقبها. ولدى وصول النعش إلى كفرحيم، كانت في انتظاره وفود كبيرة على رأسها المقدم المتقاعد محمود بك أبو خزام. وفي دير القمر، انتظرها الديريون وقد أقفلوا متاجرهم وعطلوا أعمالهم. وقدّم سيادة المطران البستاني وكميل شمعون التعازي لكمال جنبلاط ووقفا يتقبلان التعازي معه. وطاف أهل الدير بالنعش وهم يندبون الراحلة الكبيرة[53].

عندما بلغ الموكب المختارة، استقبلته «عاصمة الدروز» بقرع الطبول وأنغام المزامير الحزينة، في حشد من الجماهير التي لا تحصى، تندب سيدة الشوف[54].

51. م. ن.
52. **النهار**، تاريخ 29 آذار 1951 وإيغور تيموفييف: م. س، ص184.
53. **النهار**، تاريخ 29 آذار 1951.
54. **النهار**، تاريخ 29 آذار 1951 وإيغور تيموفييف: م. س، ص184. =



فقد كان يوم تشييع سيدة المختارة يوماً مشهوداً في المنطقة وبدت عشرات الألوف من الناس وقد زحفت لتوديع زعيمتها، فأقفرت كل قرية ودسكرة في الشوف. وزحف الشوفيون، شيباً وشباباً، رجالاً ونساءً، إلى المختارة لينحنوا أمام جثمان السيدة التي كانت «قلب الشوف النابض ودماغه المفكر». وأبت بيروت، كما لبنان، من أقصاه إلى أقصاه، أن تدع الشوف مستأثراً بهذا الواجب، فكل لبنان كان في المختارة. وشاءت السلطات بالرغم مما بينها وبين الشوف، أن تشارك في تشييع الزعيمة التي جعلت المسالمة قاعدة لسياستها. فقد مثّل الحاج حسين العويني رئيس الجمهورية، وحضر الأمير مجيد إرسلان، ووصلت الوفود من جبل الدروز ووادي التيم ومناطق أخرى[55] للمواساة والتعزية بوفاة «أبرز امرأة في التاريخ اللبناني»[56].

أبّن عدد من المشاركين الراحلة الكبيرة، فاعتبر شيخ عقل الطائفة الدرزية محمد أبو شقرا أن اللبنانيين، كما الدروز، خسروا بفقدان السيدة الكبيرة «خسارة عظيمة»[57]. وأشار بهيج الخطيب إلى أنها «العَلَم الخفاق الذي طوته عوادي الردى»، مفتخراً أنه كان من المقربين إلى «الفقيدة الغالية» ومُركّزاً على خصالها ومآثرها الحميدة، منوّهاً بحسن ضيافتها وكثرة ترحابها بزائريها، وكرمها الحاتمي وعطفها الكبير، وسجاياها الرفيعة، وذهنها المتوقد، وتناهيها في الدعة، وعطفها على الفقير، بحيث لا ترد طلباً ولا تنهى سائلاً، وعفة لسانها بحيث لا تعرف إلى

= – يذكر الشيخ نواف أبو علي: م. س، أن ملحم قبلان كرامي من عين زحلتا قال في مأتمها:

دار البشير تنعي الخليقة بأسرها
عا جوهرة كانت فريدة عصرها

55. **النهار**: تاريخ 30 آذار 1951.
56. إيغور تيموفييف: م. س، ص184.
57. **النهار**: تاريخ 3 نيسان 1951.

الحقد سبيلاً. فالكل بنظرها سواسية[58].

كما ألقى إنعام رعد كلمة في الحفل تضمنت بُعداً سياسياً وتأكيداً على أهمية الوريث الشاب وتطلعاته السياسية الحديثة. فقال إنه «ليس مؤبِّناً ولا معزِّياً» بل إنه ينقل «عاطفة الجيل المؤمن الواعي الجديد، أبناء الحياة الذين لا يرون في الموت نهاية ولا أجلاً قاضياً، بل يتخذون منه عبرة وعظة»، مشيراً إلى أنه يرى في هذا اليوم ظاهرتين عظيمتين: الأولى هي التفاف هذا الجبل الشوفي الحبيب حول كمال جنبلاط «المصلح التقدمي»، والثانية هي في الإرث الذي تركته السيدة الراحلة للشوف وللشعب. هذا «الإرث» هو كمال جنبلاط الذي «يتفلّت من قيود الماضي ليمشي مع الحاضر ومع الحياة وأبنائها ومع التيارات الفكرية والنضالية الحديثة التي تطور هذا الشعب نحو مجده وعزه». واعتبر ان هذا «الإرث» هو التعويض عن الخسارة بفقدان السيدة الراحلة[59].

بذلك غابت السيدة التي كان القناصل الفرنسيون، في تقاريرهم إلى الخارجية في الكي دورسيه، ينعتونها بـ«سيدة القصر». والتي كان المندوب السامي الفرنسي بعد كل زيارة له إلى البطريرك الماروني في قصره الصيفي في بيت الدين، يعرج على قصرها في المختارة من دون تردد. وكثيراً ما كانوا يقولون «اذا وصلت لبنان ولم تزر بكركي والمختارة، فكأنك زرتَ روما ولم ترَ الفاتيكان»[60].

ان المقارنة بين نظيرة جنبلاط و«الامير الحديث» ورصد مجالات الخلاف ومواضيع التأثير بينهما يُدخلاننا، وإلى حد بعيد، إلى صميم شخصها وعمق تجربتها وأفق عملها السياسي ومضمونه الاجتماعي، ويؤسّسان لفهم إشكالية التقليد والتحديث في الحياة السياسية اللبنانية وكيفية تبلورها، باعتبار أن الست نظيرة مثّلت التقليد السياسي وقيمه وسلوكياته، والتزمت حدوده ومعاييره.

58. **النهار**: تاريخ 1 نيسان 1951.
59. **النهار**: تاريخ 1 نيسان 1951.
60. إيغور تيموفييف: م. س، ص33.



بينما حاول كمال جنبلاط أن يجذب محيطه الاجتماعي باتجاه أفكاره وتصوراته الحديثة ذهنياً وسلوكياً، اجتماعياً وثقافياً. وهذا ما يعنينا مباشرة كونه يطرح في أحد جوانبه أزمة الحياة السياسية في البلد عامة وفي المؤسسات الاجتماعية والتشكيلات السياسية «الحديثة» على اختلافها بشكل خاص. ويكشف هذا الأمر الكثير من العوامل التي عوّقت التطور وعرقلت التحديث السياسي، من جهة، ويبيّن، من جهة أخرى، محدودية الأثر الذي تركته تجربة مميزة كتجربة نظيرة جنبلاط، سواء في محيطها الضيق أو على المستوى الوطني الأوسع.

## الخاتمة

■

# تمايز محدود

تصدّرت نظيرة جنبلاط الزعامة ثمانيَ وعشرين سنة (1923-1951). مرّت خلالها بمرحلتين: المرحلة الأولى انفردت فيها بكرسي الزعامة وإدارة شؤونها بشكل مباشر، واستمرت عشرين سنة (1923-1943). والمرحلة الثانية كانت زعامتها إلى جانب زعامة ابنها وبمشاركته، واستمرت ثماني سنوات (1943-1951) بعد نجاح كمال جنبلاط في الانتخابات النيابية (1943) ولغاية وفاتها (1951). وفي المرحلتين بقي نجمها ساطعاً، رغم تبدّل الظروف وتغيّر الأوضاع.

في المرحلة الأولى رافقت نظيرة جنبلاط نشوء دولة لبنان الكبير وفرض الانتداب الفرنسي على البلد، وفي المرحلة الثانية عايشت الزعيمة ولادة الاستقلال والعهد الأول من الجمهورية الثانية. وفي المرحلتين، استطاعت الحفاظ على وجودها واستمرار زعامتها.

في المرحلة الأولى، استظلّت سيدة المختارة مظلّة الانتداب الفرنسي بشكل كامل ومن دون مواربة، فعمدت إلى التقرب من سلطاته والتقيد بسياساته، وغدت من الركائز اللبنانية الثابتة في خارطة الانتداب وسياسته في لبنان كما في المنطقة. وفي المرحلة الثانية، حاولت أن تراعي المستجدات السياسية الجديدة وتخفف من شدة اللون السياسي الذي صبغها ورسم معالم تجربتها، فتعايشت

مع الوضع ومتغيراته. وفي المرحلتين، نجحت في الوصول إلى ما هدفت إليه وحدّدته، ووضعته نصب عينيها.

في المرحلة الأولى، كانت سيدة القصر الزعيمة الأولى بدون منازع في العائلة وغرضيتها. وفي المرحلة الثانية، بدأت زعامتها تُحاصَر وخطها السياسي يتراجع لمصلحة وريث الزعامة وقائدها الجديد. وفي المرحلتين، بقيت تصارع بمرونة وتواجه بحنكة من دون أن تفقد هيبتها أو قوة حضورها، لاستمرار ما اعتقدته أنه يحفظ الزعامة ويضمن ديمومتها.

من هنا، ليس من المبالغة القول إن نظيرة جنبلاط حمت الإرث الجنبلاطي من التآكل والضياع، ووصلت به إلى أفضل ما كان عليه قبل تسلمها زمام الأمور، لا بل إنها استطاعت، وبجدارة، أن تحمي البيت الجنبلاطي وتصون الموقع السياسي والاجتماعي لقصر المختارة وتُبقي على مركز الغرضية الجنبلاطية في المتحد الدرزي أو على المستوى الوطني العام رغم كل الظروف الصعبة التي مرّت بها وعايشتها. ومهما كان الموقف من طبيعة هذه الزعامة وسياستها وأسلوبها، فقد نجحت سيدة المختارة، بعد مقتل زوجها، من التربّع على كرسي الزعامة وسط التنافس الحاد داخل العائلة، وتحملت المسؤولية بجدارة وبشكل فاجأ الجميع وأذهلهم وهي لم تزل في مقتبل العمر (33 سنة)، وليس لديها أية تجربة سياسية سابقة أو خبرة واضحة يعتدّ بها، فاكتسبت، وبسرعة لافتة، مواصفات وخصائص ساعدتها على تصدر الزعامة والاهتمام بالشأن العام وأهّلتها لحماية الإرث الجنبلاطي وصيانة موقعه. وبزعامتها حُسم موقع الزعامة داخل الأسرة وداخل الطائفة بطريقة سلسة وغير عنفية، بعد أن عرفت هذه الزعامة عبر تاريخها الطويل الكثير من الصراعات الحادة والمميتة. وهذا ما دفع بكمال جنبلاط للإقرار بدورها فقال: إنها «رفضت الزواج كي تربّينا، وكي



تحافظ على الإرث الذي تطاولت عليه أكثر من يد في العائلة»[1]. وقد أدركت بحسّها الأنثوي، من جهة، ومن خلال تربيتها وتجربتها وبيئتها المجتمعية، أن استمرار البيت الجنبلاطي في زعامته يتطلب رجلاً. لهذا ركّزت على تأهيل ابنها وإعداده ليكون «الزعيم المنتظر». وبذلك تكرست الزعامة لقصر المختارة بعد أن مر موقع الزعامة عبر التاريخ بمحطات متعددة بدءاً من مزرعة الشوف، وبعذران والمختارة والبرامية وبيروت، إلى أن استقر أخيراً في المختارة من دون منازعات أو صراعات.

إن متابعة تجربة نظيرة جنبلاط على مدى هذه السنوات الطويلة وفي خضم الأوضاع السياسية والمجتمعية المعقدة، تدفع إلى القول من موقع التوصيف وليس التقويم، إنها اتسمت بسمتين أساسيتين متعارضتين شكلاً ومضموناً: السمة الأولى تتمثل في فرادة التجربة وتمايزها، والسمة الثانية تتلخص في تقليديتها وضعف تأثيراتها المجتمعية. فكيف اجتمعت الفرادة مع التقليد؟ وأيهما أثّر في مسار التجربة ومصيرها؟

## فرادة مقيّدة

تنبع فرادة تجربة نظيرة جنبلاط وتمايزها من خاصّية صاحبتها الأنثوية، بالدرجة الأولى ومن مقدرتها، كامرأة، على أن تتصدر كرسي الزعامة وتحافظ على موقعها، وتتأتى أهمية هذه السمة من نوعية المجتمع وطبيعته التقليدية، حيث تحاصر البيئة المجتمعية المرأة وتعزلها في خدرها، ولا تقيم لها وزناً في الشأن العام. من هنا، يأتي تصدّر امرأة الزعامة في مثل هذا المناخ المجتمعي التقليدي – المحافظ–المنغلق، مسألةً لافتة وقضية جديرة بالملاحظة والاهتمام.

من هذه الزاوية المحددة، اخترقت سيدة القصر الموروث الثقافي في نظرته

1. **قضايا المرأة**، تاريخ 8 آذار 1977.

إلى المرأة وموقعها ودورها المجتمعي، بحيث يختزن هذا الموروث الكثير من مظاهر القهر تجاه المرأة. فالذهنية المجتمعية ومظاهرها السلوكية تنظر إلى المرأة نظرة دونية واضحة وتعتبرها في درجة أدنى من الرجل. لذلك تعرضت للتهميش والتصقت بها مجمل الصفات السلبية[2] واعتبرت ناقصةً، عقلاً وديناً، أو أنها بنصف عقل، وهناك «شك» في إيمانها، ما يجعل مشاركتها في الشأن العام أمراً غير مرغوب فيه وغير مستحب. فالمرأة ضمن هذه البيئة ومفاهيمها وقيمها غير كفوءة لتولي السلطة أو لاستلام زمام «القيادة»، ما يستوجب بقاءها سجينة البيت وحبيسة قسم الحريم. وتضمنت الأمثال الشعبية[3] العديد من الدلالات والمعاني التي تبين دونيتها وتؤكد عدم صلاحيتها لتكون في الصف الأول أو على رأس الجماعة مهما كان نوع هذه الجماعة في المجتمع.

هذه التصورات التي حفظتها الذاكرة الشعبية وتوارثتها من جيل لآخر، نزعت عن المرأة أي صفة «قيادية» وجعلتها تابعة للرجل تبعية كاملة تعيش في ظله وتحت رحمته. ووُضعت دوماً في قفص الاتهام، مقيدة بسلاسل التقاليد

---

2. تتعدد الصفات السلبية التي تلتصق بالمرأة بحيث تعتبر: فتنة، شيطان، عورة، مكمن الكيد، خدّاعة...
راجع د. علي أفرقاز: **صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني**، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان 1996، دار الطليعة.
– شيلا روبتهام: **الثورة وتحرر المرأة**، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، الطبعة الأولى 1975، دار الطليعة.
3. تكثر الأمثال الشعبية التي تدلّ على تدني المرأة وعدم أهليتها لتولي الشأن العام، منها على سبيل المثال لا الحصر:
– البيت اللي بتديروا مرا كرمالو لورا
– المرا تنكة ولو صارت ملكة
– إذا أراد الله بقوم سوءاً جعل أمرهم إلى صبي أو امرأة
– مرا ابن مرا اللي بيشاور مرا
– اسمع للمرا ولا تأخذ برأيها



والأعراف والعادات المتوارثة. وانحصر دورها من خلال طبيعتها الأنثوية – الجنسية بالدرجة الأولى. فالمرأة كالضلع إن قومته كسرته، فدعه تستمتع به على عوج[4]. ويبدو أن الموقف الذكوري من «الجنس الآخر – الثاني – اتسم على الدوام بالتناقض والتأرجح بين الانجذاب والنفور، بين الافتتان والعداء. فقد بحث الرجل عن مسؤول عن العذاب والفشل وضياع الفردوس الأرضي، فوجد ضالته في المرأة[5]. ضمن هذه البيئة المجتمعية والمناخ الثقافي، تغدو زعامة الست نظيرة ظاهرة غير معهودة، مبدئياً، في الاجتماع السياسي اللبناني. لكن السؤال الذي تثيره هذه السمة يتلخص في البحث عن مدى مساهمتها كتجربة في تغيير النظرة للمرأة؟

إن تمايز تجربة سيدة المختارة لم يكن مرافقاً أو انعكاساً لتطور مجتمعي عام. وبقيت «فرادتها» أسيرة المجتمع وأعرافه وقيمه وسلوكياته، الأمر الذي لم يؤد إلى تغيير أو تعديل في النظرة إلى المرأة ودورها المجتمعي، ما أفقده التجربة الكثير من رونقها وريادتها وتأثيراتها المجتمعية.

إن بنية المجتمع الأبوي–البطريركي حالت – وتحول – دون ترسيخ نظرة إيجابية تجاه المرأة. فالمجتمع البطريركي يولّد مسلمات معرفية وانحيازات ثقافية وفكرية وسلوكية وعلاقات تسلطية قهرية تجعل ظاهرة مشاركة المرأة في الشأن العام، أو إدارته، أو الانخراط في الميدان السياسي – إذا حدثت – ظاهرة عابرة، إلى حد بعيد، وجزئية ومقطوعة عن سياق التطور التاريخي للمجتمع.

---

4. يراجع:
– أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**، بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ص 109 و140.
– حياة الريس: **جسد المرأة من سلطة الانس إلى سلطة الجان**، القاهرة، ط10، 1995، سيناء للنشر، الفصل الثاني والثالث.
5. روجيه غارودي وآخرون: **نقد مجتمع الذكور**، بيروت، الطبعة الأولى، 1982 دار الطليعة، ص 5–6 و13.

إضافة إلى ذلك، فإن التجربة التي خاضتها نظيرة جنبلاط لم تأتِ في سياق تطور ديمقراطي وسيادة مبدأ المشاركة الشعبية كقاعدة للحكم وتداول السلطة، أو كانت وليدة المؤسسات الحزبية السياسية بمفهومها الحديث، أو نتيجة لتطور اقتصادي وتغير في نمط الإنتاج وعلاقاته، ما وَسَمَ وضعية المجتمع الذكوري -الأبوي بالركود والتقليدية. في حين نجد، على سبيل المثال، أن اتساع مجالات الحركية المجتمعية التي نتجت من الثورة الصناعية في البلدان الغربية، أصابت بتأثيراتها مختلف البنيان الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، الأمر الذي ساهم في تطوير العقليات وتبديل السلوكيات وتغيير العديد من المفاهيم والعادات والتقاليد السائدة، سواء على المستوى الذهني والثقافي والتربوي أو على مستوى نمط الانتاج وعلاقاته، فانعكست هذه التحولات على موقع المرأة وحضورها المجتمعي.

إن لحظ التطور المجتمعي في المجتمعات الغربية الداعمة أو المولّدة لمشاركة المرأة في الميدان السياسي، خصوصاً، وتغيير النظرة إلى دورها، عموماً، لا يعنيان، في المقابل، عدم وجود أو بروز حالات استندت إلى الأطر التقليدية. لكن ظاهرة حضور المرأة في هذه البلدان، ومشاركتها تعمقت بالتأكيد، بنمو الثقافة الديمقراطية وتطور ممارساتها، الأمر الذي يدفع إلى الاستنتاج أنه من الصعب جداً أن تترسخ الحقوق السياسية وغير السياسية للمرأة، خارج الثقافة الديمقراطية وقنواتها المجتمعية. كما إن الممارسة الديمقراطية في المجتمع لا يمكنها أن تكون متكاملة وسليمة خارج مشاركة المرأة وحضورها في السياسة وفي غيرها من المجالات، مثلها في ذلك مثل الرجل. وفي غياب هذا المناخ الديمقراطي - ثقافة وممارسة -، فإن حضور المرأة في الميدان السياسي، كما في غيره، يبقى ثانوياً وشكلياً، وبالتالي لا يترك اثره وتأثيراته في بنية المجتمع وذهنية أفراده وسلوكياتهم.

من هنا، يمكن القول إن مجتمعنا الذكوري-البطريركي لم يزل مجتمعاً غير



ديمقراطي، بالرغم من مقولاته وتنظيراته وخطاباته، ما ساهم، ويساهم، في تعزيز هامشية حضور المرأة وتدنّي مشاركتها في العمل السياسي. لذلك، فإن تمايز تجربة نظيرة جنبلاط وفرادتها ضمن هذا الفضاء بقيا محاصريْن ومقيَّدَيْن، إلى حد بعيد، أنهما، بالمقابل، أشارا إلى أمرين:

الأمر الأول خاص بالمجتمع-الجماعة: لأن المجتمع، صغيراً أو كبيراً، وفي لحظات تاريخية معينة، يتعامى أو يتساهل عن بعض المسائل نتيجة لحاجة خاصة به. لهذا، فإن الفراغ الذي كان يمكن أن يحدث في كرسي الغرضية الجنبلاطية ولّد مسوغات القبول بزعامة الست نظيرة وسيادتها. الأمر الثاني خاص بالمرأة كامرأة: لأن تصدّر امرأة كرسي الزعامة أثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، عقم النظرة المجتمعية إلى المرأة وتخلّفها. فقد بينت التجربة أن زعامة المرأة ومشاركتها في إدارة الشأن العام لا تكونان بالضرورة اقل من زعامة الرجل ودوره، بل هما أحسن حالاً في بعض الأوقات. لهذا، فإن الأزمة ليست في المرأة وقدراتها وإمكاناتها بقدر ما هي في المجتمع وقيمه ومفاهيمه وأنماطه السلوكية.

## تقليدية صافية

تتلخص السمة الثانية في تقليدية التجربة وضعف تأثيراتها المجتمعية. فالست نظيرة لم تستطع أن تخرج من أتون شرنقة الزعامة التقليدية ومفهومها. لقد انصبّ همها الأول والأخير على كيفية المحافظة على إرث العائلة وغرضيتها. وكيف يمكنها أن توفّر لوريثها انتقال الزعامة بشكل طبيعي وهادئ. فرض هذا التوجه التزاماً شديداً بأعراف محددة ومراعاة دقيقة لصيغ عمل متوارثة، إلى حد بعيد، من دون أي تجديد أو تطوير. لذلك بقيت «زعيمة» ولم تتحول «قائدة». بما يعنيه المفهوم الأول من تقليدية واندراجه في صلب الانتماءات الأولية وعصبياتها، وما يتضمّنه الثاني من تخطيط وتطوير برامج محددة واندراجه في صلب الحداثة ومفاهيمها.

لقد انحصرت النظرة إلى سيّدة المختارة ضمن نظرتين متناقضتين قاعدتهما الانقسام التقليدي في المتحد الدرزي، وسقفهما السياسي حدود الغرضيتين الجنبلاطية-الإرسلانية. لهذا غلب على قراءة التجربة العاطفة الإيجابية والتأييد الكامل عند الجنبلاطيين والموقف السلبي والنقد «الغرضي» عند الإرسلانيين. فانحصار النظرة في إطار التقليد السياسي جعل المؤيد يغالي في التمجيد، والمخاصم يغالي في التبخيس. وفي الحالتين، كان الموقف منها محكوماً بأفكار مسبقة وبإسقاطات حددها الهوى السياسي والميل الغرضي والانتماء التقليدي في الطائفة الدرزية. بل يمكن القول إنه قلما نُظر إلى نظيرة جنبلاط خارج حدود الغرضية الجنبلاطية، أو خارج كونها امرأة درزية تتصدر زعامة تقليدية في الوسط الدرزي. وقد كرست الست نظيرة هذه النظرة، ولم يكن دورها في الشأن العام بعيداً عن هذا المنحى.

إن الظروف المجتمعية والاقتصادية والثقافية والسياسية حكمت على سيدة القصر البقاء حبيسة هذه النظرة الضيقة، كونها لم تكن قادرة على أن تجد لها موقعاً متمايزاً ومختلفاً. فقوتها مستمدة من مدى تعبيرها عن بيئتها وخصائص هذه البيئة. ويبدو أن الفرنسيين، الذين ساندوها ووقفوا إلى صفها ساهموا، عن سابق تصور وتصميم، في ترسيخ هذه النظرة رغم كل ادعاءاتهم في التحديث السياسي والتطوير المجتمعي. لأن الفرنسيين لم يرغبوا في تحطيم السائد بتقاليده وعاداته وعلاقاته كي لا يصيبهم رذاذ هذا التغيير وآثاره، لذلك، عمدوا – كسلطة – إلى توفير كل الخدمات التي تكفل استمرارية الزعامة التقليدية وتساعدها على الوقوف بوجه الزعماء الآخرين، في غياب الرؤية السياسية لبناء الوطن وتحقيق التفاعل المجتمعي ودفع عجلة التنمية بأبعادها المتعددة في ربوعه.

تتقاطع التجربة هنا مع غيرها من تجارب الزعماء التقليديين الآخرين في لبنان. فهؤلاء الزعماء لم يشذّوا عن التقليد المتبع في اللعبة السياسية في البلد. من هنا، بقيت هذه الزعامات محصورة في افقها وتطلعاتها، ومُفصّلة على مساحة



مناطقها أو طوائفها أو مذاهبها. وتدخل هذه الزعامات في قضايا الشأن العام وهمومه من النافذة الضيقة التي تراعي مصالحها وتحمي زعامتها في حدودها الضيقة والمحددة تقليدياً. من هذه الزاوية، «تساوى» هؤلاء رغم اختلاف المشارب والخلفيات في البقاع والجنوب والشمال والجبل والعاصمة بيروت... ولم تختلف نظيرة جنبلاط عنهم، مبدئياً، الا في كونها امرأة تتصدر زعامة تقليدية. وإذا كانت هذه السمة التقليدية تخترق غالبية الزعماء في أكثر من منطقة في لبنان، فإنها تبيّن، في المقابل، مدى ركود الزعامة التقليدية، من جهة، الأمر الذي جعلها خارج روح العصر، ومدى محدودية دورها في تطوير مجتمعها وتجديده، من جهة أخرى، الأمر الذي يكرّسها نمطاً اقطاعياً بامتياز.

إن تقليدية الست نظيرة تتجسد في مختلف مفاصل تجربتها. غير أنه يمكن الإشارة في هذا المجال إلى مسألتين: الأولى تعارضها مع كمال، من جهة، ودورها غير الملحوظ في النشاطات النسوية، من جهة أخرى. يبين الخلاف المزيد من تقليديتها، وتؤشر محدودية الدور الى عدم مواكبتها للتطور والتحولات المجتمعية في مرحلتها. والمسألتان تدلان على حذرها الكامل لعدم خدش التقليد أو المساهمة في خلخلته أو تفكيك منظوماته الفكرية والسلوكية:

– في مسألة التعارض مع كمال، لاحظنا (راجع الفصل السادس) مدى السلبية تجاه الخطوات التي اتخذها حين بدأ الزعيم الجديد يهز الركود التقليدي السائد، ويتطاول على المسكوت عنه، بشكل أو بآخر، ليصل إلى تحديه باتجاه السعي لتجاوزه وتغييره. لذلك عارضت ما اقترحه وما اقدم عليه لإحداث تحولات في بنية الزعامة الجنبلاطية ومسارها. فالعمل لتأسيس حزب سياسي اختراق للمألوف، والمضمون التقدمي للميدان الاجتماعي تنكُّر لموقع الزعامة وهيبتها، ومعارضة السلطة معاكسة للتيار وتضييع للمستقبل، والتواصل مع الناس يهدد الزعامة وموقعها... الأمر الذي وسم التجربة بأفق تقليدي صرف.

– في مسألة الأثر التجديدي، يُلاحظ غياب اسم نظيرة جنبلاط عن الحركة

النسائية ونشاطات الناشطين في الحقل العام لانتزاع حقوق المرأة. فرغم أهمية موقع سيدة القصر واتساع نفوذها وقوة حضورها، ورغم دورها في «حقل الجمهورية اللبنانية» وما لها من أياد بيضاء[6] و«أياد زكية» في السياسة اللبنانية، ورغم ما احتلته من موقع رفيع عند سائر اللبنانيين[7]، فإنه، في المقابل، لم يكن لها اي تأثير أو دور أو حضور او فاعلية في النشاطات أو الدعوات أو التحركات التي طالبت بحقوق المرأة السياسية وغير السياسية، والساعية لتعزيز موقعها في المجتمع، سواء قبل استلامها الزعامة أو بعدما ترسخت هذه الزعامة وتثبتت.

تجدر الاشارة إلى أن بدايات النشاط النسوي لإقرار حقوق المرأة ترافقت مع مرحلة نظيرة جنبلاط. فقبيل استلامها الزعامة، كانت النشاطات النسائية بدأت تتبلور بشكل متقدم على المراحل السابقة. فقد شاركت، مثلاً، مجموعة من النساء ضمّت ابتهاج قدورة، عنبرة سلام، ليلى بيهم، عادلة بيهم وأمينة حمزة، في تقديم عريضة إلى «لجنة كينغ-كرين الاميركية» (1919) التي وصلت إلى المنطقة لاستفتاء آراء اهالي الولايات العربية التي كانت خاضعة للعثمانيين ومعرفة رغباتهم، طالبت فيها بالاستقلال ورفض «وعد بلفور»[8].

كما أنه في بداية عشرينات القرن الماضي، بدأت الأفكار التحديثية تجاه المرأة والداعية إلى منحها حق الانتخاب تتبلور في صيغ دستورية إلى حد ما. ولعل بواكير هذه المحاولات وبذورها الأولى هي تلك التي جرت عندما ناقش المؤتمر السوري في 25 نيسان 1920 المشروع الأساسي للدولة الجديدة، وبحث فكرة ادخال نص في الدستور المقترح يمنح المرأة حق الانتخاب، اضافة الى دراسته فكرة توظيف المرأة. ورغم عدم اقرار هذه الحقوق، غير أن المؤتمر لم ينكرها.

6. حنا أبي راشد: **حوران الدامية**، م. س، ص550.
7. كرم البستاني، **أميرات لبنان**، م. س، ص10.
8. د. زاهية قدورة، **تاريخ العرب الحديث**، بيروت، 1971، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، ص582.



فقد وافق المؤتمرون على رأي بعض «العقلاء» بينهم، الذين اعتبروا ان مثل هذه المطالب غير ممكنة في الظروف القائمة، طرحاً أو تنفيذاً، والسبب في ذلك يعود، برأي «العقلاء»، إلى أن الرجعيين والناقمين على العهد الاستقلالي الذين يمكن أن يتخذوا من هذه الأفكار ذريعة للتشويش عليهم[9]. ويبدو أن هذه المقولة لم تزل مستوطنة أفكار الكثير من «التحديثيين» ومعشّشة في ذهنيتهم ونمط عملهم السياسي. لذلك بقي الخطاب «التحديثي» كلاماً مناسباتياً في غالبه، ومؤجل التنفيذ إلى اجل غير مسمى.

في السياق ذاته، ذكرت مجلة «المرأة الجديدة» مقالاً صحافياً في الأول من نيسان من العام 1932 - لعلّ المقال مستوحى من كذبة الأول من نيسان - ابتدعته مخيّلة أحد الصحافيين الذي تصوّر فيه وقائع جلسة نيابية لبنانية تبحث قضية حق المرأة السياسي. وبعد عام واحد فقط، تُصادف الظروف بأن يبحث المجلس النيابي القضية فعلاً، بحيث اقترح الشيخ يوسف الخازن أن لا يحصر القانون حق الانتخاب بالذكور فقط، وسانده الأمير فؤاد ارسلان[10]. ورغم سقوط الاقتراح، فإن الفكرة بدأت تختمر في الذهنية السياسية اللبنانية.

ان مثل هذه الوقائع التي بدأت بمعالجة قضايا المرأة في المجتمع، والمطالبة بحقوقها، كانت غائبة عن اهتمامات الست نظيرة غياباً تاماً، ولا تبيّن لنا المراجع والمعطيات المتوافرة ما يؤكد حضورها في دعم قضايا المرأة او تبنيها مباشرة او غير مباشرة. واذا كانت زعامة سيدة المختارة، في تلك الفترة، لم تزل في بداياتها الأولى، وبالتالي لم يكن لها دورٌ أو مساهمة في ترسيخ هذا الاتجاه التحديثي، فإن مسار التجربة يبيّن استمرار غيابها عن مثل هذه الاهتمامات رغم نمو سلطتها وتعاظم قوتها السياسية. فالعمل لمراجعة النصوص الدستورية بعد صدور

9. د. حنيفة الخطيب: م. س، ص 41-44.
10. م. ن، ص 44-45.

دستور الجمهورية الأولى في العام 1926، ونشاط الشخصيات النسائية المتنورة في المجتمع منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، وضغط الحركة النسائية اللبنانية والجمعيات النسائية، عبر التحركات والإضرابات والنشاطات والعرائض للاعتراف بحقوق المرأة السياسية وغير السياسية، كانت متوهجة ومعممة في أوج زعامة الست نظيرة. ففي ثلاثينيات القرن الماضي، ترسخت الزعامة وغدت سيدة المختارة من ابرز الاقطاب السياسيين في المتحد الدرزي وفي الشوف، كما في الدولة الناشئة، وكانت لها حصتها في الندوة البرلمانية. ورغم ذلك، فإن توجهات الست لم تكن ضمن هذا المضمار، الأمر الذي ساعد على انغلاق التجربة وإبقائها في حدودها الضيقة وأطرها التقليدية.

من هنا، تطرح تجربة نظيرة جنبلاط، وغيرها من التجارب السياسية التقليدية أو من التجارب النسائية في الميدان السياسي، إشكالية التقليد والتحديث في المجتمع، بشكل عام، ومن زاوية مشاركة المرأة في الشأن العام، بشكل خاص، وحدود هذه المشاركة وأبعادها المجتمعية، بشكل أخص. وبالتالي يطرح اثر هذه المشاركة في تطوير النظرة للمرأة، وتبديل مفهوم السياسة بحد ذاته.

إن مضمون التجربة ومسارها يعبر عن ثقل القيم السائدة وشدة وطأتها على المجتمع وأفراده: فقوة الإيحاءات المعرفية التي يتشرّبها الشخص عبر التنشئة الاجتماعية قد تصادر ارادته وتجعله أسير المألوف وعاملاً على ديمومته، الأمر الذي يجعل مشاركة المرأة في الشأن العام، في مثل هذا المناخ، مشاركة عابرة، وحضورها في صدارة القوم غير مؤثر، لاسيما عندما يكون الشخص مستسلماً لهذا المنطق ويسير على هدايته بدقة متناهية. كما يعكس المفهوم التقليدي للدور الاجتماعي للشخص وللممارسة السياسية ويرسّخه، بحيث تصبح السياسة، مثلاً، مجالاً ذكورياً بامتياز وتوزّع الأدوار تقليدياً بحسب الجنس. فالدور الإنتاجي مرتبط بالرجل بينما المجال الخاص هو من نصيب النساء. وإذا كانت الظروف المجتمعية والأوضاع الاقتصادية



والاجتماعية والثقافية غير ناضجة بالقدر الكافي في مرحلة نظيرة جنبلاط، فإن الأزمة تتعمق في حال استمرار هذه القيم واستقرارها في البنية المجتمعية وذهنية أبنائها.

وتتأتى خطورة هذا التقسيم التقليدي أيضاً من استمراريته بشكل أو بآخر. فبالرغم من انقضاء ما يزيد على نصف قرن على رحيل نظيرة جنبلاط، وبالرغم من تطور وضع المرأة في مجتمعنا قياساً لما كانت عليه في النصف الأول من القرن العشرين، فإن وضعها في الميدان السياسي لم يزل ضعيفاً. فقد اقتحمت المرأة مساحات العمل، لكنها لم تُرسخ حضورها في الميدان السياسي[11]. وإذا كانت التجمعات والهيئات والمؤسسات النسائية قد حققت العديد من الإنجازات في موضوع مشاركة المرأة في إدارة الشأن العام، غير أن الفكرة تبدو غير متجذرة، بالقدر الكافي، في الذهنية المجتمعية، ولم تزل الفجوة عميقة بين الدعوة والممارسة. لقد اختُزلت الحقوق السياسية للمرأة في الكثير من الأوقات، بحق التصويت والمشاركة في العملية الانتخابية، بعيداً عن نقاش مضمون هذه المشاركة وطبيعتها والعوامل المؤثرة فيها. ورغم أهمية الإنجاز الذي تحقق لبنانياً في هذا المجال، غير أن تدنّي مشاركة المرأة في القرار، وضعف تمثيلها السياسي، يأخذان في مجتمعنا أبعاداً هامة، كونهما يؤشران الى مسار التنمية السياسية ومستوى التقدم المجتمعي وطبيعة

11. يراجع على سبيل المثال وعلى المستوى اللبناني ما يلي:
- مؤسسة رينه معوض وآخرون: **البرنامج الوطني لدعم مشاركة المرأة في الحياة السياسية**، 1997.
- مؤسسة رينه معوض وآخرون: **مشاركة المرأة في السياسة**، الدليل العملي 1997.
- المجلس النسائي اللبناني وآخرون: **تفعيل دور المرأة في القرار السياسي**، بيروت، 1992، منشورات مؤسسة فريدريش إيبرت.
- مؤسسة رينه معوض وآخرون: **البرنامج الوطني لدعم مشاركة المرأة في الحياة السياسية**، دليل المعلمات والمعلمين.

السلطة بحد ذاتها[12].

من هنا، يمكن القول إنّ مشاكل المرأة عموماً هي انعكاس لمشاكل المجتمع. وفي لبنان، كما في المجتمع العربي، تنبع هذه المشاكل في جزء أساسي منها من طبيعة التقاليد والعادات المفروضة كقيود على حركة المرأة، وتداخل هذه العادات والتقاليد بالمعتقدات والموروثات الثقافية والدينية[13]. لذلك، فإن تصدي المرأة والهيئات والمؤسسات المدنية والأهلية والاجتماعية والسياسية للممارسات المفروضة على المرأة والقيود المكبلة لتقدمها تساهم في تعزيز حضورها، من جهة، وتضعها، من جهة ثانية، في صلب القوى البشرية المحركة للأوضاع المجتمعية التي تدفع بالمجتمع إلى حركة تطوير ذاتية مستمرة. بينما الالتزام الأعمى بقيم المجتمع وموروثاته التقليدية والمراعاة المطلقة للنظرة السلبية تجاه المرأة لا يصبّان، على المدى البعيد، في سياق تطور قضايا المرأة وتحسين موقعها المجتمعي[14] وبالتالي تقدم المجتمع وتطويره.

إن تجربة نظيرة جنبلاط، رغم أهميتها، تكاد تؤكد صعوبة حصول أي تحوّل

---

12. يراجع على سبيل المثال لا الحصر:
- مونيك بيتر: **المرأة عبر التاريخ، تطور الوضع النسوي من بداية الحضارة إلى يومنا هذا**، ترجمة هنرييت عبودي، بيروت، دار الطليعة، الفصل الثاني من القسم الأول والفصل السادس من القسم الثالث.
- د. رقية المصدق: **المرأة والسياسة، التمثيل السياسي في المغرب**، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1990، دار توبقال.
- حياة الريس: **جسد المرأة من سلطة الأنس إلى سلطة الجان**، م. س، الفصل الأول.
- منظمة العمل الدولية وآخرون: **المرأة العربية في عالم العمل**، نظرة عامة، بيروت.
- د. خليل أحمد خليل: **المرأة العربية وقضايا التغيير، بحث اجتماعي في تاريخ القهر النسائي**، بيروت، دار الطليعة.

13. د. زهير حطب ود. عباس مكي: **الطاقات النسائية العربية**، بيروت، الطبعة الأولى 1987، معهد الإنماء العربي، ص39.

14. م. ن.



في البنية المجتمعية في إطار خط «محافظ»، لأن النزعة المحافظة ترفض أساساً، ومن حيث المبدأ، كل تحوّل جوهري في النظام القائم وعلاقاته. فلا يفيدنا، في مثل هذه الوضعية، أن نستبدل شخصاً يرتدي «بنطالاً» بآخر يرتدي «تنورة» لأداء الوظيفة عينها، طالما أن الهدف كان، ولم يزل، وإلى حد بعيد، خدمةَ منظومة القيم والتقاليد[15]، وعلاقات الانتاج السائدة والمحافظة عليها من دون أي تطوير.

---

15. روجيه غارودي وآخرون: م. س، ص131.

# لائحة بالمراجع(*)

## ● أولاً: المراجع باللغة العربية

- يحيى، أنيس: **الشيخ بشير جنبلاط وتحقيق وصيته (1775-1825)**، بيروت، 2001، دار الفنون.
- تيموفييف، إيغور: **كمال جنبلاط الرجل والأسطورة**، ترجمة خيري الضامن، بيروت، ط.1، تشرين الأول 2000، دار النهار.
- **الواقع الدرزي وحتمية التطور: مجموعة محاضرات**، بيروت، 20 آذار 1962، منشورات رابطة العمل الاجتماعي.
- نصر الله، املي: **نساء رائدات من الشرق ومن الغرب**، الجزء الأول، بيروت، ط. 1، 1986، مؤسسة نوفل.
- الخوري، الشيخ بشارة خليل: **حقائق لبنانية: من 10 آب 1890 إلى 20 أيلول 1943**، الجزء الأول، منشورات أوراق لبنانية.
- بولس قرألي (مدير المجلة البطريركية):
- **علي باشا جنبلاط والي حلب (1605-1611)**، بيروت، 1939، منشورات دار المكشوف.

---

* تضم اللائحة ما ورد في الحواشي فقط.

- **فتوحات إبراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية**، نقلاً عن تقارير **كتافاكو، قنصل النمسا في عكا وصيدا (1831–1871)**، عرّبها وعلّق عليها الخوري بولس قرألي، 1937، مطبعة حريصا.
- كرم، جورج: **قضية لبنان**، بيروت، 1985.
- أبو مصلح، حافظ: **واقع الدروز ومعتقداتهم، خلواتهم، أدباؤهم، وتاريخ دير القمر**، بيروت، ط. 2، المكتبة الحديثة.
- البعيني، د. حسين أمين: **دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي (1920–1943)، دراسة في تاريخهم السياسي**، بيروت، ط. 1، آب 1993، المركز العربي للأبحاث والتوثيق.
- غضبان أبو شقرا، حسين (الراوي)، يوسف خطار أبو شقرا (المؤلف): **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**.
- الحداد، حكمت ألبير: **لبنان الكبير (1918–1920)**، بيروت، 1987، دار مارون عبود.
- خليل، د. خليل أحمد:
- **كمال جنبلاط، ثورة الأمير الحديث**، بيروت، ط. 1، 1984، دار المطبوعات الشرقية.
- **نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية (نموذج لبنان)**، بيروت، ط. 1، دار الحداثة، 1979.
- **المرأة العربية وقضايا التغيير، بحث اجتماعي في تاريخ القهر النسائي**، بيروت، دار الطليعة.
- الحصري، ساطع: **ميسلون**، بيروت.
- تقي الدين، سعيد: **المجموعة الكاملة (المقالات السياسية)**، الجزء 4، بيروت، دار النهار.
- هشي، د. سليم حسن:



- **علي باشا جنبلاط**: ط. 1، 1986، بيروت، دار لحد خاطر.
- **يوميات لبناني أيام المتصرفية**، بيروت، 1973.
- تقي الدين، سليمان: **المسألة الطائفية في لبنان، الجذور والتطور التاريخي**، بيروت، دار ابن خلدون.
- حديفة، عارف وسيف الدين القنطار: **شكيب وهّاب (1890–1980)**، سيرة كفاح، بلا طبعة، بلا دار.
- أبو صالح، د. عباس ود. سامي مكارم: **تاريخ الموحدين الدروز السياسي والعسكري في المشرق العربي**، بيروت، 1980، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء.
- نوار، عبد العزيز: **الأزمة اللبنانية**، ط. 1، 1978، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية.
- الشهال، عدنان: **الزعيمة والقاضي، رسائل نظيرة جنبلاط والقاضي جميل الشهال**، بيروت، ط. 1، تموز 2002، دار الريس.
- الأطرش، فؤاد: **الدروز: مؤامرات وتاريخ وحقائق**، بيروت، 1974.
- اشتي، د. فارس: **الحزب التقدمي الاشتراكي ودوره في السياسة اللبنانية (1949–1975)**، المجلد الأول، تكوين الحزب، المختارة (لبنان)، ط. 1، 1989، المركز الوطني للمعلومات والدراسات، الدار التقدمية.
- صليبي، كمال: **تاريخ لبنان الحديث**، بيروت، ط. 3 1972، دار النهار.
- أبو مصلح، كمال:
- **كمال جنبلاط (1917–1977)**، بيروت، ط. 2، 1984، المكتبة الحديثة.
- **كمال جنبلاط الإنسان**، المختارة، ط. 3، آذار 1987، الدار التقدمية.
- الباشا، محمد خليل: **معجم أعلام الدروز**، المجلد الأول (أ – ر)، المختارة، لبنان، 1990، المركز الوطني للمعلومات والدراسات، الدار التقدمية.
- ضاهر، د. مسعود: **الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية (1697–**

**1861)**، بيروت، ط. 3، معهد الإنماء العربي.

- نويهض، ناديا الجردي: **نساء من بلادي**، بيروت، ط، 1، 1986، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- رزق، هدى: **لبنان بين الوحدة والانفصال، هزائم الانتفاضات (1919-1927)**، بيروت، مكتبة بيسان.
- كوثراني، د. وجيه: **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي من المتصرفية العثمانية إلى دولة لبنان الكبير**، بيروت، 1986، منشورات بحسون الثقافية.
- سويد، د. ياسين: **التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، الجزء الأول، الأمارة المعنية (1516-1697)** بيروت، 1980، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- يزبك، يوسف إبراهيم: **أوراق لبنانية**، المجلدات الأوّل والثاني والثالث، بيروت، 1983، دار الرائد اللبناني.
- الحكيم، يوسف:
- **سورية في العهد العثماني**، بيروت، 1966، دار النهار.
- **سورية والانتداب الفرنسي**، بيروت، دار النهار.
- مزهر، يوسف: **تاريخ لبنان العام**، بلا طبعة، بلا دار.
- حطب، د. زهير ود. عباس مكي: **الطاقات النسائية العربية**، بيروت، الطبعة الأولى، 1987، معهد الإنماء العربي.
- بيتر، مونيك: **المرأة عبر التاريخ، تطور الوضع النسوي من بداية الحضارة إلى يومنا هذا**، ترجمة هنرييت عبودي، بيروت، دار الطليعة.
- اشتي، د. فارس: **الحزب التقدمي الاشتراكي**، المجلدان الثاني والثالث، بيروت، الدار التقدمية.
- المجلس النسائي اللبناني: **تفعيل دور المرأة في القرار السياسي**، ابحاث المؤتمر



الذي عقد في بيروت بتاريخ 11-12 تشرين الثاني 1992، منشورات مؤسسة فريدريش إيبرت.

- الصباغ، سليمان علي: **مذكرات عربي في جيش الانتداب الفرنسي**، مراجعة أحمد الجندي، دمشق، 1978.
- أفرفاز، علي: **صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني**، بيروت، الطبعة الأولى، 1996، دار الطليعة.
- رويتهام، شيلا: **الثورة وتحرر المرأة**، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، الطبعة الثانية، 1979، دار الطليعة.
- الغزالي، أبو حامد: **إحياء علوم الدين**، بيروت، طليعة 1980، دار الفكر.
- الريس، حياة: **جسد المرأة من سلطة الأنس إلى سلطة الجان**، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995، سينا للنشر.
- منظمة العمل الدولية وآخرون: **المرأة العربية في عالم العمل**.
- غارودي، روجيه وآخرون: **نقد مجتمع الذكور**، بيروت، ترجمة هنرييت عبودي، الطبعة الأولى، 1982، دار الطليعة.
- قدورة، د. زاهية: **تاريخ العرب الحديث**، بيروت، الطبعة الثانية، 1971، دار النهضة العربية.
- **البرنامج الوطني لدعم مشاركة المرأة في الحياة السياسية**، بيروت، 1997.
- **مشاركة المرأة، الدليل العملي**، بيروت، 1997.
- **البرنامج الوطني لدعم مشاركة المرأة في الحياة السياسية**، دليل المعلمات والمعلمين، بيروت.
- المصدق، د. رقية: **المرأة والسياسة، التمثيل السياسي في المغرب**، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990، منشورات دار تويقال.
- وطفه، د. علي أسعد: **بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي**، بيروت، 1999، مركز دراسات الوحدة العربية.

- إسماعيل، محمد عماد الدين وآخرون: **كيف نربي أطفالنا، التنشئة الاجتماعية للطفل في الأسرة العربية**، القاهرة، 1974، دار النهضة العربية.
- رضا، محمد جواد (تحرير): **الطفل والمجتمع دراسات في التنشئة الاجتماعية للأطفال**، الكويت، 1993، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة.
- بورديو، بيير وجان كلود باسيرون: **معاودة الإنتاج**، ترجمة نخلة وهبة، البحرين، 1993، وزارة التربية والتعليم في البحرين.
- أحمد، د. حمدي علي: **مقدمة في علم إجتماع التربية**، الإسكندرية، 1995، دار المعرفة الجامعية.
- جنبلاط، كمال:
- **أدب الحياة**، بيروت، الطبعة الثانية، 1979، منشورات الحزب التقدمي الإشتراكي.
- **في الممارسة السياسية، مقدمة ربع قرن من النضال**، 1987، الدار التقدمية.
- **حقيقة الثورة اللبنانية**، 1987، الدار التقدمية.
- **أحاديث عن الحرية**، 1987، الدار التقدمية.
- **نحو اشتراكية اكثر إنسانية**، 1987، الدار التقدمية.
- **الديموقراطية الجديدة**، 1987، الدار التقدمية.
- **ثورة في عالم الإنسان**، 1987، الدار التقدمية.
- **هذه وصيتي**، ط. 1، حزيران 1978، مؤسسة الوطن العربي.
- شرابي، د. هشام: **النظام الأبوي وإشكالية تخلّف المجتمع العربي**، بيروت، الطبعة الثانية، 1993، مركز دراسات الوحدة العربية أو الطبعة الرابعة 2000، دار نلسن.
- الخطيب، د. حنيفة: **تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان وارتباطها بالعالم العربي (1800-1975)**، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، دار الحداثة.
- أمين، قاسم:





- **تحرير المرأة**، القاهرة، 1899.
- **الجديدة**، القاهرة، 1899.
- المرنيسي، فاطمة: **الحريم السياسي، النبي والنساء**، ترجمة عبد الهادي عباس، دمشق، الطبعة الأولى، 1990، دار الحصاد.
- بركات، د. حليم: **المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي**، بيروت، الطبعة الثالثة، 1986، مركز دراسات الوحدة العربية.
- شرابي، هشام: **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**، بيروت، الدار المتحدة للنشر، أو الطبعة الرابعة، بيروت، 1991، دار الطليعة.
- **المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية** (ندوة فكرية)، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993، مركز دراسات الوحدة العربية.
- البستاني، كرم: **أميرات لبنان**، بيروت، 1950، مكتبة صادر.
- بيهم، محمد جميل: **المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية**، بيروت، الطبعة الأولى 1980، دار الطليعة.
- شوفالييه، دومينيك: **مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا**، ترجمة منى عبدالله عاقوري، بيروت، 1994، دار النهار.
- مخزوم، د. محمد: **أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في الشرق العربي في عصر النهضة**، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، معهد الإنماء العربي.
- حريق، إيليا: **التحول السياسي في تاريخ لبنان الحديث**، بيروت، 1982، الأهلية للنشر والتوزيع.
- كوثراني، د. وجيه: **السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولايات العثمانية في بلاد الشام**، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، مركز دراسات الوحدة العربية.
- رستم، أسد: **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، خمسة أجزاء، بيروت، المطبعة الأميركية.

- ضاهر، د. مسعود: **تاريخ لبنان الإجتماعي (1914-1926)**، بيروت، الطبعة الثانية، 1984، دار المطبوعات الشرقية.
- منقوش، ثريا: **سيف بن ذي يزن، بين الحقيقة والأسطورة والأمل**.
- غانم، محمد عبده: **سيف بن ذي يزن**، بيروت، دار العلم للملايين.
- الرياشي، إسكندر: **قبل وبعد 1918 إلى 1941**.
- أبي راشد، حنا: **حوران الدامية**، بيروت، الطبعة الثانية، 1961.
- بيضون، أحمد: **الصراع على تاريخ لبنان، أو الهوية والزمن في اعمال مؤرخينا المعاصرين**، بيروت، 1989، منشورات الجامعة اللبنانية.
- طليع، أمين: **أصل الموحدين الدروز وأصولهم**، بيروت، 1961.
- شهاب، حيدر: **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**، تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، بيروت 1933.
- نصر، سليم وكلود دوبار: **الطبقات الإجتماعية في لبنا ن، مقاربة سوسيولوجية تطبيقية**، بيروت، الطبعة الأولى، 1982، مؤسسة الأبحاث العربية.
- شرف، جان: **الأيديولوجيا المجتمعة، مدخل إلى تاريخ لبنان الإجتماعي**، بيروت، 1996، منشورات الجامعة اللبنانية.
- عبد الملك، عبد المجيد: **تاريخ الإقطاع في لبنان، 758-1864م، إقطاعية الجرد**، دراسة نموذجية، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، المركز العربي للأبحاث والتوثيق.
- صعيبي، اديب: **الأعمال الشعرية الكاملة**، بلا طبعة، بلا دار نشر.
- مطران، خليل: **ديوان الخليل**، الجزء الأول، بيروت، 1975، دار مارون عبود.
- مطران، خليل: **ديوان الخليل**، الجزء الثاني، بيروت، دار مارون عبود.
- السعداوي، د. نوال: **دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي**، الطبعة الثانية، 1990، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.




## ● ثانياً: الكتب الأجنبية


- Hichi Sélim Hassan, **La famille des Djoumblatt du VII[e] siècle à nos jours**, Beyrouth, Liban, 1986.
- Clément-Grandcourt, Abel (Général), **Au Levant: Histoires de brigands, histoires vraies**, Éditions Victor Attinger, Paris,1936.
- Fargeallah, Maud, **Visages d'une époque**, Cariscript, Paris, 1989.


## ● ثالثاً: الدوريات


*** البشير:**

تاريخ 12 ايلول 1925. 7 تشرين ثاني 1925. 7 كانون الثاني 1926. 8 تموز 1926. 10 تموز 1926. 13 تموز 1926. 8 ايار 1947.

*** لسان الحال:**

تاريخ 3 تشرين الثاني 1919. 27 كانون الأول 1919. 3 شباط 1920. 7 كانون الثاني 1920. 12 كانون الثاني 1920. 1 آب 1921. 3 آب 1921. 3 آب 1921. 5 آب 1921. 11 آب 1921. 12 آب 1921. 6 تشرين الاول 1921. 2 أيلول 1926. 3 تشرين الاول 1932.

*** الخدر:**

تاريخ تموز وآب 1923 السنة الخامسة. نيسان 1925 الجزء التاسع. تموز وآب 1924 الجزآن 1 و2. ايار 1925 الجزء العاشر.

*** الصفاء:**

تاريخ 12 آب 1921. 15 آب 1921. 16 ايلول 1921. 30 ايلول 1921. 28 تشرين الاول 1921. 13 ايار 1921. 1 كانون الاول 1922. 17 تشرين الثاني 1922. 17 آذار 1922. 3 آذار 1922. 7 نيسان 1922. 2 حزيران 1922. 18 آب 1922. 17 تشرين الثاني 1922. 9 شباط 1923. 19 كانون الثاني 1923.

3 تموز 1925.

*** المعرض:**

8 تموز 1927

*** الميثاق:**

العدد الثالث، المجلد الأول، آب 2002.

*** حريات:**

العدد 10، 1998، تصدر عن مؤسسة رينه معوض.

*** قضايا المرأة:**

تاريخ 8 آذار 1977.

*** الدنيا:**

تاريخ 6 ايلول 1946.

*** الرؤية:**

تاريخ كانون الأول 1991.

*** الأجيال:**

العدد 8 1951.

*** النهار:**

تاريخ 28 تشرين الاول 1943. 5 أيلول 1950. 20 آذار 1951. 28 آذار 1951. 29 آذار 1951. 30 آذار 1951. 28 ايار 1951. 1 نيسان 1951. 3 نيسان 1951. 28 نيسان 1987. 2 تشرين الثاني 2000. 19 شباط 2001. 7 آب 2001. 20 ايار 1996.

*** السفير:**

تاريخ 20 نيسان 1987. 14 تموز 2003.

*** الفكر العربي:**

عدد 24، السنة الثالثة 1981.







*** الجبل**

تاريخ 7 نيسان 1943. 5 تموز 1946.


## ● رابعاً: المقابلات الشخصية


1. **السيدة نازك العابد أبو علوان**: الخميس 13 حزيران 2002، المختارة، الشوف.
2. **مجموعة من النساء** (بدون أسماء): الجمعة 10 تشرين الأول 2002، المختارة، الشوف.
3. **السيدة نايفة شمس العيد**: الاثنين 28 تشرين الأول 2002، المصيطبة، بيروت.
4. **الدكتورة مفيدة العابد**: الجمعة 5 تموز 2002، الاونيسكو، بيروت.
5. **الأستاذ فوزي زين الدين**، الجمعة 4 تشرين الأول 2002، بطمة، الشوف.
6. **نجيب بك شمس**: الأحد 6 تشرين الأول 2002، حاصبيا، الجنوب.
7. **السيد رامز أبي صعب**: الخميس 24 تشرين الأول 2002، القنطاري، بيروت.
8. **الأستاذ وديع الصافي**: الثلاثاء 25 شباط 2003، بيروت.
9. **الشيخ نواف يوسف أبو علي**: السبت 28 حزيران 2003، مرستي، الشوف.
10. **الشيخ حسن الديسي**: الجمعة 1 آب 2003، مرستي، الشوف.
11. **السيد فؤاد ميلاد رزق الله**: السبت 9 آب 2003، بولونيا، المتن.
12. **الحاج إبراهيم محمد عثمان عبدالله**: الاثنين 22 تموز 2002، شحيم، الشوف.
13. **الحاج شعبان محمد قوبر**: الاثنين 22 تموز 2002، سبلين، الشوف.
14. **الحاج حسن درويش يونس**: السبت 2 تشرين الثاني 2002، سبلين، الشوف.

15. **فؤاد ملحم خطار:** الخميس 12 أيلول 2002، بقعاتا، الشوف.
16. **الأستاذ عدنان الشهال:** الاثنين 4 آب 2003، عين المريسة، بيروت.
17. **الشيخ حامد حسين أبو خزام:** الثلاثاء 19 تشرين الثاني 2002، كفرحيم، الشوف.
18. **مالك كامل بك جنبلاط:** الثلاثاء 2 أيلول 2003، البرامية، صيدا.
19. **د. يوسف معوض:** الأحد 10 آب 2003، بولونيا، المتن.

تميّز تصدّر الست نظيرة جنبلاط (1890-1951) الزعامة بعد مقتل زوجها فؤاد جنبلاط سنة 1921 بالمحافظة الصارمة على تقاليد الجبل وطائفة الموحدين الدروز من جهة، وباختراقها الموروث الثقافي في نظرته للمرأة ودورها الاجتماعي، من جهة أخرى. من هنا كانت قيادتها السياسية لقصر المختارة نتيجة لعوامل ظرفية وشخصية وعائلية وسياسية.

مرت زعامة الست نظيرة جنبلاط بمرحلتين مفصليتين في تاريخنا الحديث: الأولى رافقت قيام دولة لبنان الكبير وفرض الانتداب وثورة سلطان باشا، والثانية واكبت العقد الأول من عهد الاستقلال ودولته الناشئة، الأمر الذي يجعل التجربة وارتداداتها تخترق اسوار الانقسام التقليدي والذهنية التي حددت الموقف من سيدة قصر المختارة في طائفة الموحدين الدروز.

من هنا يحاول الكتاب تقديم مراجعة نقدية لتجربة الست نظيرة جنبلاط السياسية، التي استمرت ثماني وعشرين سنة (1923-1951)، على قاعدة الركائز التي استندت إليها ومواصفاتها وطريقة عملها وتأثيراتها على مستوى العائلة والطائفة والوطن، ومدى تمايز "الزعامة المؤنثة" وانعكاساتها على النظرة للمرأة ومشاركتها في الشأن العام في مجتمع محافظ بطبيعته.

**شوكت إشتي** أستاذ في الجامعة اللبنانية صدر له الكتب الآتية: **اللعب وأهميته لتنمية قدرات الطفل** (1994). **الشيوعيون والكتائب، تجربة التربية الحزينة في لبنان** (1997). **القيّم الاجتماعية في أدب الأطفال** (1999). **الاقتصاد العام** (3) **واقتصاد المنشأة** (المشروع) **مشترك – البكالوريا التقنية السنة الثالثة** (2001). **الاحزاب اللبنانية، قراءة في التجربة** (2004). **التشكيلات الناصرية في لبنان، طبيعة النشأة ومسارات التجربة، مرحلة ما قبل الطائف** (2004). **الفلسطينيون في لبنان آراء في العلاقات والحقوق والتوطين** (إشراف وإعداد) (2006). **السياسة تطور المعنى وتنوع المقتربات** (2007). **علم الاجتماع السياسي، مقدمات توضيحية** (2010). **الاحتباس الديمقراطي في الأحزاب اللبنانية** (مشترك) (2010). **تقرير حول الانتخابات في الأحزاب السياسية في لبنان** (2012).



